تفسير سورة الكهف

وهى مائة وإحدى عشرة آية قال القرطبى : وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة : أن أول السورة نـزل بالمدينة إلى قوله : ﴿ جرزا ﴾ والأول أصح . انتهى (١) . ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس ، أخرجه عنه النحاس وابن مردويه ومنهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مردويه .

وقد ورد فى فضلها أحاديث : منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبـو داود والترمـذى والنسائى وغيرهـم عـن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٢) . وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن حبان عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء قال : قرأ رجل سورة الكهف وفى الدار دابة فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « اقرأ فلان ، فإن السكينة نزلت للقرآن » (٤) . وهذا الذى كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبرانى . وأخرج الترمذى وصححه عن أبى الدرداء قال :قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٥) وفى قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث . وأخرج ابن مردويه، والضياء فى المختارة عن على قال : قال رسول الله ﷺ :« من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون ، فإن خرج الدجال عصم منه » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى والضياء عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره » (٦) . وأخرج الحاكم

---

(١) القرطبى ٦/ ٣٩٦٣ .

(٢) أحمد ٦/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ومسلم فى صلاة المسافرين (٩ - ٨/ ٢٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٣) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » ، إلا أنه قال ثلاث بدلا من عشر آيات ، والنسائى فى السنن الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٢٥) .

(٣) أحمد ٦/ ٤٤٦ ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٩/ ٢٥٧) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) .

(٤) البخارى فى المناقب (٣٦١٤) وفى التفسير (٤٨٣٩) وفى فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٩٥/ ٢٤٠) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٥) وقال : « حسن صحيح » .

(٥) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٦) صححه الحاكم ١/ ٥٦٤ على شرط مسلم وقال الذهبى : « ووقفه ابن مهدى عن الثورى عن أبى هاشم » ، والبيهقى موقوفا ٣/ ٢٤٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٦ : « رواه الطبرانى فى الأوسط فى حديث طويل وهو بتمامه فى كتاب الطهارة ، ورجاله رجال الصحيح » .

وصححه من حديث أبي سعيد ؛ أن النبي ﷺ قال : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » (١) . وأخرجه البيهقي أيضا في السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين»(٣) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « سورة أصحاب الكهف » . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة » وفي الباب أحاديث وآثار ، وفيما أوردناه كفاية مغنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾ .

علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما في حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ : كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ، وأحوال الملائكة والأنبياء ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها ، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبي ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ أي شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى . والعوج بالكسر في المعاني ، وبالفتح في الأعيان كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه : ﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ [طه: ١٠٧] يعني: الجبال ، وهي من الأعيان .

---

(١) صححه الحاكم ٢/٣٦٨ وقال الذهبي : « قلت : نعيم ذو مناكير » .

(٢) البيهقي ٣/٢٤٩ .

(٣) قال ابن كثير ٤/٣٦٤ : « رواه ابن مردويه بإسناد له غريب وقال : هذا الحديث في رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف » .

قال الزجاج : المعنى فى الآية : لم يجعل فيها اختلافا كما قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ [النساء : ٨٢] . والقيم : المستقيم الذى لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها ، وعلى الأول يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج، فرب مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة ، وانتصاب ﴿ قيما ﴾ بمضمر ، أى جعله قيما ، ومنع صاحب الكشاف [1] أن يكون حالا من الكتاب ، لأن قوله: ﴿ ولم يجعل ﴾ معطوف على ﴿ أنزل ﴾ فهو داخل فى حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة. وقال الأصفهانى: هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثانى مفرد ، وهذا صواب لأن قوله : ﴿ ولم يجعل ﴾ لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة . وقيل : إن ﴿ قيما ﴾ حال من ضمير ﴿ لم يجعل له ﴾ . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير :أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله فى قوله قيما فقال :﴿ لينذر بأسا شديدا ﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى: لينذر الكافرين. والبأس : العذاب ، ومعنى ﴿ من لدنه ﴾ : صادرا من لدنه نازلا من عنده . روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ : « من لدنه » بإشمام الدال الضمة، وبكسر النون والهاء . وهى لغة الكلابيين . وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ قرئ : « يبشر » بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿ أن لهم أجرا حسنا ﴾ وهو الجنة حال كونهم ﴿ ماكثين فيه ﴾ أى فى ذلك الأجر ﴿ أبدا ﴾ أى مكثا دائما لا انقطاع له، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد ، لتقدم ذكره فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش . القائلون بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية ، وهى إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هى بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية . فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

﴿ ما لهم به من علم ﴾ أى بالولد ، أو اتخاذ الله إياه ، و« من » مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة ، والمعنى : ما لهم بذلك علم أصلا ﴿ ولا لآبائهم ﴾ علم ، بل كانوا فى زعمهم هذا على ضلالة ، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ انتصاب ﴿كلمة﴾ على التمييز ، وقرئ بالرفع على الفاعلية . قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة . وقال الزجاج : كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هى قولهم : اتخذ الله ولدا . ثم وصف الكلمة بقوله : ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ وفائدة هذا

---

(١) الكشاف ٢ / ٧٠٢ .

الوصف : استعظام اجترائهم على التفوه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل . ثم زاد فى تقبيح ما وقع منهم فقال: ﴿ **إن يقولون إلا كذبا** ﴾ أى ما يقولون إلا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال .

ثم سلى رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم** ﴾ قال الأخفش والفراء : البخع: الجهد. وقال الكسائى : بخعت الأرض بالزراعة : إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها . وقال أبو عبيدة : معناه : مهلك نفسك ، ومنه قول ذى الرمة :

ألا أيهاذا الباخع الوجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال : لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿ **على آثارهم**﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿ **إن لم يؤمنوا بهذا الحديث**﴾ أى القرآن : وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح « أن » أى لأن لم يؤمنوا ﴿ **أسفا** ﴾ أى غيظا وحزنا وهو مفعول له أو مصدر فى موضع الحال ، كذا قال الزجاج .

﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها** ﴾ هذه الجملة استئناف . والمعنى : إنا جعلنا ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد ، كقوله سبحانه : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ [البقرة : ٢٩] وانتصاب ﴿ **زينة** ﴾ على أنها مفعول ثان لـ ﴿ **جعل** ﴾ واللام فى ﴿ **لنبلوهم أيهم أحسن عملا**﴾ متعلقة بـ ﴿**جعلنا** ﴾ وهى إما للغرض أو للعاقبة ، والمراد بالابتلاء : أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان . وقال الزجاج : ﴿ **أيهم** ﴾ رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى : لنمتحن أهذا أحسن عملا أم ذاك ؟ قال الحسن : أيهم أزهد . وقال مقاتل : أيهم أصلح فيما أوتى من المال .

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال : ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ أى لجاعلون ماعليها من هذه الزينة عند تناهى عمر الدنيا ﴿**صعيدا** ﴾ : ترابا . قال أبو عبيدة : الصعيد : المستوى من الأرض . وقال الزجاج : هو الطريق الذى لا نبات فيه . قال الفراء : الجرز: الأرض التى لا نبات فيها ، ومن قولهم : امرأة جرزا : إذا كانت أكولا، وسيفا جرازا: إذا كان مستأصلا ، وجرز الجراد والشاة والإبل :الأرض إذا أكلت ما عليها . قال ذو الرمة :

طوى النحز والإجراز ما فى بطونها

ومعنى النظم : لا تحزن يا محمد، مما وقع من هؤلاء من التكذيب ، فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا ، فمجازوهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾ الآية . قال : أنزل الكتاب عدلا قيما ﴿ **ولم يجعل له عوجا** ﴾ ملتبسا. وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ **قيما** ﴾ قال : مستقيما . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **من لدنه** ﴾ أى من عنده . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **حسنا** ﴾ يعنى : الجنة ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحترى فى نفر من قريش ، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه حزنا شديدا ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **باخع نفسك** ﴾ يقول : قاتل نفسك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله . أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **أسفا** ﴾ قال : جزعا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **أسفا** ﴾ قال : حزنا .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها** ﴾ قال : الرجال . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله. وأخرج أبو نصر السجزى فى الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية قال : العلماء زينة الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى التاريخ ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرعكم فى طاعة الله » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : ليختبرهم ﴿ **أيهم أحسن عملا** ﴾ قال : أيهم أتم عقلا . وأخرج عن الحسن ﴿ **أيهم أحسن عملا** ﴾ قال : أشدهم للدنيا تركا ، وأخرج أيضا عن الثورى قال : أزهدهم فى الدنيا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ قال : يهلك كل شىء ويبيد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الصعيد : التراب والجبال التى ليس فيها زرع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : يعنى بالجرز : الخراب .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ

(١) ابن جرير ١٢ / ٥ .

عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ﴾ .

قوله : ﴿ أم حسبت ﴾ « أم » هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير: بل أحسبت ، أو بل حسبت ، ومعناها : الانتقال من حديث إلى حديث آخر ، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل . والمعنى : أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، قال سبحانه : بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط ؟ لاتحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادرا على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ، ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس ، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة ، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة ، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك . و﴿ عجبا ﴾ منتصبة على أنه خبر كان ، أى ذات عجب ، أو موصوفة بالعجب مبالغة ، ﴿ من آياتنا ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ إذ أوى الفتية ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقدر ، وهو اذكر، أى صاروا إليه وجعلوه مأواهم ، والفتية : هم أصحاب الكهف . والكهف : هو الغار الواسع فى الجبل . فإن كان صغيرا سمى غارا ، والرقيم قال كعب والسدى : إنه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف . قال الفراء : ويروى أنه إنما سمى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه . والرقم : الكتابة . وروى مثل ذلك عن ابن عباس . ومنه قول العجاج فى أرجوزة له :

ومستقرى المصحف الرقيم

وقيل : إن الرقيم : اسم كلبهم . وقيل : هو اسم الوادى الذى كانوا فيه . وقيل :اسم الجبل الذى فيه الغار . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أى من عندك ، و«من » ابتدائية متعلقة بـ ﴿ آتنا ﴾، أو لمحذوف وقع حالا ، والتنوين فى ﴿ رحمة ﴾ إما للتعظيم أو للتنويع ، وتقديم ﴿ من لدنك ﴾ للاختصاص، أى رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك ، وهى المغفرة فى الآخرة والأمن من الأعداء ، والرزق فى الدنيا ﴿ وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ أى أصلح لنا ، من قولك: هيأت

الأمر فتهيأ ، والمراد بأمرهم : الأمر الذى هم عليه وهو مفارقتهم للكفار . والرشد: نقيض الضلال ، و« من » للابتداء . ويجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك : رأيت منك رشدا . وتقديم المجرورين للاهتمام بهما .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ قال المفسرون : أنمناهم . والمعنى : سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات ، والمفعول محذوف ، أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، و﴿ فى الكهف ﴾ ظرف لضربنا ، وانتصاب ﴿ سنين ﴾ على الظرفية ، و﴿ عددا ﴾ صفة لسنين ، أى ذوات عدد على أنه مصدر، أو بمعنى : معدودة على أنه لمعنى المفعول ، ويستفاد من وصف السنين بالعدد : الكثرة . قال الزجاج: إن الشىء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد ، وإن كثر احتاج إلى أن يعد . وقيل : يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : ٤٧] .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة ﴿ لنعلم ﴾ أى ليظهر معلومنا ، وقرئ بالتحتية مبنيا للفاعل على طريقة الالتفات ، و﴿ أى الحزبين ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أى من الاستفهام ، وخبره ﴿ أحصى ﴾ وهو فعل ماض. قيل : والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث : هو الاختبار مجازا فيكون المعنى : بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده ، والمراد بالحزبين : الفريقان من المؤمنين والكافرين من أصحاب الكهف المختلفين فى مدة لبثهم . ومعنى أحصى : أضبط . وكأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف ، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، و« ما » فى ﴿لما لبثوا ﴾ مصدرية ، أى أحصى للبثهم . وقيل : اللام زائدة ، و« ما » بمعنى : الذى و﴿ أمدا ﴾ تمييز ، والأمد : الغاية . وقيل : إن ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل. ورد بأنه خلاف ما تقرر فى علم الإعراب ، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم : أفلس من ابن المذلق ، وأعدى من الجرب . وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه وابن عصفور . وقيل : إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا . وقيل : إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب . وقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم .

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ إذ أوى الفتية ﴾ أى نحن نخبرك بخبرهم بالحق ، أى قصصناه بالحق ، أو متلبسا بالحق ﴿ إنهم فتية ﴾ أى أحداث شبان ، و﴿ آمنوا بربهم ﴾ صفة لـ ﴿ فتية ﴾. والجملة مستأنفة بتقدير سؤال . والفتية جمع قلة ، و﴿ زدناهم هدى ﴾ بالتثبيت والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ أى قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان ، وفراق الخلان والأخدان ﴿ إذ قاموا ﴾ الظرف منصوب بربطنا . واختلف أهل التفسير فى هذا القيام

على أقوال : فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إنى لأجد فى نفسى شيئا ، إن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا : ونحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا ، فقاموا جميعا ﴿ **فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ قاله مجاهد . وقال أكثر المفسرين : إنه كان لهم ملك جبار يقال له : دقيانوس ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿ **فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ . وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿ **لن ندعو من دونه إلها** ﴾ أى لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ **لقد قلنا إذا شططا** ﴾ أى قولا ذا شطط ،أو قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر. واللام هى الموطئة للقسم ، والشطط : الغلو ومجاوزة الحد . قال أعشى بن قيس :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط   كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

﴿ **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ ﴿ **هؤلاء** ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ **اتخذوا** ﴾ ، و﴿**قومنا** ﴾ عطف بيان، وفى هذا الإخبار معنى للإنكار ، وفى الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿ **لولا يأتون عليهم بسلطان بين** ﴾ أى هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ فزعم أن له شريكا فى العبادة، أى لا أحد أظلم منه .

﴿ **وإذ اعتزلتموهم** ﴾ أى فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانبا ، أى عن العابدين للأصنام ، وقوله: ﴿ **وما يعبدون إلا الله** ﴾ معطوف على الضمير المنصوب، و« ما » موصولة أو مصدرية ، أى وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه ، وقوله : ﴿ **إلا الله** ﴾ استثناء منقطع على تقدير : أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام ، أو متصل على تقدير : أنهم أشركوها فى العبادة مع الله سبحانه . وقيل : هو دليل على جوابه ، أى إذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا ، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، وإذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ **ينشر لكم ربكم من رحمته** ﴾ أى يبسط ويوسع ﴿ **ويهيئ لكم من أمركم مرفقا** ﴾ أى يسهل وييسرلكم من أمركم الذى أنتم بصدده ﴿ **مرفقا** ﴾ المرفق بفتح الميم وكسرها لغتان قرئ بهما، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع . وقيل : فتح الميم أقيس ، وكسرها أكثر . قال الفراء : وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الإنسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان ، وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر ، والمرفق من الإنسان . وقال الكسائى : الكسر فى مرفق اليد . وقيل : المرفق بالكسر : ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح: الأمر الرافق ، والمراد هنا: ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله ، والتقديم فى الموضعين يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : الرقيم : الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه قال : الرقيم : وادٍ دون فلسطين قريب من أيلة ، والراويان عن ابن عباس ضعيفان. وأخرج ابن جرير من طريق

ابن جريج عنه أيضا قال : هو الجبل الذى فيه الكهف . وأخرج ابن المنذر عنه ، قال: والله ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم بنيان ؟ وفى رواية عنه من طريق أخرى قال : وسألت كعبا فقال : اسم القرية التى خرجوا منها . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : الرقيم : الكلب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ يقول : الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ يقول : أرقدناهم ﴿**ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين** ﴾ من قوم الفتية ، أهل الهدى ، وأهل الضلالة ﴿ **أحصى لما لبثوا**﴾ ، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه والشهر والسنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **وزدناهم هدى** ﴾ قال : إخلاصا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ قال : بالإيمان . وفى قوله : ﴿ **لقد قلنا إذا شططا** ﴾ قال : كذبا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : جورا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله : ﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله** ﴾ قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآى قال : هى فى مصحف ابن مسعود ، وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها .

﴿ **وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت** ﴾ شرع سبحانه فى بيان حالهم ، بعد ما أووا إلى الكهف . ﴿ **تزاور**﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل ، وقرأ ابن عامر : « تزور » قال الأخفش : لا يوضع الازورار فى هذا المعنى ، إنما يقال : هو مزور عنى ، أى منقبض . وقرأ الباقون بتشديد الزاى وإدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها. وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو ، وهو الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور : الميل . فمعنى الآية : أن الشمس إذا طلعت

تميل وتتنحى ﴿ **عن كهفهم** ﴾ قال الراجز الكلبى :

جاب المندا عن هوانا أزور

أى مائل ﴿ **ذات اليمين** ﴾ أى ناحية اليمين ، وهى الجهة المسماة باليمين ، وانتصاب ﴿**ذات**﴾ على الظرف ، ﴿ **وإذا غربت تقرضهم** ﴾ القرض : القطع . قال الكسائى والأخفش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتتركهم ، قرضت المكان : عدلت عنه ، تقول لصاحبك : هل وردت مكان كذا ؟ فيقول : إنما قرضته : إذا مر به وتجاوز عنه ، والمعنى : أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر ﴿ **ذات الشمال** ﴾ أى شمال الكهف لا تصيبه . بل تعدل عن سمته إلى الجهتين ، والفجوة : المكان المتسع ، وجملة : ﴿ **وهم فى فجوة منه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وللمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان : الأول : أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، لأن الله سبحانه حجبها عنهم . والثانى : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره ، ويؤيد القول الأول قوله : ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ، ويؤيده أيضا إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **من يهد الله** ﴾ أى إلى الحق ﴿ **فهو المهتد** ﴾ الذى ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ أى ناصرا يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه .

ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم فقال : ﴿ **وتحسبهم أيقاظا** ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿ **وهم رقود** ﴾ أى نيام ، وهو جمع راقد كقعود فى قاعد . قيل : وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج : لكثرة تقلبهم ﴿ **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾ أى نقلبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿**وكلبهم باسط ذراعيه** ﴾ حكاية حال ماضية ، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضى كما تقرر فى علم النحو . قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلا ، فمروا براع معه كلب فتبعهم . والوصيد : قال أبو عبيد وأبو عبيدة : هو فناء الباب ، وكذا قال المفسرون . وقيل : العتبة ، ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا** ﴾ قال الزجاج : فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية ، والفرار : الهرب ﴿ **ولملئت** ﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ **منهم رعبا** ﴾ قرئ

بسكون العين وضمها ، أى خوفا يملأ الصدر ، وانتصاب ﴿ رعبا ﴾ على التمييز ، أو على أنه مفعول ثان . وسبب الرعب الهيبة التى ألبسهم الله إياها . وقيل : طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئا ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة .

﴿ **وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم** ﴾ الإشارة إلى المذكور قبله ، أى وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعا ، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم فقال : ليتساءلوا بينهم ، أى ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع فى مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة ، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفى غيرها ، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ، وجملة : ﴿ **قال قائل منهم كم لبثتم** ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل ، أى كم مدة لَبثكم فى النوم ؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة ﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ أى قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم ، قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا : يوما ، فلما رأوا الشمس قالوا : أو بعض يوم ، وكان قد بقيت بقية من النهار ، وقد مر مثل هذا الجواب فى قصة عزير فى البقرة. ﴿ **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم** ﴾ أى قال البعض الآخر هذا القول ، إما على طريق الاستدلال ، أو كان ذلك إلهاما لهم من الله سبحانه ، أى أنكم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿ **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة** ﴾ أعرضوا عن التحاور فى مدة اللبث ، وأخذوا فى شىء آخر ، كأنه قال القائل منهم : اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة ، وخذوا فى شىء آخر مما يهمكم ، والفاء : للسببية ، والورق : الفضة مضروبة أو غير مضروبة. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم بسكونها ، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف ، وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء . وفى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافى التوكل على الله ، والمدينة : دقسوس ، وهى مدينتهم التى كانوا فيها ، ويقال لها اليوم : طرسوس ، كذا قال الواحدى : ﴿ **فلينظر أيها أزكى طعاما** ﴾ أى ينظر أى أهلها أطيب طعاما ، وأحل مكسبا ، أو أرخص سعرا . وقيل : يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها فى المقام كما يقال : زيد طبت أبا ، على أن الأب هو زيد ، وفيه بعد . واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفارا ، وفيهم قوم يخفون إيمانهم ، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿**وليتلطف**﴾ أى يدقق النظرحتى لا يعرف أولا يغبن ، والأول أولى ، ويؤيده ﴿ **ولا يشعرن بكم أحدا** ﴾ أى لا يفعلن ما يؤدى إلى الشعور ويتسبب له ، فهذا النهى يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علل ما سبق من الأمر والنهى فقال : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾ أى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ، يعنى : أهل المدينة ﴿ يرجموكم ﴾ يقتلوكم بالرجم ، وهذه القتلة هى أخبث قتلة ، وكان ذلك عادة لهم ، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿ أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ أى يردوكم إلى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد بالعود هنا : الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم ، وإيثار كلمة « فى » على كلمة « إلى » للدلالة على الاستقرار ﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ فى ﴿ إذا ﴾ معنى الشرط ، كأنه قال : إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ تزاور ﴾ قال : تميل ، وفى قوله : ﴿تقرضهم ﴾ قال : تذرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ تقرضهم﴾ قال : تتركهم ، ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ قال : المكان الداخل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض ، ويعنى بالخلوة : الناحية من الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ونقلبهم﴾ الآية قال : ستة أشهر على ذى الجنب اليمين ، وستة أشهر على ذى الجنب الشمال. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية قال : كى لا تأكل الأرض لحومهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم : قطمورا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : اسمه قطمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿ بالوصيد ﴾ قال : بالفناء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : بالباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ أزكى طعاما﴾ قال : أحل ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ أزكى طعاما ﴾ يعنى : أطهر ، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم** ﴾ أى وكما أنمناهم وبعثناهم ، أعثرنا عليهم، أى أطلعنا الناس عليهم وسمى الإعلام : إعثارا ؛ لأن من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه ، فكان الإعثار سببا لحصول العلم ﴿**ليعلموا أن وعد الله حق**﴾ أى ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق . قيل : وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث ، فأراه الله هذه الآية . قيل : وسبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق ، وكانت من ضربة دقيانوس، إلى السوق ، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك ، فقال له : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال : بعت بها أمس شيئا من التمر ، فعرف الملك صدقه ، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف ﴿**وأن الساعة لا ريب فيها**﴾ أى وليعلموا أن القيامة لا شك فى حصولها ، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿ **إذ يتنازعون بينهم أمرهم** ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ **أعثرنا** ﴾ ، أى أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله فى أمر البعث . وقيل : فى أمر أصحاب الكهف فى قدر مكثهم ، وفى عددهم ، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم ﴿ **فقالوا ابنوا عليهم بنيانا** ﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية ، فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس .

ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم وفى عددهم ، وفى مدة لبثهم ، وفى نحو ذلك مما يتعلق بهم: ﴿ **ربهم أعلم بهم** ﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم ، قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى الله سبحانه . وقيل : هو من كلام الله سبحانه ، ردا لقول المتنازعين فيهم ، أى دعوا ما أنتم فيه من التنازع ، فإنى أعلم بهم منكم . وقيل : إن الظرف فى ﴿ **إذ يتنازعون** ﴾ متعلق بمحذوف هو اذكر ، ويؤيده أن الإعثار ليس فى زمن التنازع بل قبله ، ويمكن أن يقال : إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعثار، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون ﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا** ﴾ ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون . وقيل : هم أهل السلطان . والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم ، والأول أولى . **قال الزجاج** : هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور . لأن المساجد للمؤمنين .

﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين . وقيل : هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ﴿ **ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ أى هم ثلاثة أشخاص ،

وجملة: ﴿ **رابعهم كلبهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿**ويقولون خمسة سادسهم كلبهم** ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله ، وانتصاب ﴿**رجما بالغيب** ﴾ على الحال ، أى راجمين أو على المصدر ، أى يرجمون رجما ، والرجم بالغيب : هو القول بالظن والحدس من غير يقين ، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة ، والقائلين بأنهم خمسة ﴿ **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلك الراجمين بالغيب . قيل : وإظهار الواو فى هذه الجملة يدل على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين . قال أبو على الفارسى قوله : ﴿ **رابعهم كلبهم** ﴾ و﴿ **سادسهم كلبهم** ﴾ جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهى قوله : ﴿ **ثلاثة** ﴾ والتقدير : هم ثلاثة ، هكذا حكاه الواحدى عن أبى على ، ثم قال : وهذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى : ﴿ **وثامنهم** ﴾ وإخراجها من الأول . وقيل : هى مزيدة للتوكيد . وقيل : إنها واو الثمانية ، وإن ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما فى قوله تعالى : ﴿وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم : ٥] .

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال : ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ منكم أيها المختلفون ، ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس فقال : ﴿ **ما يعلمهم** ﴾ أى يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف ﴿ **إلا قليل** ﴾ من الناس . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف فقال : ﴿ **فلا تمار فيهم** ﴾ المراء فى اللغة : الجدال ، يقال : مارى يمارى مماراة ومراء : أى جادل ، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا فقال: ﴿ **إلا مراء ظاهرا**﴾ أى غير متعمق فيه وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب . وقال الرازى : هو ألا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد، بل يقول : هذا التعيين لا دليل عليه ، فوجب التوقف ، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم فقال : ﴿**ولاتستفت فيهم منهم أحدا** ﴾ أى لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم ، لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتى ، وهاهنا الأمر بالعكس ، ولاسيما فى واقعة أهل الكهف ، وفيما قص الله عليك فى ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

﴿ **ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا** ﴾ أى لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا . قال الواحدى : قال المفسرون :لما سألت اليهود النبى ﷺ عن خبر الفتية فقال : « أخبركم غدا » ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحى عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول : إذا قلت لشيء : إنى فاعل ذلك غدا ، فقل : إن شاء الله . وقال الأخفش والمبرد والكسائى والفراء : لا تقولن لشيء : إنى فاعل ذلك غدا ، إلا أن تقول : إن شاء الله ،

فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال . قيل : وهذا الاستثناء مفرغ ، أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال ،إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول: إن شاء الله ، أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا . وقيل : الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل : لا تقولنه أبدا كقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ [الأعراف : ٨٩] . لأن عودهم فى ملتهم مما لا يشاؤه الله .

﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ الاستثناء بمشيئة الله ، أى فقل : إن شاء الله ، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة. وقد اختلف أهل العلم فى المدة التى يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة فى مواضعها . وقيل : المعنى: ﴿ **واذكر ربك** ﴾ بالاستغفار ﴿ **إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا** ﴾ المشار إليه بقوله : ﴿ **من هذا** ﴾ هو نبأ أصحاب الكهف ، أى قل يا محمد : عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى . قال الزجاج : عسى أن يعطينى ربى من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب فى الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح فى الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل : الإشارة إلى قوله : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ أى عسى أن يهدينى ربى عند هذا النسيان لشىء آخر بدل هذا المنسى ، وأقرب منه رشدا وأدنى منه خيرا ومنفعة ، والأول أولى .

﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **مائة** ﴾ ونصب ﴿ **سنين** ﴾ ، فيكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان . وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائى : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : سنين ثلاثمائة . ورجح الأول أبو على الفارسى . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى : ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ [الكهف : ١٠٣] قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو على الفارسى : هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع ، وفى مصحف عبد الله : « ثلثمائة سنة » . وقال الأخفش : لا تكاد العرب تقول: مائة سنين . وقرأ الضحاك : « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ الجمهور : ﴿**تسعا** ﴾ بكسر التاء . وقرأ أبو عمرو بفتحها ، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم .

قال ابن جرير : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة فى كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر الله أن يرد علم ذلك إليه ، فقال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأول : يريد فى يوم الكهف ، ولبثوا الثانى : يريد بعد الإعثار عليهم إلى مدة محمد ﷺ ، أو إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه

لما قال : ﴿ **وازدادوا تسعا** ﴾ لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة . والأول أولى ؛ لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام بدليل أن العدد فى هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات . وعن الزجاج أن المراد : ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب .

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله : ﴿ **له غيب السموات والأرض** ﴾ أى ما خفى فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شىء ، ثم زاد فى المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال : ﴿ **أبصر به وأسمع** ﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين ، وأنه يستوى فى علمه الغائب والحاضر ،والخفى والظاهر ،والصغير والكبير واللطيف والكثيف، وكأن أصله ما أبصره وما أسمعه ، ثم نقل بإلى صيغة الأمر للإنشاء ، والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر فى علم النحو﴿ **ما لهم من دونه من ولى** ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض . وقيل : لأهل الكهف . وقيل :لمعاصرى محمد ﷺ من الكفار ، أى ما لهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم ، وفى هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ **ولا يشرك فى حكمه أحدا** ﴾ قرأ الجمهوربرفع الكاف فى ﴿ **يشرك** ﴾ على الخبر عن الله سبحانه . وقرأ ابن عباس والحسن وأبورجاء وقتادة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهى للنبى ﷺ أن يجعل الله شريكا فى حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر . وقرأ مجاهد بالتحتية والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهها ، والمراد بحكم الله : مايقضيه، أو علم الغيب . والأول أولى. ويدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوليا، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم** ﴾ قال : أطلعنا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم** ﴾ قال : الأمراء ، أو قال : السلاطين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **سيقولون ثلاثة** ﴾ قال : اليهود ﴿ **ويقولون خمسة** ﴾ قال : النصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **رجما بالغيب** ﴾ قال : قذفا بالظن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ما يعلمهم إلا قليل** ﴾ قال : أنا من القليل كانوا سبعة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ، قال السيوطى : بسند صحيح ، فى قوله : ﴿ **ما يعلمهم إلا قليل** ﴾ قال : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم . وحكاه ابن كثير عن ابن عباس فى رواية قتادة وعطاء وعكرمة ، ثم قال:فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا تمار فيهم** ﴾ يقول : حسبك ما قصصت

عليك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تستفت فيهم منهم أحدا** ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا تقولن لشىء** ﴾ الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشىء إنى أفعله فنسيت أن تقول : إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ، ثم قرأ : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هى خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد أن يستثنى إلا فى صلة يمين . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حانث. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ــ وفى رواية : تسعين ــ تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله ، فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا لحاجته »[1] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة : ﴿ **إذا نسيت** ﴾ قال : إذا غضبت . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن الحسن : ﴿ **إذا نسيت** ﴾ قال : إذا لم تقل : إن شاء الله .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم** ﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال : ﴿**سيقولون ثلاثة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **رجما بالغيب** ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال : ﴿**سيقولون** ﴾ : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى حرف ابن مسعود ، وقالوا : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم** ﴾ الآية : يعنى : إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة** ﴾ قيل : يا رسول الله ، أياما أم أشهرا أم سنين ؟ فأنزل الله : ﴿ **سنين وازدادوا تسعا** ﴾ . وأخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أبصر به وأسمع** ﴾ قال : الله يقوله .

---

(١) البخارى معلقا فى الجهاد (٢٨١٩) وفى النكاح موصولا (٥٢٤٢) وفيه : « مائة امرأة » ومسلم فى الأيمان (١٦٥٤/ ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥) والنسائى فى التفسير (٣٢٢) .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)
وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ
عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن
سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾ .

قوله : ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه ، قيل : ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ **واتل** ﴾ : واتبع ، أمرا من التلو ، لا من التلاوة ، و﴿ **من كتاب ربك** ﴾ بيان للذى أوحى إليه ﴿ **لامبدل لكلماته** ﴾ أى لا قادر على تبديلها وتغييرها ، وإنما يقدر على ذلك هو وحده . قال الزجاج : أى ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له ، وعلى هذا يكون التقدير: لا مبدل لحكم كلماته ﴿ **ولن تجد من دونه ملتحدا** ﴾ الملتحد : الملتجأ ، وأصل اللحد : الميل . قال الزجاج : لن تجد معدلا عن أمره ونهيه ، والمعنى: أنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه، وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف .

ثم شرح سبحانه فى نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم**﴾ قد تقدم فى الأنعام نهيه ﷺ عن طرد فقراء المؤمنين بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم ، فصبر النفس هو حبسها ، وذكر الغداة والعشى كناية عن الاستمرار على الدعاء فى جميع الأوقات . وقيل : فى طرفى النهار ، وقيل : المراد : صلاة العصر والفجر . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر : « بالغدوة » بالواو ، واحتجوا بأنها فى المصحف كذلك مكتوبة بالواو . قال النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول : الغدوة، ومعنى ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ : أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال : ﴿ **ولا تعد عيناك عنهم**﴾ أى لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم . قال الفراء : معناه : لا تصرف عيناك عنهم ، وقال الزجاج : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبو ، من عدوته عن الأمر ، أى صرفته منه. وقيل : معناه : لا تحتقرهم عيناك ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ أى مجالسة أهل الشرف والغنى ، والجملة فى محل نصب على الحال، أى

حال كونك مريدا لذلك ، هذا إذا كان فاعل ﴿ **تريد** ﴾ هو النبى ﷺ ، وإن كان الفاعل ضميرا يعود إلى العينين، فالتقدير : مريدة زينة الحياة الدنيا ، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز ، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر :

لمن زحلوقة زل   بها العينان تنهل

﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ أى جعلناه غافلا بالختم عليه ، نهى رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحى الفقراء عن مجلسه ، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ أى متجاوزا عن حد الاعتدال ، من قولهم : فرس فرط : إذا كان متقدما للخيل ، فهو على هذا من الإفراط . وقيل : هو من التفريط ، وهو التقصير والتضييع . قال الزجاج : ومن قدم العجز فى أمره أضاعه وأهلكه .

ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ ما يقوله لأولئك الغافلين ، فقال : ﴿ **وقل الحق من ربكم** ﴾ أى قل لهم : إن ماأوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله ، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير . وقيل : المراد بالحق : الصبر مع الفقراء . قال الزجاج : أى الذين أتيتكم به الحق من ربكم يعنى : لم آتكم به من قبل نفسى إنما أتيتكم به من الله ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ قيل : هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذى أمر به رسول الله ﷺ ، وفيه تهديد شديد ، ويكون المعنى : قل لهم يا محمد : الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر . ثم أكد الوعيد وشدده فقال : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين** ﴾ أى أعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأنبيائه نارا عظيمة ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ أى اشتمل عليهم . والسرادق : واحد السرادقات . قال الجوهرى : وهى التى تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف فهو سرادق ، ومنه قول رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن جارود   سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه   صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. وقال ابن الأعرابى: سرادقها: سورها . وقال القتيبى : السرادق : الحجرة التى تكون حول الفسطاط . والمعنى : أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه ﴿ **وإن يستغيثوا** ﴾ من حر النار ﴿ **يغاثوا بماء كالمهل** ﴾ وهو الحديد

المذاب. قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر. وقيل: هو دردى الزيت. وقال أبو عبيدة والأخفش : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس . وقيل : هو ضرب من القطران . ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه ﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ إذا قدم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿ **بئس الشراب** ﴾ شرابهم هذا ﴿**وساءت**﴾ النار ﴿ **مرتفقا** ﴾ متكأ، يقال : ارتفقت، أى اتكأت ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق . ويقال: ارتفق الرجل : إذا نام على مرفقه ، وقال القتيبى: هو المجلس ، وقيل : المجتمع .

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين . والمعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ هذا خبر ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ ، والعائد محذوف ، أى من أحسن منهم عملا ، وجملة : ﴿ **أولئك لهم جنات عدن** ﴾ استئناف لبيان الأجر، والإشارة إلى من تقدم ذكره . وقيل : يجوز أن يكون ﴿ **أولئك** ﴾ خبر ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ ، وتكون جملة : ﴿ **إنا لا نضيع** ﴾ اعتراضا ، ويجوز أن يكون ﴿ **أولئك** ﴾ خبرا بعد خبر ، وقد تقدم الكلام فى ﴿ **جنات عدن** ﴾ ، وفى كيفية جرى الأنهار من تحتها ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب** ﴾ قال الزجاج : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهى زينة تلبس فى الزند من اليد وهى من زينة الملوك . قيل : يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور : واحد من فضة ، وواحد من لؤلؤ ، وواحد من ذهب ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، ويمكن أن يكون قول القائل هذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أساور من فضة ﴾[الإنسان : ٢١] ولقوله فى آية أخرى : ﴿ ولؤلؤا ﴾ [الحج:٢٣] «ومن » فى قول : ﴿ **من أساور** ﴾ للابتداء ، وفى : ﴿ **من ذهب** ﴾ للبيان . وحكى الفراء : « يحلون » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلى فهى حالية : إذا لبست الحلى ﴿ **ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق** ﴾ قال الكسائى: السندس : الرقيق ، واحده سندسة ، والإستبرق: ما ثخن ، وكذا قال المفسرون . وقيل : الإستبرق:هو الديباج كما قال الشاعر :

وإستبرق الديباج طورا لباسها

وقيل : هو المنسوج بالذهب . قال القتيبى : هو فارسى معرب . قال الجوهرى : وتصغيره أبيرق ، وخص الأخضر لأنه الموافق للبصر ، ولكونه أحسن الألوان ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة ، وهى السرر فى الحجال . قيل : هى أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وأصل اتكأ : اوتكأ ، وأصل متكئين : موتكئين ، والاتكاء : التحامل على الشىء ﴿ **نعم الثواب** ﴾ ذلك الذى أثابهم الله به ﴿ **وحسنت** ﴾ تلك الأرائك ﴿ **مرتفقا** ﴾ أى متكأ وقد تقدم قريبا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿**ملتحدا** ﴾ قال:

ملتجأ . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله ، لو جلست فى صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله :﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا** ﴾ زاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى ، معكم المحيا والممات » (١).

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق ، فلما رآهم جلس معهم وقال :« الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم» (٢) . وأخرج البزار عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا:جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » وفى الباب روايات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع قال : أخبرنى عبد الله بن عمر فى هذه الآية ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** ﴾ أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى قوله : ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ الآية قال : نزلت فى صلاة الصبح وصلاة العصر .

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ قال : نزلت فى أمية بن خلف ، وذلك أنه دعا النبى ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ، فأنزل الله هذه الآية ، يعنى : من ختمنا على قلبه يعنى : التوحيد ﴿ **واتبع هواه** ﴾ يعنى : الشرك ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ يعنى : فرطا فى أمر الله وجهالة بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبى ﷺ فى يوم حار ، وعنده سلمان عليه جبة صوف ، فصار منه ريح العرق فى الصوف ، فقال عيينة : يا محمد ، إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا ، فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم ، فأنزل الله ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه** ﴾ الآية . وقد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى ﷺ

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٤٥ .

(٢) ابن جرير ١٥/ ١٥٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٤ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه، فأنزل الله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم** ﴾ الآية(١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ قال : ضياعا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وقل الحق** ﴾ قال : هو القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ يقول : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء له الكفركفر ، وهو قوله :﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير : ٢٩] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال فى الآية : هذا تهديد ووعيد . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ قال : حائط من نار . وأخرج أحمد والترمذى وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبو يعلى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة » (٢) . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه (٣) وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البحر هو من جهنم » ، ثم تلا ﴿ **نارا أحاط بهم سرادقها** ﴾ (٤) . وأخرج أحمد والترمذى وأبويعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **بماء كالمهل** ﴾ قال : « كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه» (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **كالمهل** ﴾ قال : أسود كعكر الزيت . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : سئل ابن عباس عن المهل فقال : ماء

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٣٤١٣/ ٤٥ ، ٤٦) .

(٢) أحمد ٣/ ٢٩ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وقال: «هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد ، وفى رشدين مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وابن جرير ١٥/ ١٥٧ وأبو يعلى (١٣٨٩) وصححه الحاكم ٤/ ٦٠٠ ، ٦٠١ وسكت عنه الذهبى وإسناده ضعيف.

(٣) فى المخطوطة«البخارى» والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤/ ٢٢٠كما ورد الحديث فى كشف الخفا ١/ ٢٨١ (٨٨٣) ولم يذكر البخارى ممن أخرج الحديث .

(٤) أحمد ٤/ ٢٢٣ وابن جرير ١٥/ ١٥٧ ، وصححه الحاكم ٤/ ٥٩٦ ووافقه الذهبى وقد تقدمت الرواية الصحيحة: « إن جهنم تحت الأرض السابعة » .

(٥) أحمد ٣/ ٧٠ ، ٧١ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وفى التفسير (٣٣١٩) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين . ورشدين فيه مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وأبو يعلى (١٣٧٥) وابن جرير ١٥/ ١٧٥ وصححه ابن حبان (٧٤٣٠) والحاكم ٢/ ٥٠١ ووافقه الذهبى .

غليظ كدردى الزيت . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن المهل ، فدعا بذهب وفضة فأذابه ، فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذى هو شراب أهل النار ولونه لون السماء ، غير أن شراب أهل النار أشد حرا من هذا . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : هل تدرون ما المهل ؟ المهل : سهل الزيت ،يعنى : آخره . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وساءت مرتفقا﴾ قال : مجتمعا .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» (١). وأخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد بن عبد الله قال : فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عكرمة قال : الإستبرق : الديباج الغليظ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن الهيثم بن مالك الطائى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول منه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأرائك : السرر فى جوف الحجال عليها الفرش منضود فى السماء فرسخ . وأخرج البيهقى فى البعث عنه قال : لا تكون أريكة حتى يكون السرير فى الحجلة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة أنه سئل عن الأرائك فقال : هى الحجال على السرر .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا

---

(١) البخارى فى اللباس (٥٩٥٣) ومسلم فى الطهارة (٢٥٠/ ٤٠) والنسائى ١/ ٩٣ .

كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين** ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله : ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ . وقد اختلف فى الرجلين هل هما مقدران أو محققان ؟ فقال بالأول بعض المفسرين . وقال بالآخر بعض آخر . واختلفوا فى تعيينهما ، فقيل : هما أخوان من بنى إسرائيل . وقيل : هما أخوان مخزوميان من أهل مكة : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر . وقيل : هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله : ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ﴾ [الصافات : ٥١] وانتصاب ﴿**مثلا**﴾ و﴿ **رجلين** ﴾ على أنهما مفعولا ﴿ **اضرب** ﴾ ، قيل : والأول هو الثانى والثانى هو الأول ﴿**جعلنا لأحدهما جنتين**﴾ هو الكافر، و﴿ **من أعناب** ﴾ بيان لما فى الجنتين ، أى من كروم متنوعة ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ الحف : الإحاطة ، ومنه: ﴿ حافين من حول العرش ﴾ [الزمر : ٧٥] ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفا ، أى أطافوا به ، فمعنى الآية : وجعلنا النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿ **وجعلنا بينهما زرعا** ﴾ أى بين الجنتين ، وهو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات والفواكه .

ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدى حملها وما فيها ، فقال : ﴿ **كلتا الجنتين آتت أكلها** ﴾ أخبر عن ﴿ **كلتا** ﴾ بـ ﴿ **آتت** ﴾ ، لأن لفظه مفرد ، فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثنى . وقال الفراء : هو مثنى ، وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وقال سيبويه : ألف كلتا للتأنيث ، والتاء بدل من لام الفعل ، وهى واو ، والأصل : كلوا ، وقال أبو عمرو : التاء ملحقة ، وأكلهما : هو ثمرهما، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحا للأكل . وقرأ عبد الله بن مسعود : «كل الجنتين آتى أكله » . ﴿ **ولم تظلم منه شيئا** ﴾ أى لم تنقص من أكلها شيئا ، يقال : ظلمه حقه ، أى نقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين ؛ فإنها فى الغالب تكثر فى عام ، وتقل فى عام ﴿ **وفجرنا خلالهما نهرا** ﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهرا ليسقيهما دائما من غير انقطاع ، وقرئ:﴿**فجرنا** ﴾ بالتشديد للمبالغة، وبالتخفيف على الأصل .

﴿ **وكان له** ﴾ أى لصاحب الجنتين ﴿ **ثمر** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبى إسحاق ﴿**ثمر**﴾ بفتح الثاء والميم ، وكذلك قرؤوا فى قوله : ﴿ **أحيط بثمره** ﴾ وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم فيهما ، وقرأ الباقون بضمهما جميعا فى الموضعين . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر ، وجمع الثمر: ثمار ، مثل : جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار: ثمر. مثل : كتاب وكتب ، وجمع الثمر: أثمار. مثل : عنق وأعناق . وقيل : الثمر : جميع المال من الذهب والفضة، والحيوان وغير ذلك . وقيل : هو الذهب والفضة خالصة ﴿ **فقال لصاحبه** ﴾ أى قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿ **وهو يحاوره** ﴾ أى

والكافر يحاور المؤمن ، والمعنى: يراجعه الكلام ويجاوبه ، والمحاورة : المراجعة ، والتحاور: التجاوب ﴿ **أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** ﴾ النفر : الرهط ، وهو ما دون العشرة ، وأرادها هنا الأتباع والخدم والأولاد .

﴿ **ودخل جنته** ﴾ أى دخل الكافر جنة نفسه . قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم ، فأدخله جنته يطوف به فيها ، ويريه عجائبها ، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه: كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما ، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة ، أو لأنه أدخله فى واحدة ، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما . وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف [1] أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، وجملة : ﴿ **وهو ظالم لنفسه** ﴾ فى محل نصب على الحال أى وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿ **قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا** ﴾ أى قال الكافر لفرط غفلته وطول أمله: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التى تشاهدها .

﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته . قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منهما منقلبا** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : أنه إن يرد إلى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه ، واللام فى ﴿**لأجدن** ﴾ جواب القسم ، والشرط ، أى لأجدن يومئذ خيرا من هذه الجنة . فى مصاحف مكة والمدينة والشام : « خيرا منهما » وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة ﴿ **خيرا منها** ﴾ على الإفراد ، و﴿**منقلبا** ﴾ منتصب على التميز ، أى مرجعا وعاقبة ، قال هذا قياسا للغائب على الحاضر ، وأنه لما كان غنيا فى الدنيا ، سيكون غنيا فى الأخرى ، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من الله .

﴿ **قال له صاحبه** ﴾ أى قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله : ﴿**أكفرت بالذى خلقك من تراب** ﴾بقولك: ﴿ **ما أظن الساعة قائمة** ﴾ وقال: خلقك من تراب، أى جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه ، وهو أصلك ، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك . وقيل : يحتمل أنه كان كافرا بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ **ثم من نطفة** ﴾ وهى المادة القريبة ﴿ **ثم سواك رجلا**﴾ أى صيرك إنسانا ذكرا ، وعدل أعضاءك وكملك ،وفى هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، وانتصاب ﴿ **رجلا** ﴾ على الحال أو التمييز .

﴿ **لكنا هو الله ربى** ﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة. وأصله:لكن أنا ، حذفت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا ، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت الثانية ، وضمير هو للشأن ، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا ، والراجع ياء الضمير ، وتقدير الكلام : لكن أنا الشأن الله ربى . قال أهل العربية : إثبات

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٢١ .

ألف أنا فى الوصل ضعيف . قال النحاس : مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل : لكن أنا ، وذكر نحو ما قدمنا . وروى عن الكسائى أن الأصل : لكن الله هو ربى أنا . قال الزجاج : إثبات الألف فى لكنا فى الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا ، فجاؤوا بها عوضا ، قال : وفى قراءة أبى : « لكن أنا هو الله ربى » وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع ، وورش عن يعقوب : ﴿ **لكنا** ﴾ فى حال الوصل والوقف معا بإثبات الألف، ومثله قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونى جميعا قد تـذريت السنامـــا

ومنه قول الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوافـى بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وأبو العالية ، وروى عن الكسائى : « لكن هو الله ربى » ثم نفى عن نفسه الشرك بالله ، فقال : ﴿ **ولا أشرك بربى أحدا** ﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركا .

ثم أقبل عليه يلومه فقال : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله** ﴾ لولا للتحضيض ، أى هلا قلت عندما دخلتها هذا القول. قال الفراء والزجاج: « ما » فى موضع رفع على معنى : الأمر ما شاء الله ، أى هلا قلت حين دخلتها : الأمر بمشيئة الله ، وما شاء الله كان ، ويجوز أن تكون « ما » مبتدأ والخبر مقدر ، أى ما شاء الله كائن ، ويجوز أن تكون « ما » شرطية والجواب محذوف ، أى أى شىء شاء الله كان ﴿ **لا قوة إلا بالله** ﴾ أى هلا قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، تحضيضا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله ، لا بقوته وقدرته . قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما فى يده من ملك ونعمة إلا بالله ، ولا يكون إلا ما شاء الله . ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿ **إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا** ﴾ المفعول الأول :ياء الضمير ، و ﴿ **أنا** ﴾ : ضمير فصل ، و ﴿ **أقل** ﴾ : المفعول الثانى للرؤية إن كانت علمية ، وإن جعلت بصرية كان انتصاب ﴿ **أقل** ﴾ على الحال ، ويجوز أن يكون ﴿ **أنا** ﴾ تأكيد لياء الضمير ، وانتصاب ﴿**مالا**﴾ و﴿ **ولدا** ﴾ على التمييز .

﴿ **فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك** ﴾ هذا جواب الشرط ، أى إن ترنى أفقر منك ، فأنا أرجو أن يرزقنى الله سبحانه جنة خيرا من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ﴿**ويرسل عليها حسبانا** ﴾ أى ويرسل على جنتك حسبانا . والحسبان مصدر ، بمعنى : الحساب كالغفران ، أى مقدار قدره الله عليها ، ووقع فى حسابه سبحانه ، وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: الحسبان من الحساب ، أى يرسل عليها عذاب الحساب ،وهو حساب ما كسبت يداك . وقال الأخفش : حسبانا : أى مرامى ﴿ **من السماء** ﴾ واحدها حسبانه ، وكذا قال أبوعبيدة

والقتيبى . وقال ابن الأعرابى : الحسبانة : السحابة ، والحسبانة : الوسادة ، والحسبانة : الصاعقة . وقال النضر بن شميل : الحسبان : سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس ، ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى: يرسل عليها مرامى من عذابه: إما برد ، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب . ومنه قول زياد الكلابى :

أصاب الأرض حسبان

أى جراد . ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ أى فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسبانا صعيدا ، أى أرضا لا نبات بها وقد تقدم تحقيقه ، ﴿ **زلقا** ﴾ أى تزلق فيها الأقدام لملاستها ، يقال : مكان زلق بالتحريك ، أى دحض، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلقت رجله تزلق زلقا وأزلقها غيره ، والمزلقة : الموضع الذى لا يثبت عليه قدم ، وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة ، أو أريد به المفعول . وجملة : ﴿ **أو يصبح ماؤها غورا** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، والغور : الغائر . وصف الماء بالمصدر مبالغة ، والمعنى : أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما ، ويجىء الغور بمعنى : الغروب ، ومنه قول أبى ذؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها   وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

﴿ **فلن تستطيع له طلبا** ﴾ أى لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل . وقيل المعنى : فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه .

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال : ﴿**وأحيط بثمره** ﴾ قد قدمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف وتفسيره ، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم فى قوله : ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ [يوسف : ٦٦] وهى عبارة عن إهلاكه وإفنائه ، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره ﴿**فأصبح يقلب كفيه** ﴾ أى يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وهو كناية عن الندم ،كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿ **على ما أنفق فيها** ﴾ أى فى عمارتها وإصلاحها من الأموال وقيل : المعنى : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم: فى يده مال، وهو بعيد جدا ، وجملة : ﴿ **وهى خاوية على عروشها** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى : إذا سقطت ولم تمطر فى نوئها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [النمل : ٥٢] قيل : وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل ، وأيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقى ، وجملة : ﴿ **ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا** ﴾ معطوفة على ﴿ **يقلب كفيه** ﴾ ، أو حال من ضميره أى وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك ، أو كان

هذا القول منه على حقيقته ، لا لما فاته من الغرض الدنيوى ، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه .

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ ﴿ فئة ﴾ اسم كان و﴿ له ﴾ خبرها ، و﴿ينصرونه ﴾ صفة لفئة أى فئة ناصرة ، ويجوز أن تكون ، ﴿ ينصرونه ﴾ الخبر ، ورجح الأول سيبويه ،ورجح الثانى : المبرد ، واحتج بقوله:﴿ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص : ٤] والمعنى : أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿ وما كان ﴾ فى نفسه ﴿منتصرا﴾ أى ممتنعا بقوته عن إهلاك الله لجنته ، وانتقامه منه .

﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى: « الحق » بالرفع نعتا للولاية ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة : ﴿ الحق ﴾ بالجر نعتا لله سبحانه . قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « الولاية » بكسر الواو ، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان بمعنى ، والمعنى: هنالك ، أى فى ذلك المقام ، النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره . وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى الولاية لله الحق هنالك ﴿ هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى هو سبحانه خير ثوابا لأوليائه فى الدنيا والآخرة ﴿وخير عقبا ﴾ أى عاقبة ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة: ﴿ عقبا ﴾ بسكون القاف ، وقرأ الباقون بضمها ، وهما بمعنى واحد أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به ، يقال : هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه ، أى أخراه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ قال : الجنة : هى البستان ، فكان له بستان واحد وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ، فلذلك كانا جنتين ، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذى عليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى قال : نهر أبى قرطس نهر الجنتين . قال ابن أبى حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ولم تظلم منه شيئا ﴾ قال : لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عنه ﴿ وكان له ثمر﴾ يقول : مال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : قرأها ابن عباس : « وكان له ثمر » بالضم ، وقال : هى أنواع المال . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ وكان له ثمر ﴾ قال : ذهب وفضة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ يقول : كفور بنعمة ربه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب : «الله الله ربى لا أشرك به شيئا » . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفى عمن ذكره قال : « طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال : ما شاء الله ، فإذا حاجته بين يديه ، فقال : يارب، إنى أطلب حاجتى منذ كذا وكذا أعطيتها

الآن ، فأوحى الله إليه : يا موسى ، أما علمت أن قولك : ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج » . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته ، وقرأ : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾ » [(١)] وفى إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس . قال أبو الفتح الأزدى : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه [(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا. وأخرج البيهقى فى الشعب عنه نحوه مرفوعا . وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال: قال لى نبى الله ﷺ: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ » قلت : نعم ، قال : « أن تقول : لا قوة إلا بالله » [(٣)]. وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى أن النبى ﷺ قال له: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » [(٤)] . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى فضل هذه الكلمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ قال : مثل الجرز . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **حسبانا من السماء**﴾ قال : عذابا ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ أى قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شىء ﴿ **أو يصبح ماؤها غورا** ﴾ أى ذاهبا قد غار فى الأرض ﴿ **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه** ﴾ قال : يصفق ﴿**على ما أنفق فيها** ﴾ متلهفا على ما فاته .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ .

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا** ﴾ أى اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها . وقد تقدم هذا المثل فى سورة يونس ، ثم بين سبحانه هذا المثل فقال : ﴿ **كماء أنزلناه من السماء** ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثانى لقوله: ﴿ **اضرب** ﴾ على جعله بمعنى: صير ﴿ **فاختلط به نبات الأرض**﴾أى اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى. وقيل: المعنى: إن النبات اختلط بعضه

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٢٠٧) وإسناده ضعيف . وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧٣) ونسبه لأبى يعلى.

(٢) ابن كثير ٤/ ٣٨٨ .

(٣) أحمد ٢/ ٤٦٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٠٢ : « خرجه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير أبى بلج الكبير وهو ثقة » .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٢٠٥) وفى الدعوات (٦٤٠٩) وفى القدر(٦٦١٠) ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٤/ ٤٤،٤٥) .

ببعض حين نزل عليه الماء ، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر ، فتكون الباء فى ﴿ به ﴾ سببية ﴿ **فأصبح** ﴾ النبات ﴿ **هشيما** ﴾ الهشيم : الكسير ، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ، ورجل هشيم : ضعيف البدن ، وتهشم عليه فلان : إذا تعطف ، واهتشم ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده ، ومنه قول ابن الزبعرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿ **تذروه الرياح** ﴾ : تفرقه . قال أبو عبيدة وابن قتيبة : تذروه : تنسفه ، وقال ابن كيسان : تذهب به وتجيء ، والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مصرف : « تذريه الريح » قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله « تذريه » يقال : ذرته الريح تذروه ، وأذرته تذريه . وحكى الفراء أذريت الرجل عن فرسه ، أى قلبته ﴿ **وكان الله على كل شىء مقتدرا** ﴾ أى على كل شىء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شىء .

﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ هذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء ، فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به فى الدنيا لا مما ينفع فى الآخرة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] وقال : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : ١٤]ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله : ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ أى أعمال الخير ، وهى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿ **خير عند ربك ثوابا** ﴾ أى أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابا ، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿ **وخير أملا** ﴾ أى أفضل أملا ، يعنى : أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين ، لأنهم ينالون بها فى الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء فى الدنيا ، وليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات فى الأحاديث بما سيأتى لا ينافى إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على قال : ﴿ **المال والبنون** ﴾ حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ قال : سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات » ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال :« التكبير والتهليل والتسبيح

والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) . وأخرج الطبرانى وابن شاهين وابن مردويه عن أبى الدرداء مرفوعا بلفظ : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هن الباقيات الصالحات » . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الصغير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا : «خذوا جنتكم » ، قيل : يا رسول الله ، من أى عدو قد حضر ؟ قال : « بل جنتكم من النار قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات، وهى الباقيات الصالحات » (٢). وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال:« ألا وإن سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله ،الباقيات الصالحات » (٣). وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعا ، وزاد : « التكبير » وسماهن الباقيات الصالحات . وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبى هريرة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعا نحوه ،وزادت: « ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث على مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فذكر نحوه دون الحوقلة . وأخرج الطبرانى عن سعد بن جنادة مرفوعا نحوه (٤) . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه . وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات ، وأما ما ورد فى فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة فى الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة فى ذكرها هنا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كل شىء من طاعة الله ، فهو من الباقيات الصالحات .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلى (١٣٨٤) وابن جرير ١٥/ ١٦٧ وابن حبان (٨٣٧) وصححه الحاكم ١/ ٥١٢ ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٩٠ : « رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن . وله شواهد » .

(٢) النسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٨٤) وابن جرير ١٥/ ١٦٦ والطبرانى فى الصغير ١/ ١٤٥ وصححه الحاكم ١/ ٥٤١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٩٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٩٢ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله فى الصغير رجال الصحيح غير داود بن بلال وهو ثقة » .

(٣) أحمد ٤/ ٢٦٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٥٠ : « قلت له : حديث فى الباقيات الصالحات غير هذا رواه ابن ماجة : رواه أحمد وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) الطبرانى (٥٤٨٢ ، ٥٤٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٦٩ : « وفيه الحسين بن الحسن العوفى ، وهو ضعيف » .

(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾.

وقوله : ﴿ **ويوم نسير الجبال** ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « تسير » بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول ، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل. وقرأ ابن محيصن ومجاهد: « تسير» بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل. وقرأ الباقون: ﴿ **نسير** ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ [التكوير : ٣] ، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى : ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ [الطور : ١٠] واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله : ﴿ **وحشرناهم** ﴾ قال بعض النحويين : التقدير : والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال. وقيل: العامل فى الظرف فعل محذوف ، والتقدير : واذكر يوم نسير الجبال ، ومعنى تسيير الجبال: إزالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهى تمر مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨]، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال : ﴿ وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا ﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦]. والخطاب فى قوله : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح للرؤية ، ومعنى بروزها : ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان . وقيل : المعنى ببروزها : بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه :﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ [الانشقاق : ٤] ، وقال : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] فيكون المعنى : وترى الأرض بارزا ما فى جوفها ﴿ **وحشرناهم** ﴾ أى الخلائق ، ومعنى الحشر : الجمع ، أى جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ **فلم نغادر منهم أحدا** ﴾ فلم نترك منهم أحدا ، يقال : غادره وأغدره إذا تركه ، قال عنترة :

غادرته متعفرا أوصاله ... والقوم بين مجرح ومجندل

أى تركته ، ومنه الغدر ،لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور ، قالوا:وإنما سمى الغدير غديرا ؛ لأن الماء ذهب وتركه ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿ **وعرضوا على ربك صفا** ﴾

انتصاب ﴿ **صفا** ﴾ على الحال ، أى مصفوفين كل أمة وزمرة صف . وقيل : عرضوا صفا واحدا كما فى قوله: ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ [طه : ٦٤] أى جميعا . وقيل : قياما . وفى الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذى يعرض على السلطان ﴿ **لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ هو على إضمار القول، أى قلنا لهم لقد جئتمونا ، والكاف فى ﴿ **كما خلقناكم** ﴾نعت مصدر محذوف ، أى مجيئا كائنا كمجيئكم عندما خلقناكم أول مرة،أو كائنين كما خلقناكم أول مرة، أى حفاة عراة غرلا ، كما ورد ذلك فى الحديث (١) . قال الزجاج : أى بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم ، لأن قوله : ﴿**لقد جئتمونا** ﴾ معناه : بعثناكم ﴿ **بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا**﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكرى البعث ، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، وأن لن نجعل لكم موعدا نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

وجملة : ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ معطوفة على ﴿ **عرضوا** ﴾ ، والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس . والوضع إما حسى بأن يوضع صحيفة كل واحد فى يده : السعيد فى يمينه ، والشقى فى شماله ؛ أو فى الميزان . وإما عقلى ، أى أظهر عمل كل واحد من خير وشر بالحساب الكائن فى ذلك اليوم ﴿ **فترى المجرمين مشفقين مما فيه** ﴾ أى خائفين وجلين مما فى الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح فى ذلك الجمع ، والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ **ويقولون يا ويلتنا** ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك ، ومعنى هذا النداء قد تقدم تحقيقه فى المائدة ﴿ **مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ أى أى شىء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها ﴿ **ووجدوا ما عملوا** ﴾ فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة ، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿ **حاضرا** ﴾ مكتوبا مثبتا ﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ أى لا يعاقب أحدا من عباده بغير ذنب ، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقه .

ثم إنه سبحانه عاد إلى الرد على أرباب الخيلاء من قريش ، فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ أى واذكر وقت قولنا لهم : اسجدوا سجود تحية وتكريم ، كما مر تحقيقه ﴿ **فسجدوا** ﴾ طاعة لأمر الله وامتثالا لطلبه السجود ﴿ **إلا إبليس** ﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، وجملة ﴿ **كان من الجن** ﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، ومعنى : ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ أنه خرج عن طاعة ربه . قال الفراء : العرب تقول : فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحاس : اختلف فى معنى ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ على قولين : الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه. كما تقول: أطعمه عن جوع .

---

(١) روى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون يوم القيامه حفاة عراة غرلا » الحديث. البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٩/٥٦ ، ٥٦ م) .

والقول الآخر قول قطرب : أن المعنى على حذف المضاف ، أى فسق عن ترك أمره . ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس فى الكفر والمعاصى وخالف أمر الله فقال : **﴿أفتتخذونه وذريته أولياء ﴾** كأنه قال : أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه وتتخـذون ذريته أى أولاده ، وقيل : أتباعه مجازا .**﴿ أولياء من دونى ﴾** فتطيعونهم بدل طاعتى وتستبدلونهم بى ، والحال أنهم ، أى إبليس وذريته **﴿ لكم عدو ﴾** أى أعداء . وأفرده لكونه اسم جنس ، أو لتشبيهه بالمصادر كما فى قـوله : ﴿ فإنهـم عدو لى ﴾ [الشعـراء : ٧٧] ، وقوله : ﴿ هـم العـدو ﴾ [المنافقون :٤] أى كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم ؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط ؛ بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل وقت**﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾** أى الواضعين للشىء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان ، فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلا عن الله سبحانه .

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ قال أكثر المفسرين : إن الضمير للشركاء ، والمعنى : أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسهم لكانوا شاهدين خلق ذلك مشاركين لى فيه ، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء . وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم . وقيل : الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد : أنهم ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم بدليل أنى **﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾** : ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق ، وقيل : المعنى : أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل ، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور ، وقرأ أبو جعفر : «ماأشهدناهم» وقرأ الباقون :**﴿ ما أشهدتهم ﴾** ويؤيده **﴿ وما كنت متخذ المضلين عـضدا ﴾** والعضد يستعمل كثيرا فى معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد ، ومنه قوله: ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ [القصص :٣٥] أى سنعينك ونقويك به ، ويقال : أعضدت بفلان : إذا استعنت به ، وذكر العضد على جهة المثل ، وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ ، والمعنى : ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وماكنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا ، ووحد العضد لموافقة الفواصل . وقرأ أبو جعفر الجحدرى : « وما كنت» بفتح التاء على أن الخطاب للنبى ﷺ أى وما كنت يا محمد متخذا لهم عضدا ولا صح لك ذلك ، وقرأ الباقون بضم التاء ، وفى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين وضم الضاد ، وبها قرأ الجمهور . وقرأ الحسن : « عضد » بضم العين والضاد ، وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما ، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد .

ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال : **﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين**

زعمتم ﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر : « نقول » بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، أى اذكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيخا لهم وتقريعا : نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم ، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جريا على ما يعتقده المشركون ، تعالى الله عن ذلك ﴿ **فدعوهم** ﴾ أى فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿**فلم يستجيبوا لهم** ﴾ إذ ذاك ، أى لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم ، فضلا عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿ **وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ أى جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقا ، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق فرق الله به تعالى بينهم ، وعلى هذا فهو اسم مكان . قال ابن الأعرابى : كل حاجز بين شيئين فهو موبق . وقال الفراء : الموبق:المهلك . والمعنى : جعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة . يقال : وبق يوبق فهو وبق ، هكذا ذكره الفراء فى المصادر . وحكى الكسائى : وبق يبق وبوقا فهو وابق، والمراد بالمهلك على هذا هو : عذاب النار يشتركون فيه . والأول أولى ؛ لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء الله : الملائكة وعزير والمسيح ، فالموبق: هو المكان الحائل بينهم. وقال أبو عبيدة: الموبق هنا : الموعد للهلاك، وقد ثبت فى اللغة : أوبقه بمعنى أهلكه ، ومنه قول زهير :

ومن يشترى حسن الثناء بماله ‏ ‏ ‏ ‏ يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول .

﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾ : ﴿ **المجرمون** ﴾ موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ، والظن هنا بمعنى اليقين. والمواقعة: المخالطة بالوقوع فيها . وقيل : إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظنا ﴿ **ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾ أى معدلا يعدلون إليه ، أو انصرافا ، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب . قال الواحدى : المصرف : الموضع الذى ينصرف إليه . وقال القتيبى : أى معدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجؤون إليه . والمعنى متقارب فى الجميع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ قال : ليس عليها بناء ولا شجر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يغادر صغيرة ولا كبيرة** ﴾ قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك . وزاد ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عنه قال: الصغيرة : التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة : القهقهة بذلك . وأقول : صغيرة وكبيرة نكرتان فى سياق النفى ، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر ، وكل ذنب يتصف بالكبر ، فلا يبقى من الذنوب شيء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا ، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس

قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ، فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطانا رجيما [١] . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **كان من الجن** ﴾ قال : كان خازن الجنان ، فسمى بالجان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : قاتل الله أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة طرفة عين ، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض** ﴾ قال: يقول ماأشهدت الشياطين الذين اتخذتم معى هذا ﴿ **وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ قال: الشياطين عضدا ، قال : ولا اتخذتهم عضدا على شىء عضدونى عليه فأعانونى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ يقول : مهلكا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج أبو عبيد وهناد وابن المنذر عنه قال : واد فى جهنم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن أنس فى الآية قال: واد فى جهنم من قيح ودم . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمرو قال : هو واد عميق فى النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة : وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾ قال : علموا .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾ .

(١) ابن جرير ١٥/ ١٧٠ والبيهقى فى الشعب (١٤٢) وقال : البيهقى رحمه الله : « فهذا إن ثبت دل على مفارقة هذه القبيلة غيرهم من الملائكة فى التسمية » . وإسناده حسن . وإبراهيم بن الحارث بن إسماعيل ثقة روى عنه البخارى ، ومترجم له فى سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٣ .

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال : ﴿ **ولقد صرفنا** ﴾ أى كررنا ورددنا ﴿ **فى هذا القرآن للناس** ﴾ أى لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿ **من كل مثل** ﴾ من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السورة ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة بنى إسرائيل ، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل ، ختم الآية بقوله : ﴿**وكان الإنسان أكثر شىء جدلا** ﴾ قال الزجاج : المراد بالإنسان : الكافر ، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى : ﴿**ويجادل الذين كفروا بالباطل** ﴾ وقيل : المراد به فى الآية : النضر ابن الحرث، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدال جدلا ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث على ، أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة ليلا ، فقال: « ألا تصليان ؟ » فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شىء جدلا** ﴾ (١) . وانتصاب ﴿ **جدلا** ﴾ على التمييز .

﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين** ﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل ، وذكرنا أن « أن » الأولى فى محل نصب ، والثانية فى محل رفع . والهدى : القرآن ومحمد ﷺ ، والناس هنا هم : أهل مكة ، والمعنى على حذف مضاف : أى ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين ، أو انتظار إتيان سنة الأولين ، وزاد الاستغفار فى هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التى من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال الزجاج: سنتهم هو قولهم : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية: [الأنفال : ٣٢] ﴿ **أو يأتيهم العذاب** ﴾ أى عذاب الآخرة ﴿ **قبلا** ﴾ قال الفراء : إن قبلا جمع قبيل ، أى متفرقا يتلو بعضه بعضا . وقيل : عيانا . وقيل : فجأة . ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبى جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب وخلف ﴿ **قبلا** ﴾ بضمتين فإنه جمع قبيل ، نحو سبيل وسبل ، والمراد : أصناف العذاب ؛ ويناسب التفسير الثانى ، أى عيانا ، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء أى مقابلة ومعاينة . وقرئ بفتحتين على معنى : أو يأتيهم العذاب مستقبلا ، وانتصابه على الحال . فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم ، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته .

﴿ **وما نرسل المرسلين** ﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿ **إلا** ﴾ حال كونهم ﴿ **مبشرين** ﴾ للمؤمنين ﴿ **ومنذرين** ﴾ للكافرين، فالاستثناء مفرغ من أعم العام ، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ **ويجادل**

---

(١) البخارى فى التهجد (١١٢٧) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٥/٢٠٦) والنسائى فى التفسير (٣٢٥) .

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أى ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوه وأصل الدحض : الزلق . يقال : دحضت رجله ، أى زلقت تدحض دحضا ، ودحضت الشمس عن كبد السماء : زالت ، ودحضت حجته دحوضا : بطلت ، ومن ذلك قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاد فهبته　　　وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل: ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [الشعراء : ١٥٤] ونحو ذلك : ﴿ **واتخذوا آياتى** ﴾ أى القرآن ﴿ **وما أنذروا** ﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿**هزوا**﴾ أى لعبا وباطلا، وقد تقدم هذا فى البقرة .

﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها** ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكر ﴿ **ونسى ما قدمت يداه** ﴾ من الكفر والمعاصى ، فلم يتب عنها . قيل: والنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : هو على حقيقته ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ أى أغطية . والأكنة : جمع كنان ، والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿ **وفى آذانهم وقرا** ﴾ أى وجعلنا فى آذانهم ثقلا يمنع من استماعه ، وقد تقدم تفسير هذا فى الأنعام ﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا** ﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة** ﴾ أى كثير المغفرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال : ﴿ **لو يؤاخذهم بما كسبوا** ﴾ أى بسبب ما كسبوه من المعاصى التى من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿ **لعجل لهم العذاب** ﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿ **بل** ﴾ جعل ﴿ **لهم موعد** ﴾ أى أجل مقدر لعذابهم . قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : يوم بدر ﴿ **لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ أى ملجأ يلجؤون إليه . وقال أبو عبيدة : منجا . وقيل : محيصا، ومنه قول الشاعر :

لا وا ألـت نفســك خليتهـــا　　　للعامريــن ولـم تكلــم

وقال الأعشى :

وقد أخالس رب البيت غفـلته　　　وقد يحاذر منى ثم ما يئـل

أى ما ينجو . ﴿ **وتلك القرى** ﴾ أى قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿ **أهلكناهم** ﴾ هذا خبر اسم الإشارة و﴿ **القرى** ﴾ صفته ، والكلام على حذف مضاف ، أى أهل القرى أهلكناهم ﴿ **لما ظلموا** ﴾ أى وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصى ﴿ **وجعلنا لمهلكهم موعدا** ﴾ أى وقتا معينا، وقرأ أبو بكر عن عاصم مهلكهم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر هلك ، وأجاز الكسائى والفراء كسر اللام وفتح الميم ، وبذلك قرأ حفص ، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام . وقال الزجاج مهلك : اسم للزمان ، والتقدير : لوقت مهلكهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا أن تأتيهم سنة الأولين** ﴾ قال : عقوبة الأولين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله : ﴿ **قبلا** ﴾ قال : جهارا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : فجأة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ونسى ما قدمت يداه** ﴾ قال : نسى ما سلف من الذنوب الكثيرة . وأخرج أيضا عن ابن عباس :﴿ **بما كسبوا** ﴾ يقول :بما عملوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ **بل لهم موعد** ﴾ قال: الموعد يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **موئلا** ﴾ قال : ملجأ : وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **موئلا** ﴾ قال : محرزا .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾.

الظرف فى قوله : ﴿ **وإذ قال** ﴾ متعلق بفعل محذوف هو اذكر . قيل : ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة ، أن اليهود لما سألوا النبى ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا : إن أخبركم فهو نبى وإلا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبى لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار . وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى ابن عمران النبى المرسل إلى فرعون ، وقالت فرقة لا التفات إلى ما تقوله منهم نوف البكالى : إنه ليس ابن عمران ، وإنما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب ، وكان نبيا قبل موسى ابن عمران ، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما فى صحيح البخارى وغيره ، والمراد بفتاه هنا : هو يوشع بن نون . قال الواحدى : أجمعوا على أنه يوشع ابن نون ، وقد مضى ذكره فى المائدة ، وفى آخر سورة يوسف ، ومن قال : إن موسى هو ابن ميشى قال : إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون . قال الفراء : وإنما سمى فتى موسى لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه ، ومعنى ﴿ **لا أبرح** ﴾ لا أزال ، ومنه قوله : ﴿ لن

نبرح عليه عاكفين ﴾ [طه : ٩١] ومنه قول الشاعر [١] :

وأبرح ما أدام الله قومى بحمد الله منتطقا مجيدا

وبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة ، وخبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده وهو ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال الزجاج : لا أبرح بمعنى : لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله: ﴿ حتى أبلغ ﴾ غاية مضروبة ، فلابد لها من ذى غاية ، فالمعنى : لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد : لا يبرح مسيرى حتى أبلغ وقيل : معنى ﴿ لا أبرح ﴾ : لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين . وقيل : يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى زال يزال ، ومجمع البحرين: ملتقاهما . قيل : المراد بالبحرين: بحر فارس والروم . وقيل : بحر الأردن وبحر القلزم. وقيل : مجمع البحرين عند طنجة . وقيل : بإفريقية . وقالت طائفة : المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان ، وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح . ﴿ أو أمضى حقبا ﴾ أى أسير زمانا طويلا . قال الجوهرى : الحقب بالضم : ثمانون سنة . وقال النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة : زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطا وقوما منهم غير محدود ، وجمعه أحقاب . وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ، فأوحى الله إليه : إن أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين .

﴿ فلما بلغا ﴾ أى موسى وفتاه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أى بين البحرين ، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعا. وقيل : البين: بمعنى الافتراق ، أى البحران المفترقان يجتمعان هناك . وقيل : الضمير لموسى والخضر أى وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما ، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل ، لأنه من الأضداد ، والأول أولى . ﴿ نسيا حوتهما ﴾ قال المفسرون: إنهما تزودا حوتا مملحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب . والمعنى : أنهما نسيا بفقد أمره . وقيل : الذى نسى إنما هو فتى موسى ، لأنه وكل أمر الحوت إليه ، وأمره أن يخبره إذا فقده ، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فأحياه الله ، فتحرك واضطرب فى المكتل ، ثم انسرب فى البحر ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ انتصاب ﴿ سربا ﴾ على أنه المفعول الثانى لـ ﴿ اتخذ ﴾ أى اتخذ سبيلا سربا . والسرب : النفق الذى يكون فى الأرض للضب ونحوه من الحيوانات ، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوة المحفورة فى الأرض . قال الفراء : لما وقع فى الماء جمد مذهبه فى البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا ،

---

(١) الشاعر : هو خداش بن زهير ، وكان يثنى فيه على قومه .

فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر ، ولهذا قال سبحانه :﴿ **فلما جاوزا** ﴾ أى : مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة ﴿ **قال لفتاه آتنا غداءنا** ﴾ وهو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذى حملاه معهما ﴿ **لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ أى تعبا وإعياء ، قال المفسرون : الإشارة بقوله: ﴿ **سفرنا هذا** ﴾ إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور ، فإنهما لم يجدا النصب إلا فى ذلك دون ما قبله .

﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة** ﴾ أى قال فتى موسى لموسى ، ومعنى الاستفهام : تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى ، لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة الله الباهرة ، ومفعول ﴿ **أرأيت** ﴾ محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه ، والتقدير : أرأيت ما دهانى ، أو نابنى فى ذلك الوقت والمكان . وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد ، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان ، لاحتمال أن يكون المجمع مكانا متسعا يتناول مكان الصخرة وغيره ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما، وأمارة لوجدان مطلوبهما . ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان فقال : ﴿ **وما أنسانيه إلا الشيطان** ﴾ بما يقع منه من الوسوسة ، و﴿ **أن أذكره** ﴾ بدل اشتمال من الضمير فى ﴿ **أنسانيه** ﴾ وفى مصحف عبد الله : وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان . ﴿ **واتخذ سبيله فى البحر عجبا** ﴾ انتصاب ﴿ **عجبا** ﴾ على أنه المفعول الثانى كما مر فى ﴿ **سربا** ﴾ والظرف فى محل نصب على الحال ، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس ، وموضع التعجب : أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت ، فيكون ما بين الكلامين اعتراضا .

﴿ **قال ذلك ما كنا نبغ** ﴾ أى قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع هو الذى كنا نطلبه ، فإن الرجل الذى نريده هو هنالك ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ أى رجعا على الطريق التى جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما ،وانتصاب ﴿ **قصصا**﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أو على الحال ، أى قاصين أو مقتصين ، والقصص فى اللغة اتباع الأثر . ﴿ **فوجدا عبدا من عبادنا** ﴾ هو الخضر فى قول جمهور المفسرين ، وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف فى ذلك من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس هو الخضر بل عالم آخر . قيل : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . قيل : واسمه بليا بن ملكان ، ثم وصفه الله سبحانه فقال : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ قيل: الرحمة هى النبوة . وقيل : النعمة التى أنعم الله بها عليه ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم

الغيب الذى استأثر به ، وفى قوله : ﴿ **من لدنا** ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم ، وتعظيم له . قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم ، والرحلة فى ذلك ما يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه .

ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال : ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** ﴾ فى هذا السؤال ملاطفة ومبالغة فى حسن الأدب ، لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم . والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لـ﴿ **تعلمنى** ﴾ أى علما ذا رشد أرشد به ، وقرئ : « رشدا » بفتحتين ، وهما لغتان كالبخل والبخل . وفى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب . وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن .

﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ أى قال الخضر لموسى : إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى، لأن الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك . ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة ، فقال : ﴿ **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** ﴾ أى : كيف تصبر على علم ظاهره منكر ، وأنت لا تعلم ، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه ، و﴿ **خبرا** ﴾ منتصب على التمييز ، أى لم تحط به خبرك: والخبر العلم بالشىء ، والخبير بالأمور هو : العالم بخفاياها ، وبما يحتاج إلى الاختبار منها .

﴿ **قال ستجدنى إن شاء الله صابرا** ﴾ أى قال موسى للخضر : ستجدنى صابرا معك ، ملتزما طاعتك ﴿**ولا أعصى لك أمرا** ﴾ فجملة : ﴿ **ولا أعصى** ﴾ معطوفة على ﴿ **صابرا** ﴾ ، فيكون التقييد بقوله : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ شاملا للصبر ونفى المعصية . وقيل : إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ، لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه ، ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ، ونفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوم عليه فى الحال ، وفى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل . ﴿ **قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء** ﴾ مما تشاهده من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك الله به ﴿**حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ أى حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره ، وبيان وجهه وما يؤول إليه، وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

وقد أخرج الدارقطنى فى الأفراد ، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك

عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء» (١). وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن مجاهد إنما سمى الخضر لأنه إذا صلى اخضر ما حوله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ قال : حتى أنتهى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **مجمع البحرين** ﴾ . قال : بحر فارس والروم ، وهما نحو المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال : ﴿ **مجمع البحرين** ﴾ إفريقية . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : طنجة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أو أمضى حقبا** ﴾ قال : سبعين خريفا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : دهرا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **نسيا حوتهما** ﴾ قال : كان مملوحا مشقوق البطن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سربا** ﴾ قال : أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ قال : عودهما على بدئهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ قال : أعطيناه الهدى والنبوة .

واعلم أنها قد رويت فى قصة الخضر مع موسى المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، وأتمها وأكملها ما روى عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه ، وبعضها فى الصحيحين وغيرهما ، وبعضها فى أحدهما ، وبعضها خارج عنهما . وقد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ، ومن طريق هارون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب وابن عساكر ، فلنقتصر على الرواية التى هى أتم الروايات الثابتة فى الصحيحين ، ففى ذلك ما يغنى عن غيره، وهى : قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل: أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب ، فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل . ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٠٢) والترمذى فى التفسير (٣١٥١) وقال : « حسن صحيح » .

الماء، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به، فقال له فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا** ﴾ قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ﴿ **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش ، قال : وكان الحوت قد أكل منه ، فلما قطر عليه الماء عاش ، قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ،فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ؟ قال: أنا موسى قال: موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال : ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ يا موسى ، إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه ؛ قال موسى : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا** ﴾ فقال له الخضر : ﴿ **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (١) ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ **لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ ؟ قال : ﴿ **ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾. قال : وقال رسول الله ﷺ :« فكانت الأولى من موسى نسيانا » . قال :« وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى: ﴿ **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى﴿ **قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه** ﴾ قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى : قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » (٢) قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس

---

(١) النول : الجعل والأجر .

(٢) البخارى فى العلم (٧٤ ، ٧٨ ، ١٢٢) وفى الإجارة (٢٢٦٧) وفى الشروط (٢٧٢٨) وفى بدء الخلق (٣٢٧٨) وفى الأنبياء: (٣٤٠٠ ، ٣٤٠١) وفى التفسير (٤٧٢٥ـ ٤٧٢٧) وفى الأيمان والنذور (٦٦٧٢) وفى التوحيد (٧٤٧٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٨٠/ ١٧٠ ـ ١٧٢ ، ١٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٤٩) وقال : «حسن صحيح » . والنسائى فى التفسير (٣٢٧ ـ ٣٢٩) .

يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وكان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب هى موافقة لهذه الرواية فـى المعنى وإن تفاوتت الألفاظ فى بعضها فلا فائدة فى الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾.

قوله : ﴿ **فانطلقا** ﴾ أى موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم ﴿ **حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها** ﴾ قيل : قلع لوحا من ألواحها . وقيل : لوحين مما يلى الماء . وقيل : خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ أى لقد أتيت أمرا عظيما . يقال : أمر الأمر إذا كبر ، والإمر الاسم منه . وقال أبو عبيدة : الإمر: الداهية العظيمة ، وأنشد :

قد لقى الأقران منى نكرا داهية دهياء وأمرا إمرا

وقال القتيبى : الأمر العجب . وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد ، والاسم الإمر . قرأ حمزة والكسائى «ليغرق أهلها » بالياء التحتية المفتوحة ، ورفع « أهلها » على أنه فاعل . وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب ﴿ **أهلها** ﴾ على المفعولية ﴿ **قال** ﴾ أى الخضر ﴿ **ألم أقل**

إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ أذكره ما تقدم من قوله له سابقا :﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ [الكهف: ٦٧] فقال له موسى:﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت** ﴾ يحتمل أن تكون « ما » مصدرية ، أى لا تؤاخذنى بنسيانى ، أو موصولة أى لا تؤاخذنى بالذى نسيته ، وهو قول الخضر : ﴿ **فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسى ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ، ولكنه ترك العمل به ﴿ **ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾ قــال أبو زيـد: أرهقته عسرا إذا كلفته ذلك : والمعنى : عاملنى باليسر لا بالعسر . وقرئ : « عسرا » بضمتين .

﴿ **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله** ﴾ أى الخضر ، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير . قيل : كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتلع الخضر رأسه ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿**أقتلت نفسا زكية بغير نفس** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأويس بألف بعد الزاى وتخفيف الياء اسم فاعل . وقرأ الباقون بتشديد الياء من دون ألف ، الزاكية : البريئة من الذنوب . قال أبو عمرو : الزاكية : التى لم تذنب ، والزكية : التى أذنبت ثم تابت . وقال الكسائى : الزاكية والزكية لغتان . وقال الفراء : الزاكية والزكية مثل : القاسية والقسية ، ومعنى ﴿ **بغير نفس** ﴾ : بغير قتل نفس محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصا ﴿ **لقد جئت شيئا نكرا** ﴾ أى فظيعا منكرا لا يعرف فى الشرع . قيل : معناه : أنكر من الأمر الأول لكون القتل لا يمكن تداركه ، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه . وقيل : النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة . قيل : استبعد موسى أن يقتل نفسا بغير نفس ، ولم يتأول للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخرى ﴿ **قال** ﴾ الخضر ﴿ **ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ زاد هنا لفظ « لك » ، لأن سبب العتاب أكثر ، وموجبه أقوى. وقيل : زاد لفظ « لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعنى ﴿**قال** ﴾ موسى ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها** ﴾ أى بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿**فلا تصاحبنى** ﴾ أى لا تجعلنى صاحبا لك، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ، ولذا قال : ﴿ **قد بلغت من لدنى عذرا** ﴾ يريد أنك قـد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات ، وهذا كلام نادم شديد الندامة ، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف . قرأ الأعرج : « تصحبنى » بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقـرأ الجمهـور : ﴿ **تصاحبنى** ﴾ وقـرأ يعـقوب : « تصحبنى » بضم التاء وكسر الحاء ، ورواها سهل عن أبى عمرو . قال الكسائى : معناه : لا تتركنى أصحبك . وقرأ الجمهور :﴿ **لدنى** ﴾ بضم الدال إلا أن نافعا وعاصما خففا النون ، وشددها الباقون . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « لدنى » بضم اللام وسكون الدال قال ابن مجاهد : وهى غلط . قال أبو على: هذا التغليط لعله من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فصحيحة . وقرأ الجمهور :﴿ **عذرا** ﴾ بسكون الذال . وقرأ عيسى بن عمر بضم الذال . وحكى الدانى أن أبيا روى عن النبى ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة

العذر إلى نفسه .

﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية** ﴾ قيل : هى أيلة . وقيل : أنطاكية . وقيل : برقة . وقيل : قرية من قرى أذربيجان. وقيل : قرية من قرى الروم ﴿ **استطعما أهلها** ﴾ هذه الجملة فى محل الجر على أنها صفة لـ ﴿ **قرية** ﴾ ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد ، أو لكراهة اجتماع الضميرين فى هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿ **فأبوا أن يضيفوهما** ﴾ أى أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية [1] فقد أخطأ خطأ بينا ، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما فى الرد منقصة على قد رد موسى قبل والخضر

وقد ثبت فى السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿ **فوجدا فيها** ﴾ أى فى القرية ﴿ **جدارا يريد أن ينقض** ﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز . قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ، ومنه قول الراعى :

فى مهمه فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

ومعنى الانقضاض : السقوط بسرعة ، يقال : انقض الحائط إذا وقع ، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شىء ، ومعنى ﴿ **فأقامه** ﴾ : فسواه ، لأنه وجده مائلا فرده كما كان . وقيل : نقضه وبناه . وقيل : أقامه بعمود ، وقد تقدم فى الحديث الصحيح أنه مسحه بيده ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرا** ﴾ أى على إقامته وإصلاحه ، تحريضا من موسى للخضر على أخذ الأجر. قال الفراء: معناه: لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر ، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير وابن محيصن واليزيدى والحسن « لتخذت » يقال : تخذ فلان يتخذ تخذا مثل : اتخذ . وقرأ الباقون ﴿ **لاتخذت** ﴾. ﴿ **قال** ﴾ الخضر ﴿ **هذا فراق بينى وبينك** ﴾ على إضافة ﴿ **فراق** ﴾ إلى الظرف اتساعا ، أى هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا . قال الزجاج : المعنى : هذا فراق بيننا ، أى هذا فراق اتصالنا ، وكرر « بين » تأكيدا ، ولما قال الخضر لموسى بهذا، أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الأفعال التى أنكرها موسى فقال: ﴿ **سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا** ﴾ والتأويل : رجوع الشىء إلى مآله .

ثم شرع فى البيان له فقال : ﴿ **أما السفينة** ﴾ يعنى : التى خرقها ﴿ **فكانت لمساكين** ﴾ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم ﴿ **يعملون فى البحر** ﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك

---

(١) الكدية : تكفف الناس وسؤالهم .

السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة ، وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿ **وكان وراءهم ملك** ﴾ قال المفسرون : يعنى : أمامهم ، ووراء يكون بمعنى : أمام، وقد مر الكلام على هذا فى قوله: ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ [إبراهيم: ١٧] وقيل : أراد خلفهم ، وكان طريقهم فى الرجوع عليه ، وما كان عندهم خبر بأنه ﴿ **يأخذ كل سفينة غصبا** ﴾ أى كل سفينة صالحة لا معيبة ، وقد قرئ بزيادة « صالحة » ، روى ذلك عن أبى وابن عباس . وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين ، واختلف فى معناها ، فقيل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك السفينة ، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿ **وأما الغلام** ﴾ يعنى : الذى قتله ﴿ **فكان أبواه مؤمنين** ﴾ أى ولم يكن هو كذلك ﴿**فخشينا أن يرهقهما** ﴾ أى يرهق الغلام أبويه ، يقال : رهقه أى غشيه ، وأرهقه أغشاه . قال المفسرون : معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه ، وهو الكفر ، و﴿ **طغيانا** ﴾ مفعول ﴿ **يرهقهما** ﴾ ﴿ **وكفرا** ﴾ معطوف عليه . وقيل : المعنى : فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه . قيل : ويجوز أن يكون ﴿ **فخشينا** ﴾ من كلام الله ، ويكون المعنى : كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره ، وهذا ضعيف جدا ، فالكلام كلام الخضر . وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة ، فقيل : إنه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره . وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ، ويكون معنى ﴿ **فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا** ﴾ : أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا فى المعصية ، وقد يؤدى ذلك إلى الكفر والارتداد . والحاصل أنه لا إشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا أو قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك ، وأما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ ، فقيل : إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما ، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه ، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل فى الشريعة المحمدية ، ولكنه حل فى شريعة أخرى ، فلا إشكال . وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبيا ﴿ **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال . وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال ، والمعنى : أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدا خيرا منه ﴿ **زكاة** ﴾ أى دينا وصلاحا وطهارة من الذنوب ﴿ **وأقرب رحما** ﴾ قرأ ابن عباس وحمزة والكسائى وابن كثير وابن عامر : « رحما » بضم الحاء . وقرأ الباقون بسكونها ، ومعنى الرحم : الرحمة ، يقال : رحمه الله رحمة ورحمى ، والألف للتأنيث .

﴿ **وأما الجدار** ﴾ يعنى : الذى أصلحه ﴿ **فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** ﴾ هى القرية

المذكورة سابقا ، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قيل : كان مالا جسيما كما يفيده اسم الكنز ، إذ هو المال المجموع . قال الزجاج : المعروف فى اللغة أن الكنز إذا أفرد : فمعناه : المال المدفون ، فإذا لم يكن مالا قيل : كنز علم وكنز فهم . وقيل : لوح من ذهب . وقيل : صحف مكتوبة ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه وحفظ مالهما . قيل: هو الذى دفنه. وقيل: هو الأب السابع من عند الدافن له . وقيل : العاشر ﴿ **فأراد ربك** ﴾ أى مالك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له﴿ **أن يبلغا أشدهما** ﴾ أى كمالهما وتمام نموهما ﴿ **ويستخرجا كنزهما** ﴾ من ذلك الموضع الذى عليه الجدار ، ولو انقض لخرج الكنز من تحته﴿ **رحمة من ربك** ﴾ لهما، وهو مصدر فى موضع الحال ، أى مرحومين من الله سبحانه ﴿ **وما فعلته عن أمرى** ﴾ أى عن اجتهادى ورأيى ، وهو تأكيد لما قبله ، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿ **ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا** ﴾ أى ذلك المذكور من تلك البيانات التى بينتها لك وأوضحت وجوهها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ، ومعنى التأويل هنا : هو المآل الذى آلت إليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من ﴿ **تسطع** ﴾ تخفيفا.

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله :﴿ **لقد جئت شيئا إمرا** ﴾يقول : نكرا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:﴿ **إمرا** ﴾ فقال : عجبا . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب فى قوله :﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت** ﴾ قال : لم ينس ، ولكنها من معاريض الكلام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان الخضر عبدا لا تراه الأعين ، إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام . وأقول : ينبغى أن ينظر من أين له هذا ؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله : ولو رآه القوم إلخ ، فليس ذلك بموجب لما ذكره ، أما أولا : فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام ، لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم . وأما ثانيا : فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء ، فسلموا لأمر الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **نفسا زكية** ﴾ قال : مسلمة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : لم تبلغ الخطايا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **شيئا نكرا** ﴾ قال : النكر أنكر من العجب . وأخرج أحمد عن عطاء قال : كتب نجدة الحروى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم . وزاد ابن أبى شيبة من طريق أخرى عنه : ولكنك لا تعلم ،

قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ، ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا » (١) . وأخرج أبو داود والترمذى وعبد الله بن أحمد والبزار وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ **من لدنى عذرا** ﴾ مثقلة(٢) .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ **أن يضيفوهما** ﴾ مشددة . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فهدمه ، ثم قعد يبنيه » . قلت : ورواية الصحيحين التى قدمناها أنه مسحه بيده أولى . وأخرج الفريابى فى معجمه، وابن حبان ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : « لو شئت لتخذت عليه أجرا » مخففة (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن أبى ابن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر لقص الله علينا من خبره ، ولكن قال :﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى**﴾ » (٤) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقرأ : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» (٥) . وأخرج ابن الأنبارى عن أبى بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبى الزاهرية قال: كتب عثمان : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال: هى فى مصحف عبد الله: « فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خيرا منه زكاة** ﴾ قال : دينا ﴿**وأقرب رحما** ﴾ قال : مودة ، فأبدلا جارية ولدت نبيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا، فلا يعجبن الرجل ، فيقول : فما شأن الكنز ،

---

(١) مسلم فى القدر (٢٦٦١/ ٢٩) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) أبو داود فى القرآن والحروف (٣٩٨٥) والترمذى فى القراءات (٢٩٣٣) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٥٤٣) .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبة (٩٢٧٥) وأبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٤) والترمذى فى الدعاء (٣٣٨٥) وقال : « حسن غريب صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٣٠) وصححه الحاكم ٢/ ٥٧٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ١٦ / ٢٢ وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبى : « قلت : فيه هارون بن حاتم : واه » .

أحل لمن قبلنا وحرم علينا ؟ فإن الله يحل من أمره ما يشاء ويحرم ما يشاء ، وهي السنن والفرائض ، يحل لأمة ويحرم على أخرى . وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : « ذهب وفضة » (١) . وأخرج الطبرانى عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز . وأخرج البزار وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى ذر رفعه قال : إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد فى الزهد ، والحميدى فى مسنده وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ قال : حفظا بصلاح أبيهما . وأخرج ابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح، ولده، وولد ولده، وأهل دويرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون فى حفظ الله تعالى ما دام فيهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده ، وولد ولده ، ويحفظه فى دويرته ، والدويرات حوله ، فما يزالون فى ستر من الله وعافية . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال : قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال ابن عباس : قال فيما يذكر من حديث الفتى إنه شرب من الماء فخلد ، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر ، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، الحسن متروك وأبوه غير معروف (٢) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

---

(١) البخارى فى تاريخه (٣٣٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٥٢) وقال : « حديث غريب » . وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٩ وقال الذهبى : «قلت بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز » . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٧ بعد أن أورد الرواية الموقوفة : « وقد روى الترمذى حديثا غير هذا . رواه الطبرانى وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٢) ابن كثير ٤/ ٤١٧ .

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ .

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود ، وانتهى الكلام إلى حيث انتهى ، شرع سبحانه فى السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود .

واختلفوا فى ذى القرنين اختلافا كثيرا فقيل : هو الإسكندر بن فيلقوس الذى ملك الدنيا بأسرها اليونانى بانى الإسكندرية . وقال ابن إسحاق : هو رجل من أهل مصر ، اسمه مرزبان ابن مرزبة اليونانى ، من ولد يونان بن يافث بن نوح . وقيل : هو ملك اسمه هرمس . وقيل: ملك اسمه هردبس . وقيل : شاب من الروم . وقيل : كان نبيا . وقيل : كان عبدا صالحا . وقيل : اسمه عبد الله بن الضحاك . وقيل : مصعب بن عبد الله ، من أولاد كهلان بن سبأ . وحكى القرطبى[1] عن السهيلى أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما : كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، والآخر : كان قريبا من عيسى عليه السلام . وقيل : هو أبو كرب الحميرى . وقيل : هو ملك من الملائكة ، ورجح الرازى القول الأول ، قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ ، قال : فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر ، قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذا لأرسطاطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل إليه . قال النيسابورى : قلت : ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر، والله أعلم .

ورجح ابن كثير [2] ما ذكره السهيلى أنهما اثنان كما قدمنا ذلك ، وبين أن الأول : طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر . وأما الثانى : فهو الإسكندر المقدونى اليونانى ، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة . فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقى وغيره ؛ ثم قال : وقد ذكرنا طرفا صالحا فى أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية. وحكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا ، يعنى أنهما اثنان ، لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير ، كيف لا ، والأول : كان عبدا صالحا مؤمنا ، وملكا عادلا ، ووزيره الخضر ، وقد قيل : إنه كان نبيا . وأما الثانى : فقد كان كافرا ، ووزيره

(١) القرطبى ٦/ ٤٠٨٥ .
(٢) ابن كثير ٤/ ٤١٨ .

أرسطاطاليس الفيلسوف ، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذاك ؟ انتهى [١] . قلت : لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكرْه سابقا، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذى يستفاد من كتب التاريخ هو : أنهما اثنان ، كما ذكره السهيلى والأزرقى وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازى وادعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ ، وقد وقع الخلاف هل هو نبى أم لا ؟ وسيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله .

وأما السبب الذى لأجله سمى ذا القرنين ، فقال الزجاج والأزهرى:إنما سمى ذا القرنين ، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها . وقيل : إنه كان له ضفيرتان من شعر ، والضفائر تسمى قرونا ، ومنه قول الشاعر [٢] :

فلثمت فاها آخذا بقرونها　　　شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

والحشرج : ماء من مياه العرب . وقيل : إنه رأى فى أول ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس فسمى بذلك . وقيل : كان له قرنان تحت عمامته . وقيل : إنه دعا إلى الله فشجه قومه على قرنه ، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل : لأنه ملك الروم والترك . وقيل : لأنه كان لتاجه قرنان . قوله : ﴿ **قل سأتلوا عليكم منه ذكرا** ﴾ أى سأتلو عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا ، وذلك بطريق الوحى المتلو .

ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال : ﴿ **إنا مكنا له فى الأرض** ﴾ أى أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب ، فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها ، وسهل عليه المسير فى مواضعها ، وذلل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء فى الإضاءة ﴿ **وآتيناه من كل شىء** ﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿ **سببا** ﴾ أى طريقا يتوصل بها إلى ما يريده ﴿ **فأتبع سببا** ﴾ من تلك الأسباب . قال المفسرون : والمعنى : طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس . قال الزجاج : فأتبع سببا من الأسباب التى أوتى، وذلك أنه أوتى من كل شىء سببا فأتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب، وقيل: أتبع من كل شىء علما يتسبب به إلى ما يريد . وقيل : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شىء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شىء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب : الحبل ، فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شىء . قرأ ابن عامر وأهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائى :« وأتبع » بقطع الهمزة ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى،

(١) أبو السعود فى تفسيره ٣/ ٤٠٠ .

(٢) الشاعر : هو عمر بن أبى ربيعة .

مثل : ردغته وأردفته، ومنه قوله :﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : ١٠] قال النحاس: واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال : لأنها من السير. وحكى هو والأصمعى أنه يقال : تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه ، واتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: ومثله : ﴿ فأتبعوهم مشرقين﴾ [الشعراء : ٦٠] . قال النحاس : وهذا من الفرق وإن كان الأصمعى قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو دليل،وقوله عز وجل:﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ ليس فى الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه فى البحر انطبق عليهم البحر . والحق فى هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهو بمعنى : السير .

﴿ **حتى إذا بلغ مغرب الشمس** ﴾ أى نهاية الأرض من جهة المغرب ، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضى فيه ﴿ **وجدها تغرب فى عين حمئة** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى: « حامية » أى حارة . وقرأ الباقون :﴿ **حمئة** ﴾ أى كثيرة الحمأة ، وهى الطينة السوداء ، تقول : حمئت البئر حمأ بالتسكين: إذا نزعت حمأتها ، وحمأت البئر حمأتها بالتحريك : كثرت حمأتها ، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة ، فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة . قيل : ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك فى نظره ، ولا يبعد أن يقال : لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التى تغرب فيها الشمس، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له فى الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره ﴿ **ووجد عندها قوما** ﴾ الضمير فى عندها إما للعين أو للشمس . قيل : هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفارا ، فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم ، فقال : ﴿ **إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا** ﴾ أى إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن أو أمرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد : دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

﴿ **قال** ﴾ ذو القرنين مختارا للدعوة التى هى الشق الأخير من الترديد ﴿ **أما من ظلم** ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتى ﴿ **فسوف نعذبه** ﴾ بالقتل فى الدنيا ﴿ **ثم يرد إلى ربه** ﴾ فى الآخرة ﴿ **فيعذبه** ﴾ فيها ﴿ **عذابا نكرا** ﴾ أى منكرا فظيعا . قال الزجاج : خيره الله بين الأمرين . قال النحاس : ورد على بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عز وجل:﴿ **ثم يرد إلى ربه** ﴾ وكيف يقول ﴿ **فسوف نعذبه**﴾ فيخاطبه بالنون ، قال : والتقدير : قلنا : يا محمد ، قالوا : يا ذا القرنين . قال النحاس : وهذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته ، وكأن ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره . ويمكن أن يكون مخاطبا للنبى الذى خاطبه الله على لسانه ، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع . قال ثعلب : إن فى قوله : ﴿ **إما أن تعذب وإما أن تتخذ** ﴾ فى موضع نصب ، ولو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو كقول

الشاعر :

فسيروا فإما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق

﴿ **وأما من آمن** ﴾ بالله وصدق دعوتى ﴿ **وعمل** ﴾ عملا ﴿ **صالحا** ﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿**فله جزاء الحسنى** ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر: « فله جزاء » بالرفع على الابتداء ، أى جزاء الخصلة الحسنى عند الله، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة قاله الفراء. وإضافة الجزاء إلى الحسنى التى هى الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين ، أى أعطيه وأتفضل عليه ، وقرأ سائر الكوفيين :﴿ **فله جزاء الحسنى** ﴾ بنصب ﴿**جزاء**﴾ وتنوينه . قال الفراء : انتصابه على التمييز . وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحال ، أى مجزيا بها جزاء ، وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب « جزاء » من غير تنوين . قال أبو حاتم : هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين . وقرئ برفع: « جزاء » منونا على أنه مبتدأ ، ﴿ **الحسنى** ﴾ بدل منه والخبر الجار والمجرور ﴿ **وسنقول له من أمرنا يسرا** ﴾ أى مما نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة .

﴿ **ثم أتبع سببا** ﴾ أى طريقا آخر غير الطريق الأولى وهى التى رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق ﴿**حتى إذا بلغ مطلع الشمس** ﴾ أى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض ، مكان طلوع لعدم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق ﴿ **وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا** ﴾ يسترهم ، لا من البيوت ولا من اللباس ، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شىء من العمارة . قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء ﴿ **كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا** ﴾ أى كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به ، وقيل :المعنى :لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الأبنية والثياب . وقيل : المعنى : كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها . وقيل : المعنى : كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم ، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين ، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا فى الوجه الأول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : قالت اليهود للنبى ﷺ : يا محمد ، إنك إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، إنك سمعت ذكرهم منا ، فأخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة إلا فى مكان واحد، قال : « ومن هو ؟ » قالوا: ذو القرنين ، قال : « ما بلغنى عنه شىء » ، فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« ما أدرى

أتبع كان نبيا أم لا ؟ وما أدرى أذو القرنين كان نبيا أم لا ؟ وما أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا » (١) . وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبى الجعد قال : سئل على عن ذى القرنين أنبى هو ؟ قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « هو عبد ناصح الله فنصحه » . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن أبى عاصم في السنة ، وابن مردويه من طريق أبى الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل على بن أبى طالب عن ذى القرنين : أنبيا كان أم ملكا ؟ قال : لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم ، فلذلك سمى ذو القرنين ، وإن فيكم مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمرو قال : ذو القرنين نبى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأخرص بن حكيم عن أبيه ؛ أن النبى ﷺ سئل عن ذى القرنين فقال: « هو ملك مسح الأرض بالأسباب» . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن خالد بن معدان الكلاعى مرفوعا مثله . وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادى بمنى : يا ذا القرنين ، فقال عمر : ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ؟ وفى الباب غير ما ذكرناه مما يغنى عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل عن عقبة بن عامر الجهنى حديثا يتضمن أن نفرا من اليهود سألوا النبى ﷺ عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء ، وكان فيما أخبرهم به :« أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك فى السماء ، وذهب به إلى السد »(٢) . وإسناده ضعيف ، وفى متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير فى تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموى فى مغازيه ؛ ثم قال بعد ذلك : والعجب أن أبا زرعة الدارى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة ، انتهى . وقد ساقه بتمامه السيوطى فى الدر المنثور ، وساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم والشيرازى فى الألقاب وأبى الشيخ ، وفيه أشياء منكرة جدا (٣) ، وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا .

---

(١) صحيح الحاكم ١ / ٣٦ على شرط الشيخين وقال : « ولا أعلم له علة » ووافقه الذهبى .
(٢) ابن جرير ١٦ / ٧ والبيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٩٦ وابن كثير ٤ / ٤١٨ .
(٣) السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٢٤٢ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وآتيناه من كل شىء سببا** ﴾ قال : علما . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال ؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، قال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال : ﴿ **وآتيناه من كل شىء سببا** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن أبى حاصر . أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف « تغرب فى عين حامية » قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : ما نقرؤها إلا ﴿**حمئة**﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتها ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : فى بيتى نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب ، فقال له : أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ فقال له كعب : سل أهل العربية فإنهم أعلم بها ، وأما أنا فإنى أجد فى التوراة فى ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب . قال ابن أبى حاصر: لو أنى عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة . قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم واتباعه إياه :

قد كان ذو القرنين عمر مسلما ... ملكا تذل له الملوك وتحشد

فأتى المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خلب وثاط خرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت: الطين بكلامهم ، قال : فما الثاط ؟ قلت : الحمأة . قال : فما الخرمد ؟ قلت : الأسود ؛ فدعا ابن عباس غلاما فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل (١) . وأخرج الترمذى وأبو داود الطيالسى وابن جرير وابن المنذر عن أبى بن كعب ؛ أن النبى كان يقرأ :﴿ **فى عين حمئة** ﴾ (٢) . وأخرج الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله (٣) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ

---

(١) ابن جرير مختصرا ١٦ / ٩ ، ١٠ .

(٢) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٤) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والصحيح ما روى عن ابن عباس قراءته » وأبو داود الطيالسى (٥٣٦) وابن جرير ٩/١٦ .

(٣) الطبرانى (١٢٤٨٠) وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع ١٥٨/٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير عن شيخه الوليد بن العباس المصرى ، ضعفه الدارقطنى » .

نارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى ، وهى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه فقال : ﴿ **ثم أتبع سببا** ﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وابن محيصن ويحيى اليزيدى وأبو زيد عن المفضل بفتح السين. وقرأ الباقون بضمها. قال أبو عبيدة وابن الأنبارى وأبو عمرو بن العلاء : السد إن كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول ، أى هو مما فعله الله وخلقه ، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا . وقال ابن الأعرابى : كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سد وسد نحو الضعف والضعف ، الفقر والفقر ، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وانتصاب « بين » على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وقيل : موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان . وحكى ابن جرير فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا من ناحية الجزر فشاهده ، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع . و﴿ وجد من دونهما ﴾ أى من ورائهما مجازا عنهما . وقيل : أمامهما ﴿ **قوما لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « يفقهون » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان ، أى لا يبينون لغيرهم كلاما ، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف ، أى لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ، ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم .

﴿ **قالوا** ﴾ أى هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا . قيل : إن فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه الله . وقيل : إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ، فقال لذى القرنين بما قالوا له : ﴿ **ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض** ﴾ يأجوج ومأجوج : اسمان عجميان بدليل منع صرفهما ، وبه قال الأكثر . وقيل : مشتقان من أج الظليم فى مشيه : إذا هرول ، وتأججت النار : إذا تلهبت ، قرأهما الجمهور غير همز ، وقرأ عاصم بالهمز . قال ابن الأنبارى : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم : كبأث ورثأت واستشأت الريح . قال أبو على : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل : يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل : رأس . وأما مأجوج ، فهو مفعول من أج ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . قال : وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح . وقيل : يأجوج من الترك

ومأجوج من الجيل والديلم . وقال كعب الأحبار : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبى : وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، كذلك قال مقاتل وغيره .

وقد وقع الخلاف فى صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يقول : لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفا يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم وأفعالهم .

واختلف فى إفسادهم فى الأرض ، فقيل : هو أكل بنى آدم . وقيل : هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد . وقيل : كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذى القرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه .

﴿ **فهل نجعل لك خرجا** ﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين . وقرئ : « خراجا » . قال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفىء ، ويقع على الجزية وعلى الغلة . والخراج أيضا اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال ، والخرج : المصدر . وقال قطرب : الخرج : الجزية والخراج فى الأرض . وقيل : الخرج : ما يخرجه كل أحد من ماله ، والخراج : ما يجبيه السلطان . وقيل : هما بمعنى واحد ﴿ **على أن تجعل بيننا وبينهم سدا** ﴾ أى ردما حاجزا بيننا وبينهم . وقرئ : ﴿ **سدا** ﴾ بفتح السين . قال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد ، وقد سبق قريبا ما حكيناه عن أبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة وابن الأنبارى من الفرق بينهما . وقال ابن أبى إسحاق: ما رأته عيناك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهوسد بالفتح ، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم فى السدين .

﴿ **قال ما مكنى فيه ربى** ﴾ أى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله لى من القدرة والملك ﴿ **خير** ﴾ من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال : ﴿ **فأعينونى بقوة** ﴾ أى برجال منكم يعملون بأيديهم ، أو أعينونى بآلات البناء ، أو بمجموعهما . قال الزجاج : بعمل تعملونه معى . قرأ ابن كثير وحده : « ما مكننى » بنونين ، وقرأ الباقون بنون واحدة. ﴿ **أجعل بينكم وبينهم ردما** ﴾ هذا جواب الأمر ، والردم : ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل . قال الهروى : يقال : ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما أى سددتها ، والردم أيضا الاسم ، وهو السد . وقيل : الردم أبلغ من السد ، إذ السد كل ما يسد به ، والردم : وضع الشىء على الشىء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم

أى من قول يركب بعضه على بعض . ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ أى أعطونى وناولونى ، وزبر الحديد :جمع زبرة ، وهى القطعة . قال الخليل : الزبرة من الحديد : القطعة الضخمة . قال الفراء معنى : ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ ائتونى بها فلما ألقيت الياء زيدت ألفا ، وعلى هذا فانتصاب ﴿ زبر ﴾ بنزع الخافض ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ والصدفان : جانبا الجبل . قال الأزهرى : يقال لجانبى الجبل صدفان :إذا تحاذيا لتصادفهما ، أى تلاقيهما ، وكذا قال أبو عبيدة والهروى . قال الشاعر :

كلا الصدفين ينفده سناها توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع :صدف ، قاله أبو عبيدة ، قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص: ﴿ الصدفين ﴾ بفتح الصاد والدال . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب واليزيدى وابن محيصن بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات ، ومعنى الآية : أنهم أعطوه زبر الحديد ، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿ قال انفخوا ﴾ أى قال للعملة : انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ حتى إذا جعله نارا﴾ أى جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر نارا ، أى كالنار فى حرها وإسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ . قيل : كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يتحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ قال آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ قال أهل اللغة : القطر : النحاس الذائب ، والإفراغ : الصب، وكذا قال أكثر المفسرين . وقالت طائفة: القطر : الحديد المذاب. وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنبارى : هو الرصاص المذاب .

﴿ فما اسطاعوا ﴾ أصله : استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف . قال ابن السكيت : يقال : ما أستطيع ، وما أسطيع ، وما أستيع . وبالتخفيف قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة وحده :« فما اسطاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء وهى قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو على الفارسى : هى غير جائزة . وقرأ الأعمش : «فما استطاعوا » على الأصل ، ومعنى ﴿ أن يظهروه ﴾ أن يعلوه أى فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ يقال : نقبت الحائط : إذا خرقت فيه خرقا فخلص إلى ما وراءه . قال الزجاج : ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته .

﴿ قال هذا رحمة من ربى ﴾ أى قال ذو القرنين مشيرا إلى السد: هذا السد رحمة من ربى، أى أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد. وقيل : الإشارة إلى التمكين من بنائه ﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾ أى أجل ربى أن يخرجوا منه . وقيل :هو مصدر بمعنى المفعول ، وهو يوم القيامة ﴿ جعله دكاء ﴾ أى مستويا

بالأرض ومنه قوله : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا ﴾ [الفجر : ٢١] . قال الترمذى : أى مستويا ، يقال : ناقة دكاء : إذا ذهب سنامها . وقال القتيبى : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الحليمى : قطعا متكسرا . قال الشاعر :

هل غير غار دك غارا فانهدم

قال الأزهرى : دككته ، أى دقته. ومن قرأ: ﴿ **دكاء** ﴾ بالمد وهو عاصم وحمزة والكسائى أراد التشبيه بالناقة الدكاء ، وهى التى لا سنام لها ، أى مثل دكاء ، لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء . وقرأ الباقون :« دكا » بالتنوين على أنه مصدر ، ومعناه ما تقدم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال، أى مدكوكا﴿ وكان وعد ربى حقا﴾ أى وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذى القرنين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ قال :الجبلين أرمينية وأذربيجان . وأخرج أيضا عن ابن جريج ﴿ **لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ قال : الترك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، وابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ومنسك » . وأخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا : « أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا » (١) وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا ، فيعودون إليه أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا إن شاء الله ، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من فى الأرض وعلونا من فى السماء قسرا وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أقفائهم فيهلكون » ، قال رسول الله ﷺ : « فوالذى نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٥٤) وإسناده ضعيف ؛لأن فى إسناده ابن عمرو بن أوس ولا يعرف حاله ولم يذكر فيه جرح ولا تعديل ، ولم يرو عنه غير النعمان بن سالم .

لتسمن وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم » (١) وقد ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول :«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق ، قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » (٢) .

وأخرجا نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعا (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهل نجعل لك خرجا** ﴾ قال : أجرا عظيما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ردما** ﴾ قال : هو كأشد الحجاب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **زبر الحديد** ﴾ قال : قطع الحديد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بين الصدفين** ﴾ . قال: الجبلين. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : رؤوس الجبلين . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قطرا** ﴾ قال : النحاس : وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ قال : أن يرتقوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أن يعلوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **جعله دكاء** ﴾ قال : لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) ﴾ .

---

(١) أحمد ٢/ ٥١٠ ، ٥١١ والترمذى فى التفسير (٣١٥٣) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٨٠) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » وابن حبان (٦٧٩٠) . ومعنى « نغفا » بفتح النون والغين المعجمة : هو ما يكون فى أنوف الإبل والغنم ، جمع نغفة .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٦) وفى المناقب (٣٥٩٨) وفى الفتن (٧٠٥٩ ، ٧١٣٥) ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠/١ ، ٢) .

(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٧) وفى الفتن (٧١٣٦) ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨١/ ٣) .

قوله : ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض** ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين ، والضمير فى ﴿ **بعضهم** ﴾ ليأجوج ومأجوج ، أى تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجىء الوعد ، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم ، يقال : ماج الناس : إذا دخل بعضهم فى بعض حيارى كموج الماء ، والمعنى : أنهم يضطربون ويختلطون . وقيل : الضمير فى ﴿ **بعضهم** ﴾ للخلق ، واليوم :يوم القيامة ، أى وجعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج فى بعض . وقيل : المعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج فى بعض ، وقد تقدم تفسير ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ فى الأنعام . قيل : هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد :﴿ **فجمعناهم جمعا** ﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ، ولم يذكر النفخة الأولى، لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة ، والمعنى : جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم ومصيرهم ترابا جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب .

﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا** ﴾ المراد بالعرض هنا : الإظهار ، أى أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ، ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله : ﴿ **الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى** ﴾ أى كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء ، وهو ما غطى الشىء وستره من جميع الجوانب ﴿ **عن ذكرى** ﴾ عن سبب ذكرى ، وهو الآيات التى يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، فأطلق المسبب على السبب ، أو عن القرآن العظيم ، وتأمل معانيه وتدبر فوائده . ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال : ﴿ **وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾ أى لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صما ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية ، وفى ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية .

﴿ **أفحسب الذين كفروا** ﴾ الحسبان هنا بمعنى: الظن ، والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره . والمعنى : أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق ، ومعنى : ﴿ **أن يتخذوا عبادى من دونى** ﴾ أى يتخذوهم من دون الله ،وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿**أولياء**﴾ أى معبودين ، قال الزجاج: المعنى : أيحسبون أن ينفعهم ذلك ، وقرئ : « أفحسب » بسكون السين، ومعناه : أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر ، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿ **إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا** ﴾ أى هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل . وقيل : إنه الذى يعد للضيف ، فيكون تهكما

بهم كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : ٤] ، والمعنى : أن جهنم معدة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف .

﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ انتصاب ﴿ **أعمالا** ﴾ على التمييز ، والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها ، ومحل الموصول وهو ﴿ **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا** ﴾ الفعل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل: من هم ؟ فقيل : هم الذين ضل سعيهم ، والمراد بضلال السعى : بطلانه وضياعه ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذم ، ويكون الجواب : ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ ويجوز أن يكون فى محل جر على أنه نعت لـ﴿**الأخسرين**﴾ أو بدل منه ، ويكون الجواب أيضا هو أولئك وما بعده ، وأول هذه الوجوه هو أولاها ، وجملة : ﴿ **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **ضل** ﴾ ، أى والحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره ، وتكون جملة ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه ، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الآخرة ، فإنها هى الجواب كما قدمنا ، ومعنى كفرهم بآيات ربهم : كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ، ومعنى كفرهم بلقائه : كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة ، ثم رتب على ذلك قوله : ﴿ **فحبطت أعمالهم** ﴾ أى التى عملوها مما يظنونه حسنا ، وهو خسران وضلال ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ أى لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم . وقيل : لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم ، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم . قال ابن الأعرابى : العرب تقول : ما لفلان عندنا وزن ، أى قدر لخسته ، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته ، وسرعة طيشه ، وقلة تثبته . والمعنى على هذا : أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ، وقرأ مجاهد : « يقيم » بالياء التحتية ، أى فلا يقيم الله ، وقرأ الباقون بالنون .

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤول إليه أمرهم فقال : ﴿ **ذلك** ﴾ أى : الذى ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم ، ويكون قوله :﴿ **جهنم** ﴾ عطف بيان للجزاء ، أو جملة ﴿**جزاؤهم جهنم** ﴾مبتدأ وخبر، والجملة خبر ﴿ **ذلك**﴾ ، والسبب فى ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزوا ، فالباء فى ﴿ **بما كفروا** ﴾ للسببية ، ومعنى كونهم هزوا : أنهم مهزوء بهم. وقد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا . فقيل : اليهود والنصارى. وقيل : كفار مكة . وقيل : الخوارج . وقيل : الرهبان أصحاب الصوامع . والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿ **كانت لهم** ﴾ قال ابن الأنبارى : كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿ **جنات الفردوس نزلا** ﴾ قال

المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب . واختار الزجاج ما قاله مجاهد : إن الفردوس : البستان باللغة الرومية ، وقد تقدم بيان النزل ، وانتصابه على أنه خبر كان . والمعنى : كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا معدا لهم مبالغة فى إكرامهم ، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، وكذلك جملة : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والحول : مصدر ، أى لا يطلبون تحولا عنها إذ هى أعز من أن يطلبوا غيرها ، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها . قال ابن الأعرابى وابن قتيبة والأزهرى : الحول اسم بمعنى : التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتركنا بعضهم** ﴾ الآية قال : الجن والإنس ﴿ **يموج** ﴾ بعضهم ﴿**فى بعض** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا يستطيعون سمعا** ﴾ قال : لا يعقلون سمعا . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن على أنه قرأ : « أفحسب الذين كفروا » قال أبو عبيد بجزم السين وضم الباء . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال : سألت أبى ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا**﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين (١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن مصعب قال : قلت لأبى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ الحرورية هم ؟ قال : لا ولكنهم أصحاب الصوامع . والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى حميصة عبد الله بن قيس قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : فى هذه الآية ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ : إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : سمعت على بن أبى طالب وسأله ابن الكوا فقال : ﴿ **هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ قال : فجرة قريش . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريقين عن على أنه سئل عن هذه الآية: ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ قال :

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٨) والنسائى فى التفسير (٣٣٣) وابن جرير ١٦/ ٢٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٠ ووافقه الذهبى . والحرورية : نسبة إلى حروراء ، وهى القرية التى كان ابتداء خروج الخوارج على على ـ رضى الله عنه ـ منها .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٧٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

لا أظن إلا أن الخوارج منهم . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » ، وقال : «اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ »(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله الفردوس ، فإنها سرة الجنة ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش »(٢) . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٣) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد والترمذي وابن جرير والحاكم والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » (٤) والأحاديث بهذا المعنى كثيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الفردوس بستان بالرومية . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : هو الكرم بالنبطية ، وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث ؛ أن ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال : هي جنات الأعناب بالسريانية ، وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾ قال : متحولا .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي** ﴾ قال ابن الأنباري : سمى المداد مدادا لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء ، ويقال للزيت الذي يوقد به السراج : مداد ، والمراد بالبحر هنا : الجنس .

---

(١) البخاري في التفسير (٤٧٢٩) ومسلم في صفات المنافقين (١٨/٢٧٨٥) .

(٢) الطبراني (٧٩٦٦) والحاكم ٢/ ٣٧١ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من هذا الإسناد ولم نجد بدا من إخراجه » . وقال الذهبي : « جعفرهالك». وقال الهيثمي في المجمع ٤٠١ : « رواه الطبراني وفيه جعفر بن الزبير وهو متروك » .

(٣) البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) وفي التوحيد (٧٤٢٣) وأحمد ٢/ ٣٣٣، ٣٣٩ .

(٤) ابن أبي شيبة (١٥٩٢٣) وأحمد ٥/٣١٦ ، ٣٢١ والترمذي في صفه الجنة (٢٥٣١) ، وابن جرير ١٦/ ٣٠ والحاكم ١/ ٨٠ .

والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ، ولو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا . وقيل فى بيان المعنى : لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب ﴿ **لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى** ﴾ وقوله : ﴿ **ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: ﴿ **قل لو كان** ﴾ وفيه زيادة مبالغة وتأكيد، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها ، أى لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجىء بمثله مددا ولو جئنا بمثله مددا ، والمدد الزيادة . وقيل : عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد ، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع ، قال الأعشى :

ووجه نقى اللون صاف يزينه ... مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة . قال الجبائى : إن قوله : ﴿ **قبل أن تنفد كلمات ربى** ﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد فى الجملة، وما ثبت عدمه امتنع قدمه . وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية . وقيل فى الجواب : إن نفاد شىء قبل نفاد شىء آخر لا يدل على نفاد الشىء الآخر ، ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية ، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية . والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته ، وهى غير متناهية ، فالكلمات غير متناهية . وقرأ مجاهد وابن محيصن وحميد :« ولو جئنا بمثله مدادا» وهى كذلك فى مصحف أبى ، وقرأ الباقون :﴿**مددا**﴾ وقرأ حمزة والكسائى: « قبل أن ينفد » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية .

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع ، فقال : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾ أى إن حالى مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ، ومن كان هكذا فهو لا يدعى الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحى إليه من الله سبحانه فقال : ﴿ **يوحى إلى** ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقا بينه وبين سائر أنواع البشر ، ثم بين أن الذى أوحى إليه هو قوله: ﴿**أنما إلهكم إله واحد** ﴾ لا شريك له فى ألوهيته ، وفى هذا إرشاد إلى التوحيد ، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال: ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، والمعنى : من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين ﴿ **فليعمل عملا صالحا** ﴾ وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ من خلقه سواء كان صالحا ، أو طالحا ، حيوانا أو جمادا ، قال الماوردى : قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية:إن المعنى لا يرائى بعمله أحدا . وأقول : إن دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء ، ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها ، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لكلمات ربى** ﴾ يقول : علم ربى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يقول ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام

الله وحكمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية قال : أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره، وليست هذه فى المؤمنين (١). وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقى عن ابن عباس قال: قال رجل: يا نبى الله ، إنى أقف المواقف أبتغى وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (٢) . وأخرج ابن مندة ، وأبو نعيم فى الصحابة ، وابن عساكر من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد فى ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله ، فنزل فى ذلك : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال :قال رجل : يا رسول الله ، أعتق وأحب أن يرى ، وأتصدق وأحب أن يرى ، فنزلت : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية وهو مرسل . وأخرجه هناد فى الزهد عنه أيضا .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذى وابن ماجة ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى هريرة ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، الرجل يجاهد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا ؟ فقال : « لا أجر له » ، فأعظم الناس ذلك ، فعاد الرجل فقال : « لا أجر له » (٤) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الإخلاص ، وابن جرير فى تهذيبه ، والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ : الشرك الأصغر . وأخرج الطيالسى وأحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن شداد بن أوس أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » ، ثم قرأ : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية (٥) . وأخرج الطيالسى وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم عن شداد أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره

---

(١) البيهقى فى الشعب (٦٨٥٣) . ط . الكتب العلمية .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ١١١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ،والبيهقى فى الشعب (٦٨٥٤) ط .الكتب العلمية.

(٣) أحمد ٤/ ٢١٥ والترمذى فى التفسير (٣١٥٤) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٣) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٧) . ط . الكتب العلمية .

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٧١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٤٠) . ط .الكتب العلمية .

(٥) الطيالسى (١١٢٠) وأحمد ٤/ ١٢٦ والطبرانى (٧١٣٩) والحاكم ٤/ ٣٢٩ وسكت عليه الذهبى أيضا ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٤٤) .ط. الكتب العلمية .

لشريكه الذى أشركه أنا عنه غنى » [١] . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ ؟ الشرك الخفى ؛ أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل » [٢] . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن شداد بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » ، قلت : أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم » قلت : يا رسول الله ، ما الشهوة الخفية ؟ قال : «يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته » [٣] . وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ عن ربه أنه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه، وهو للذى أشرك » وفى لفظ : « فمن أشرك بى أحدا فهو له كله » [٤] وفى الباب أحاديث كثيرة فى التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر ، وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاها صاحب الدر المنثور فى هذا الموضع فليرجع إليه ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، بل الشرك الجلى يدخل تحتها دخولا أوليا ، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو مقرر فى علم الأصول .

وقد ورد فى فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن أبى حكيم قال : قال رسول الله ﷺ: « لو لم ينزل على أمتى إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم » . وأخرج ابن راهويه والبزار ، والحاكم وصححه ، والشيرازى فى الألقاب ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ فى ليلة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية ، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة » قال ابن كثير بعد إخراجه : غريب جدا [٥] . وأخرج ابن الضريس عن أبى الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن معاوية بن أبى سفيان ، أنه تلا هذه الآية : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن . قال ابن كثير : وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية هى آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ،

---

(١) الطيالسى (١١٢١) وأحمد ٤/ ١٢٦ وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٦٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٢٤ : « رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره وضعفه غير واحد ، وبقية رجاله ثقات» .

(٢) أحمد ٣/ ٣٠ وصححه الحاكم ٤/ ٣٢٩ ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ٤/ ١٢٤ والطبرانى (٧١٤٤) وصححه الحاكم ٤/ ٣٣٠ وقال الذهبى : « عبد الواحد متروك » والبيهقى فى الشعب (٦٨٣٠) . ط . الكتب العلمية . ورواية الطبرانى فيها : « الحارث بن نبهان وعبد الواحد بن زيد وهما متروكان » .

(٤) أحمد ٢ / ٣٠١ ومسلم فى الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٥) . ط . الكتب العلمية .

(٥) صححه الحاكم ٢/ ٣٧١ وقال الذهبى : « أبو قرة فيه جهالة ولم يضعف » وابن كثير ٤/ ٤٣٦ .

ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها ، بل هى مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه [١] .

(١) ابن جرير ١٦/٣٢ ، وابن كثير ٤/٤٣٥ ، ٤٣٦ .

تفسير سـورة مريم

هى مكية وآياتها ثمان وتسعون آية. أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة سورة ﴿ كهيعص ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن أم سلمة ؛ أن النجاشى قال لجعفر بن أبى طالب : هل معك مما جاء به ، يعنى رسول الله ﷺ ، عن الله شىء ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كهيعص ﴾ فبكى النجاشى حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وقد ذكر ابن إسحاق القصة بطولها [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾ .

قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة ، وأمالهما جميعا الكسائى وأبو بكر وخلف ، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم « كاف » ، وحكى عن غيره أنه كان يضم « ها » . وقال أبو حاتم : لا يجوز ضمّ الكاف ولا الهاء ولا الياء . قال النحاس : قراءة أهل المدينة من أحسن ما فى هذا ، والإمالة جائزة فى «ها» وفى « يا » وقد اعترض على قراءة الحسن جماعة . وقيل فى تأويلها : أنه كان يشم الرفع

---

(١) أحمد ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٠٠ وابن إسحاق ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٣ .

فقط . وأظهر الدال من هجاء « صاد » نافع وأبو جعفر وابن كثير وعاصم ويعقوب ، وهو اختيار أبي عبيد وأدغمها الباقون . وقد قيل فى توجيه هذه القراءات : إن التفخيم هو الأصل ، والإمالة فرع عنه ، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل ، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع ، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين ، وقد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السور مستوفى فى أوائل سورة البقرة .

ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسما للسورة على ، ما عليه الأكثر، الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، قاله الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا محال لأن ﴿ كهيعص ﴾ ليس هو مما أنبأنا اللّه عزّ وجلّ به عن زكريا ، وقد أخبر اللّه تبارك وتعالى عنه وعما بشر به ، وليس ﴿ كهيعص ﴾ من قصته ، أو على أنها خبرمبتدأ محذوف . وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فقوله :﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا ذكر رحمة ربك. وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، أى فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك . قال الزجاج : ﴿ ذكر ﴾ مرتفع بالضمير ، والمعنى : هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك ﴿ عبده زكريا ﴾ يعنى : إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد ، وانتصاب ﴿ عبده ﴾ على أنه مفعول للرحمة ، قاله الأخفش . وقيل : للذكر . ومعنى ذكر الرحمة : بلوغها وإصابتها ، كما يقال : ذكرنى معروف فلان ، أى بلغنى . وقرأ يحيى بن يعمر : « ذكر » بالنصب ، وقرأ أبو العالية «عبده» بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول ، وفاعل الذكر هو عبده ، وزكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه ، وقرأ الكلبى : « ذكر » على صيغة الفعل الماضى مشدّدًا ومخففًا على أن الفاعل عبده ، وقرأ ابن معمر على الأمر ، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا ، لأن كل نبى رحمة لأمته .

﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ العامل فى الظرف : رحمة . وقيل : ذكر . وقيل : هو بدل اشتمال من زكريا . واختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيًا ، فقيل : لأنه أبعد عن الرياء ، وقيل : أخفاه ، لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا . وقيل : أخفاه مخافة من قومه . وقيل : كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفًا هرمًا لا يقدر على الجهر . ﴿ قال رب إنى وهن العظم منى ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله:﴿ نادى ربه ﴾ يقال : وهن يهن وهنا: إذا ضعف فهو واهن ، وقرئ بالحركات الثلاث، أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم ، لأنه عمود البدن ، وبه قوامه، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته ، ولأن أشد ما فى الإنسان صلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحد العظم قصدًا إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين فى الشين ، والباقون بعدمه ، والاشتعال فى الأصل: انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس فى سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جدًا : قد اشتعل رأس فلان ، وأنشد للبيد :

فإن ترى رأسى أمسى واضحًا سلط الشيب عليه فاشتعل

وانتصاب ﴿ **شيبا** ﴾ على التمييز ، قاله الزجاج . وقال الأخفش : انتصابه على المصدر ، لأن معنى اشتعل : شاب . قال النحاس :قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل ، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك، وكان الأصل اشتعل شيب رأسى ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ أى لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لى . قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع ، وذكر نعم اللّه عليه كما فعل زكريا ها هنا ، فإن فى قوله : ﴿ **وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا** ﴾ غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه ، وبلوغ مآربه ، وفى قوله: ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ ذكر ما عوّده اللّه من الإنعام عليه بإجابة أدعيته ، يقال: شقى بكذا ، أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه .

﴿ **وإنى خفت الموالى من ورائى** ﴾ قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على بن الحسين وأبوه على ويحيى بن يعمر : « خفت » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله ﴿ **الموالى** ﴾ أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدى ، أو انقطعوا بالموت ، مأخوذًا من خفت القوم إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب . وقرأ الباقون : ﴿ **خفت** ﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكريا ، ومفعوله الموالى ، ومن ورائى متعلق بمحذوف لا بـ ﴿ **خفت** ﴾ وتقديره : خفت فعل الموالى من بعدى . قرأ الجمهور:﴿ **ورائى** ﴾ بالهمز والمد وسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بالهمز والمدّ وفتح الياء. وروى عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء ، مثل عصاى . والموالى هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بنى العمّ ونحوهم ، والعرب تسمى هؤلاء موالى ، قال الشاعر :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنشروا بيننا ما كان مدفونا

قيل : الموالى الناصرون له . واختلفوا فى وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل : خاف أن يرثوا ماله ، وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من اللّه سبحانه أن يرزقه ولدًا. وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين ، فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب وليًا يقوم به بعد موته . وهذا القول أرجح من الأول لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا : وراثة المال ، بل المراد : وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[(١)] ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ العاقر : هى التى لا تلد لكبر سنها ، والتى لا تلد أيضًا لغير كبر وهى المرادة هنا ، ويقال للرجل الذى لا يلد : عاقر أيضًا ، ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا

---

(١) أحمد ١/ ١٠ .

قال ابن جرير : وكان اسم امرأته : أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهى أخت حنة ، وحنة هى أم مريم . وقال القتيبى : هى أشاع بنت عمران ، فعلى القول الأول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى ، وعلى القول الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح [١] . ﴿ فهب لى من لدنك وليا ﴾ أى أعطنى من فضلك وليا ، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما . وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة . وقيل : بل أراد بالولى الذى طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة ، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم .

﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾ قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة وابن محيصن واليزيدى ويحيى بن المبارك [٢] بالرفع فى الفعلين جميعًا ، على أنهما صفتان للولى وليسا بجواب للدعاء . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائى بالجزم فيهما ، على أنهما جواب للدعاء. ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال: هى أصوب فى المعنى؛ لأنه طلب وليًا هذه صفته فقال : هب لى الذى يكون وارثى . ورجح ذلك النحاس وقال : لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطع الله يدخلك الجنة ، أى إن تطعه يدخلك الجنة ، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا ، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه ، وهو أعلم بذلك ، والوراثة هنا هى وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف . وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبى ومقاتل ، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين، وقد كان فيهم أنبياء وملوك، وقرئ : « يرثنى وارث من آل يعقوب » على أنه فاعل يرثنى . وقرئ : « وأرث آل يعقوب » أى أنا . وقرئ : « أويرث آل يعقوب » بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثنى . وهذه القراءات فى غاية الشذوذ لفظًا ومعنى ﴿ واجعله رب رضيا ﴾ أى مرضيًا فى أخلاقه وأفعاله ، وقيل :راضيًا بقضائك وقدرك ، وقيل : رجلاً صالحًا ترضى عنه ، وقيل : نبيًا كما جعلت آباءه أنبياء .

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من الله سبحانه . وقيل : إنه من جهة الملائكة ، لقوله فى آل عمران : ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ، وفى الكلام حذف ، أى فاستجاب له دعاءه ، فقال : يا زكريا، وقد تقدم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا . قال الزجاج :سمى يحيى لأنه حيى بالعلم والحكمة التى أوتيها﴿ لم نجعل له

(١) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٣٠) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة . . . « فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة » .

(٢) فى المخطوطة : « واليزيدى ويحيى بن المبارك » والصواب : « ويحيى بن المبارك اليزيدى » . معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٥١ (٦٢) .

من قبل سميا ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه : لم نسم أحدًا قبله يحيى . وقال مجاهد وجماعة : معنى ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ : أنه لم يجعل له مثلا ولا نظيرًا ، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ ، وردّ هذا بأنه يقتضى تفضيله على إبراهيم وموسى . وقيل : معناه : لم تلد عاقر مثله ، والأول أولى . وفى إخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين : الأولى : أن اللّه سبحانه هو الذى تولى تسميته به ، ولم يكلها إلى الأبوين . والجهة الثانية : أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه .

﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ﴾ أى كيف أو من أين يكون لى غلام ؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة اللّه وبديع صنعه ، حيث يخرج ولدًا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى آل عمران ، ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ يقال : عتا الشيخ يعتوعتيًا إذا انتهى سنه وكبر ، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف ، والأصل عتوا لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخف ، ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يعـــ ـــذر من كان فى الزمان عتيًا

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وحفص والأعمش ﴿ عتيا ﴾ بكسر العين ، وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان ، ومحل جملة ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ النصب على الحال من ضمير المتكلم ، ومحل جملة ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ النصب أيضًا على الحال، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله: ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ أى كيف يحصل بيننا ولد الآن ، وقد كانت امرأتى عاقرًا لم تلد فى شبابها وشبابى ، وهى الآن عجوز ، وأنا شيخ هرم ؟

ثم أجاب اللّه سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : ﴿ قال كذلك قال ربك ﴾ الكاف فى محل رفع ، أى الأمر كذلك ، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا ، ثم ابتدأ بقوله : ﴿ قال ربك ﴾ ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية ، أى قال قولا مثل ذلك ، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله: ﴿ هو على هين ﴾ وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة ﴿ هو على هين ﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، أى قال : هو مع بعده عندك ، على هين ، وهو فيعل من هان الشىء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد . قال الفراء : أى خلقه على هين ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها، قال الزجاج :أى فخلق الولد لك ،كخلقك ، والمعنى : أن اللّه سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئًا ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم . قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر ﴿ وقد خلقتك من

قبل ﴾ وقرأ سائر الكوفيين : « وقد خلقناك من قبل » .

﴿ **قال رب اجعل لي آية** ﴾ أي علامة تدلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل ، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه. قال ابن الأنباري : وجه ذلك : أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر ، فسأل اللّه آية يستدل بها على قرب ما منّ به عليه . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى من اللّه سبحانه لا من الشيطان ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدّي وهو بعيد جدًا ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ قد تقدم تفسير هذا في آل عمران مستوفى ، وانتصاب ﴿ **سويا** ﴾ على الحال، والمعنى : آيتك ألا تقدر على الكلام والحال أنك سوى الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، وقد دل بذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران . أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن .

﴿ **فخرج على قومه من المحراب** ﴾ وهو مصلاه ، واشتقاقه من الحرب ، كأن ملازمه يحارب الشيطان . وقيل : من الحرب محركًا ، كأن ملازمه يلقى حربًا وتعبًا ونصبًا﴿ **فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ قيل :معنى ﴿ **أوحى** ﴾ : أومأ بدليل قوله في آل عمران : ﴿ **إلا رمزا** ﴾ [آل عمران : ٤١] . وقيل : كتب لهم في الأرض . وبالأول قال الكلبي والقرظي وقتادة وابن منبه ، وبالثاني قال مجاهد . وقد يطلق الوحي على الكتابة ومنه قول ذي الرّمة :

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها   بقية وحي في بطون الصحائف

وقال عنترة :

كوحي صحائف من عهد كسرى   فأهداها لأعجم طمطمّ

و« أن » في قوله :﴿ **أن سبحوه** ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى :فأوحى إليهم بأن صلوا، أو أي صلوا ، وانتصاب ﴿ **بكرة** ﴾ و ﴿ **عشيا** ﴾ على الظرفية . قال الفراء : العشي يؤنث ، ويجوز تذكيره إذا أبهم . قال : وقد يقال : العشي جمع عشية ، قيل : والمراد : صلاة الفجر والعصر . وقيل : المراد بالتسبيح : هو قولهم سبحان اللّه في الوقتين : أي نزهوا ربكم طرفي النهار .

وقد أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ **كهيعص** ﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفي لفظ : كاف بدل كبير . وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبي أياس ، وعثمان ابن سعيد الدارمي في التوحيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **كهيعص** ﴾ قال : كاف من كريم ، وهاء من هاد ، وياء من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة : ﴿**كهيعص** ﴾ هو الهجاء المقطع ، والكاف من

الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصور . وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿ **كهيعص** ﴾ فحدّث عن أبي صالح عن أم هانئ عن رسول الله ﷺ قال : « كاف هاد عالم صادق » . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجة وابن جرير عن فاطمة ابنة علي قالت : كان علي يقول : يا كهيعص اغفر لي . وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في : ﴿ **كهيعص** ﴾ قال : الكاف الكافي ، والهاء الهادي ، والعين العالم ، والصاد الصادق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن السدي قال : كان ابن عباس يقول في كهيعص وحم ويس وأشباه هذا : هو اسم الله الأعظم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة في ذلك وقع بين من بعدهم ، ولم يصح مرفوعًا في ذلك شيء. ومن روى عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، ورد العلم في مثلها إلى الله سبحانه ، وقد قدمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة .

وأخرج أحمد وأبويعلى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :« كان زكريا نجارًا » (١). وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرًا ﴿ **قال رب إني وهن العظم مني** ﴾ إلى قوله : ﴿ **خفت الموالي** ﴾ قال : وهم العصبة ﴿ **يرثني** ﴾ نبوتي ونبوة آل يعقوب ، فنادته الملائكة ، وهوجبريل : إن الله يبشرك ﴿ **بغلام اسمه يحيى** ﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال : يا زكريا ، إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك، فشك وقال: ﴿ **أنى يكون لي غلام** ﴾ يقول: من أين يكون وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال الله : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ **وإني خفت الموالي من ورائي** ﴾ قال : الورثة : وهم عصبة الرجل . وأخرج الفريابي عنه قال : كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : ﴿ **رب هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب** ﴾ قال : يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لم نجعل له من قبل سميا** ﴾ قال : مثلا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : لا أدري كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتيا أو عسيا . وأخرج ابن أبي حاتم عن

(١) أحمد ٢/ ٢٦٩ وأبو يعلى (٦٤٢٦) وصححه الحاكم ٢/ ٥٩٠ وسكت عنه الذهبي .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبي ،ولكن الإمام الشوكاني كان لا يحتج بهذه السلسلة.

عطاء في قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : لبث زمانًا في الكبر . وأخرج أيضًا عن السدى قال : هرمًا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ قال : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفي لفظ من غير خرس ؛ أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضًا : ﴿ **فأوحى إليهم** ﴾ قال : كتب لهم كتابًا . وأخرج ابن أبي الدنيا ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **أن سبحوا** ﴾ قال : أمرهم بالصلاة ﴿ **بكرة وعشيا** ﴾ .

﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يا يحيى** ﴾ ها هنا حذف ، وتقديره : وقال الله للمولود : يا يحيى ، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له : يا يحيى . وقال الزجاج : المعنى: فوهبنا له وقلنا له : يا يحيى . والمراد بالكتاب : التوراة ، لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتابًا مختصًا به وإن كنا لا نعرفه الآن ، والمراد بالأخذ : إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغى ، وذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به ، والإحجام عن المنهى عنه ، ثم أكده بقوله : ﴿ **بقوة** ﴾ أى بجد وعزيمة واجتهاد ﴿**وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ المراد بالحكم : الحكمة وهى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية . وقيل : هى العلم وحفظه والعمل به . وقيل : النبوة . وقيل : العقل ، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحًا لحمله على جميع ما ذكر . قيل : كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين ، وقيل : ابن ثلاث .

﴿ **وحنانا من لدنا** ﴾ معطوف على الحكم . قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة ، وأصله: توقان النفس ، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة : تقول :حنانك يارب ، وحنانيك يارب ، بمعنى واحد ، يريد : رحمتك . قال طرفة :

أبا منذرأفنيت فاستبق بعضنا　　　حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وقال امرؤ القيس :

ويمنحها بنو سلخ بن بكر　　　معيزهم ، حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى :الحنان مشددًا من صفات الله عزّ وجلّ ، والحنان مخففًا:العطف والرحمة . والحنان :الرزق والبركة . قال ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضًا ما عظم من الأمور فى ذات الله ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حنانًا ، يعنى : بلالاً ، لما مرّ به وهو يعذب . وقيل : إن القائل لذلك هو ورقة بن

نوفل . قال الأزهرى : معنى ذلك : لأترحمن عليه ، ولأتعطفن عليه لأنه من أهل الجنة ، ومثله قول الحطيئة :

تحنن على هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

ومعنى ﴿ من لدنا ﴾ : من جنابنا . قيل : ويجوز أن يكون المعنى : أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنن بها على الناس ، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر ﴿وزكاة﴾ معطوف على ما قبله ، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر، أى جعلناه مباركا للناس يهديهم إلى الخير . وقيل : زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهور. وقيل : صدقة تصدقنا به على أبويه ، قاله ابن قتيبة ﴿ وكان تقيا ﴾ أى متجنبا لمعاصى الله مطيعًا له . وقد روى أنه لم يعمل معصية قط .

﴿ وبرا بوالديه ﴾ معطوف على ﴿ تقيا ﴾ البرّ هنا بمعنى البار ، فعل بمعنى فاعل ، والمعنى : لطيفًا بهما محسنًا إليهما ﴿ ولم يكن جبارا عصيا ﴾ أى لم يكن متكبرًا ولا عاصيًا لوالديه أو لربه ، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿ وسلام عليه ﴾ قال ابن جرير وغيره : معناه : أمان عليه من الله . قال ابن عطية: والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة، فهى أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه ، وهو أقل درجاته ، وإنما الشرف فى أن يسلم الله عليه ، ومعنى ﴿ يوم ولد ﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره فى ذلك اليوم ، أو أن الله حياه فى ذلك اليوم ،وهكذا معنى ﴿ يوم يموت ﴾ وهكذا معنى ﴿يوم يبعث حيا ﴾ قيل:أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن : يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قومًا لم يكن قد عرفهم وأحكامًا ليس له بها عهد ، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة . فخصّ الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ قال : بجد ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ قال : الفهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : يقول : اعمل بما فيه من فرائض . وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال : اللب . وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ قال : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين »(١) وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة : بدله وهو ابن ثلاث سنين . وأخرج الحاكم فى تاريخه من طريق نهشل بن سعد عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال يحيى : ما للعب خلقنا ، اذهبوا نصلى ، فهو قول الله :﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ ». وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن قبل أن

---

(١) الديلمى (٧١٦٨) .

يحتلم، فهو ممن أوتى الحكم صبيًا» (١) وأخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفًا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وحنانا** ﴾ قال : لا أدرى ما هو إلا أنى أظنه يعطف اللّه على عبده بالرحمة ، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وزكاة**﴾ قال : بركة ، وفى قوله : ﴿ **وكان تقيا** ﴾ قال : طهر فلم يعمل بذنب .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾.

قوله : ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم** ﴾ هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى . والمراد بالكتاب : هذه السورة ، أى اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم ، ويجوز أن يراد بالكتاب : جنس القرآن وهذه السورة منه ، ولما كان الذكر لا يتعلق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر ، وهو قصة مريم ، أو خبر مريم ﴿ **إذ انتبذت** ﴾ العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدّر ،ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم ، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها، ويكون المراد بمريم : خبرها ، وفى هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه ، والنبذ : الطرح والرمى . قال اللّه سبحانه: ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ [آل عمران : ١٨٧] والمعنى : أنها تنحت وتباعدت . وقال ابن قتيبة: اعتزلت. وقيل : انفردت ، والمعانى متقاربة . واختلفوا فى سبب انتباذها ، فقيل : لأجل أن تعبد اللّه سبحانه . وقيل : لتطهر من حيضها ، و ﴿ **من أهلها** ﴾ متعلق بـ ﴿ **انتبذت** ﴾ ، وانتصاب ﴿ **مكانا شرقيا** ﴾ على المفعولية للفعل المذكور ، أى مكانًا من جانب الشرق ، والشرق بسكون الراء : المكان الذى

(١) البيهقى فى الشعب (١٧٩٨) وإسناده ضعيف فيه الحسن بن أبى جعفر الجفرى وهو ضعيف .

تشرق فيه الشمس ، وإنما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير . وقد اختلف الناس فى نبوة مريم ، فقيل : إنها نبية بمجرد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك . وقيل : لم تكن نبية ، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر ، وقد تقدم الكلام فى هذا فى آل عمران .

﴿ **فاتخذت من دونهم حجابا** ﴾ أى اتخذت من دون أهلها حجابًا يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، أو حال التطهر من الحيض ، والحجاب الستر والحاجز ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾ هو جبريل عليه السلام. وقيل : هو روح عيسى ، لأن اللّه سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد ، والأول أولى لقوله :﴿ **فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ أى تمثل جبريل لها بشرًا مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيئًا . قيل : ووجه تمثل الملك لها بشرًا أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رأته فى صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء، فاستعاذت باللّه منه ، و ﴿ **قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ أى ممن يتقى اللّه ويخافه . وقيل : إن تقيًا اسم رجل صالح ، فتعوذت منه تعجبًا . وقيل : إنه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت ، والأوّل أولى . وجواب الشرط محذوف ، أى فلا تتعرض لى .

﴿ **قال إنما أنا رسول ربك** ﴾ أى قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء ﴿ **لأهب لك غلاما زكيا** ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سببا فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به فى الظاهر. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وورش عن نافع « ليهب » على معنى أرسلنى ليهب لك ، وقرأ الباقون بالهمز ، والزكى : الطاهر من الذنوب الذى ينمو على النزاهة والعفة وقيل : المراد بالزكى النبىّ .

﴿ **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر** ﴾ أى لم يقربنى زوج ولا غيره ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ البغى هى : الزانية التى تبغى الرجال . قال المبرد : أصله : بغوى على فعول ، قلبت الواو ياء ثم أدغمت فى الياء وكسرت الغين للمناسبة . وقال ابن جنى : إنه فعيل . وزيادة ذكركونها لم تك بغيًا مع كون قولها: لم يمسسنى بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيها لجانبها من الفحشاء . وقيل : ما استبعدت من قدرة اللّه شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه فى المستقبل أم يخلقه اللّه سبحانه ابتداء ؟ وقيل : إن المس عبارة عن النكاح الحلال ، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها : ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ وما ذكرناه من شموله ، أولى باستعمالات أهل اللغة ، وما يوجد فى محاوراتهم مما يطول تعداده.ا.هـ .﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ أى ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة ، وهو علة لمعلل محذوف ، والتقدير خلقناه لنجعله ، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه:﴿ **هو على هين** ﴾ وجملة ﴿**قال**

كذلك قال ربك هو على هين ﴾ مستأنفة ، والقائل هو الملك ، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا . وقوله : ﴿ **ورحمة منا** ﴾ معطوف على آية ، أى ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبى رحمة لأمته ﴿ **وكان أمرا مقضيا** ﴾ أى وكان ذلك المذكور أمرًا مقدرا قد قدره اللّه سبحانه وجف به القلم .

﴿ **فحملته** ﴾ ها هنا كلام مطوى ، والتقدير : فاطمأنت إلى قوله ، فدنا منها ، فنفخ فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته . وقيل : كانت النفخة فى ذيلها . وقيل : فى فمها . قيل : إن وضعها كان متصلا بهذا الحمل من غير مضى مدة الحمل ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **فانتبذت به مكانا قصيا** ﴾ أى تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد ، والقصى هو البعيد . قيل : كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل : أبعد مكان فى تلك الدار . وقيل : أقصى الوادى . وقيل : إنها حملت به ستة أشهر . وقيل : ثمانية أشهر وقيل :سبعة ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة** ﴾ أى ألجأها واضطرها ، ومنه قول زهير :

أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ شبل : « فاجأها » من المفاجأة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، وقرأ الحسن بغير همز ، وفى مصحف أبى : « فلما أجاءها » قال فى الكشاف : إن « أجاءها » منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضًا ومخاضا إذا دنا ولادها . وقرأ الجمهور بفتح الميم . وقرأ ابن كثير بكسرها ، والجذع :ساق النخلة اليابسة ، كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشىء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ﴿ **قالت يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ أى قبل هذا الوقت ، تمنت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء فى دينها ، أو لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان ﴿ **وكنت نسيا** ﴾ النسى فى كلام العرب : الشىء الحقير الذى من شأنه أن يُنسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، ومنه قول الكميت :

أتجعلنا خسرًا لكلب قضاعة ولسنا بنسى فى معدّ ولا دخل

وقال الفراء : النسى : ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : ﴿ **نسيا منسيا**﴾ أى حيضة ملقاة ، وقد قرئ بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان مثل الحجر والحجر ، والوتر والوتر . وقرأ محمد بن كعب القرظى : « نساء » بالهمز مع كسر النون . وقرأ نوف البكالى بالهمز مع فتح النون . وقرأ بكر بن حبيب :﴿ **نسيا** ﴾ بفتح النون وتشديد الياء بدون همز ، والمنسى المتروك الذى لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ أى جبريل لما سمع قولها ، وكان أسفل منها تحت الأكمة. وقيل :تحت النخلة . وقيل : المنادى هو عيسى ، وقد قرئ بفتح الميم من ﴿ **من** ﴾ وكسرها . وقوله : ﴿ **ألا تحزنى** ﴾ تفسير للنداء ،

أى لا تحزنى أو بمعنى بأن لا تحزنى على أنها المصدرية ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ قال جمهور من المفسرين : السرىّ :النهر الصغير، والمعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهرًا. قيل: كان نهرًا قد انقطع عنه الماء ، فأرسل اللّه فيه الماء لمريم ، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذى اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر . وقيل : المراد بالسرى هنا : عيسى ، والسرىّ : العظيم من الرجال ؛ ومنه قولهم : فلان سرى ، أى عظيم ، ومن قوم سراة ، أى عظام .

﴿ **وهزى إليك بجزع النخلة** ﴾ الهز : التحريك ، يقال : هزه فاهتز ، والباء فى بجذع النخلة مزيدة للتوكيد . وقال الفراء : العرب تقول هزه وهزبه ، والجذع هو : أسفل الشجرة . قال قطرب : كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع ، ومعنى إليك : إلى جهتك ، وأصل تساقط : تتساقط ، فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة والأعمش ﴿ **تساقط** ﴾ مخففًا . وقرأ عاصم فى رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف . وقرئ : « تتساقط » بإظهار التاءين . وقرئ بالتحتية مع تشديد السين . وقرئ « تسقط ، ويسقط » وقرأ الباقون بإدغام التاء فى السين ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع ؛ وانتصاب ﴿ **رطبا** ﴾ على بعض هذه القراءات للتمييز ، وعلى البعض الآخر على المفعولية لتساقط . قال المبرد والأخفش : يجوز انتصاب رطبًا بهزى :أى هزى إليك رطبًا ﴿**جنيا** ﴾ بجذع النخلة ، أى على جذعها وضعفه الزمخشرى ، والجنى: المأخوذ طريًا . وقيل : هو ما طاب وصلح للاجتناء ، وهو فعيل بمعنى مفعول . قال الفراء : الجنى والمجنى واحد . وقيل : هو فعيل بمعنى فاعل ، أى رطبًا طريا طيبا .

﴿ **فكلى واشربى** ﴾ أى من ذلك الرطب وذلك الماء ، أو من الرطب وعصيره ، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب ، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء ، ثم قال : ﴿ **وقرى عينا** ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف . وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها قال : وهى لغة نجد . والمعنى : طيبى نفسًا وارفضى عنك الحزن ، وهو مأخوذ من القرّ والقرة وهما البرد ، والمسرور : بارد القلب ساكن الجوارح . وقيل : المعنى : وقرى عينًا برؤية الولد الموهوب لك . وقال الشيبانى : معناه : نامى . قال أبو عمرو : أقر اللّه عينه ، أى أنام عينه وأذهب سهره ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا** ﴾ أصله : ترأيين : مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد ، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد :

أما ترى رأسى حاكى لونه　　　طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « ترين » بسكون الياء وفتح النون مخففة . قال أبو الفتح : وهى شاذة ، وجواب الشرط ﴿ **فقولى إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ أى قولى إن طلب منك الكلام أحد من الناس : إنى نذرت للرحمن صومًا أى صمتا. وقيل : المراد به : الصوم الشرعى ، وهو الإمساك عن المفطرات ، والأوّل أولى . وفى قراءة أبىّ : « إنى نذرت للرحمن

صومًا صمتًا » بالجمع بين اللفظين ، وكذا روى عن أنس . وروى عنه أنه قرأ : « صومًا وصمتًا » بالواو ، والذى عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت ، ويدل عليه ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ ومعنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين . قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم . وقراءة أبيّ تدل على أن المراد بالصوم هنا : الصمت ، لأنه تفسير للصوم . وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو ومعنى ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ أنها لا تكلم أحدا من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجى ربها . وقيل : إنها لم تخبرهم هنا باللفظ ، بل بالإشارة المفيدة للنذر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **انتبذت من أهلها مكانا شرقيا** ﴾ قال: مكانًا أظلها الشمس أن يراها أحد منهم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكانًا شرقيًا ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه ، يتخوّفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيها اللّه ، فاتخذوها سنة . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء وابن عساكر من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود قالا : خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذا هى برجل معها ﴿ **فتمثل لها بشرا**﴾ ففزعت و ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ فخرجت وعليها جلبابها ، فأخذ بكمها فنفخ فى جنب درعها ، وكان مشقوقًا من قدامها ، فدخلت النفخة صدرها فحملت ، فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أنى حبلى ، قالت مريم : أشعرت أنى حبلى ، فقالت امرأة زكريا : فإنى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **مصدقا بكلمة من الله** ﴾ فولدت امرأة زكريا يحيى ، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ الآية ﴿ **فناداها** ﴾ جبريل ﴿ **من تحتها ألا تحزنى** ﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم فقال : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب** ﴾ الآيات ، ولما ولد لم يبق فى الأرض صنم إلا خرّ لوجهه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم قال : حين حملت وضعت . وأخرج ابن عساكر عنه قال : وضعت لثمانية أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾ قال : جبريل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضًا. وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن عساكر عن أبى بن كعب فى الآية قال : تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته ، قال :

حملت الذى خاطبها ، دخل فى فيها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مكانا قصيا** ﴾ قال : نائيًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾ قال : كان جذعا يابسا . وأخرج ابن جرير وابن المنذرعنه أيضا فى قوله : ﴿ **وكنت نسيا منسيا** ﴾ قال : لم أخلق ولم أك شيئًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ﴿ **وكنت نسيا منسيا** ﴾ قال : حيضة ملقاة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذرعن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ قال : الذى ناداها جبريل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الذى ناداها من تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها . وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال : قرأ عاصم بن أبى النجود ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ بالنصب ، قال : وقال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى ، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن السرى الذى قال الله لمريم ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه» (١) وفى إسناده أيوب بن نهيك الجبلى قال فيه أبو حاتم الرازى : ضعيف ، وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، قال أبو فتح الأزدى :متروك الحديث ، وقال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث :إنه غريب جدًا . وأخرج الطبرانى فى الصغير، وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ قال : « النهر » (٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وصححه والحاكم ، وابن مردويه عن البراء قال فى الآية : هو الجدول ، وهو النهر الصغير ، فظهر بهذا أن الموقوف أصح . وقد روى عن جماعة من التابعين أن السرى هو عيسى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رطبا جنيا** ﴾ قال : طريًا . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه في قوله : ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ قال : صمتًا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عنه أنه قرأ : « صومًا صمتًا » .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)

---

(١) الطبرانى (١٣٣٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨ : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتى وهو ضعيف » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير ،وفيه معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف » .

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿ **أتت به** ﴾ أى بعيسى ، وجملة : ﴿ **تحمله** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكان إتيانها إليهم من المكان القصى التى انتبذت فيه ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿ **فقالوا** ﴾ منكرين لذلك ﴿ **يا مريم لقد جئت** ﴾ أى فعلت ﴿ **شيئا فريا** ﴾ قال أبو عبيدة : الفرى : العجيب النادر ، وكذا قال الأخفش . والفرى : القطع ، كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع بكونه عجيبًا نادرًا . وقال قطرب : الفرى : الجديد من الأسقية ، أى جئت بأمر بديع جديد لم تسبقى إليه . وقال سعيد بن مسعدة : الفرى : المختلق المفتعل ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشيء المفترى ، قال تعالى : ﴿ ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ [الممتحنة : ١٢] وقال مجاهد : الفرى : العظيم .

﴿ **يا أخت هارون** ﴾ قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوة ، وفى هارون المذكور من هو ؟ فقيل : هو هارون أخو موسى ، والمعنى : أن من كانت نظنها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا . وقيل : كانت مريم من ولد هارون أخى موسى، فقيل لها: يا أخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون . وقيل : هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت . وقيل : بل كان فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون ، فنسبوها إليه على وجهة التعيير والتوبيخ ، حكاه ابن جرير ولم يسمّ قائله وهو ضعيف ﴿ **ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾ هذا فيه تقريرلما تقدم من التعيير والتوبيخ ، وتنبيه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين مما لا ينبغى أن تكون .

﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أى إلى عيسى ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدّم ، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك فى أيام نذرها، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها ، فيمكن أن يقال : إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة ﴿ **قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا** ﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم. قال أبو عبيدة: فى الكلام حشو زائد. والمعنى : كيف نكلم صبيا فى المهد ، كقول الشاعر :

وجيران لنا كانوا كراما

وقال الزجاج : الأجود أن تكون من فى معنى الشرط والجزاء ، والمعنى : من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلمه . ورجحه ابن الأنبارى وقال : لا يجوز أن يقال : إن ﴿ **كان** ﴾ زائدة وقد نصبت ﴿ **صبيا** ﴾ ويجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل ، وهو ﴿**نكلم**﴾ كما سبق تقديره . وقيل : إن ﴿ **كان** ﴾ هنا هى التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . وردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، والمهد هو : شيء معروف يتخذ لتنويم الصبى .

والمعنى : كيف نكلم من سبيله أن ينوم فى المهد لصغره . وقيل : هو هنا حجر الأم . وقيل : سرير كالمهد ، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿ **قال إنى عبد الله** ﴾ فكان أول ما نطق به ، الاعتراف بالعبودية له ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾ أى الإنجيل ، أى حكم لى بإيتائى الكتاب والنبوة فى الأزل ، وإن لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال ولا قد صار نبيا . وقيل : إنه آتاه الكتاب وجعله نبيا فى تلك الحال ، وهو بعيد ﴿ **وجعلنى مباركا أين ما كنت** ﴾ أى حيثما كنت ، والبركة أصلها من بروك البعير والمعنى : جعلنى ثابتًا فى دين اللّه . وقيل : البركة هى : الزيادة والعلو ، فكأنه قال : جعلنى فى جميع الأشياء زائدًا عاليًا منجحًا . وقيل : معنى المبارك: النفاع للعباد، وقيل : المعلم للخير . وقيل :الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر .﴿ **وأوصانى بالصلاة** ﴾ أى أمرنى بها ﴿ **والزكاة** ﴾ زكاة المال ، أو تطهير النفس ﴿ **ما دمت حيا** ﴾ أى مدة دوام حياتى ، وهذه الأفعال الماضية هى من باب تنزيل مالم يقع منزلة الواقع تنبيهًا على تحقيق وقوعه لكونه قد سبق فى القضاء المبرم .

﴿ **وبرا بوالدتى** ﴾ معطوف على ﴿ **مباركا** ﴾ واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم فى تلك الحال أنه لم يكن له أب، وقرئ : « وبرا » بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ **ولم يجعلنى جبارا شقيا** ﴾ الجبار: المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقى : العاصى لربه . وقيل : الخائب . وقيل : العاق . ﴿ **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ قال المفسرون :السلام هنا بمعنى السلامة: أى السلامة على يوم ولدت ، فلم يضرنى الشيطان فى ذلك الوقت ولا أغوانى عند الموت ولا عند البعث . وقيل : المراد به : التحية . قيل : واللام للجنس . وقيل : للعهد ، أى وذلك السلام الموجه إلى يحيى فى هذه المواطن الثلاثة موجه إلى . قيل : إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التى تتكلم فيها الصبيان فى العادة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأتت به قومها تحمله**﴾ قال : بعد أربعين يومًا بعد ما تعلّت من نفاسها . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد ابن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول اللّه ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ » (١) وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٨٦٥) وأحمد ٤/ ٢٥٢ ومسلم فى الآداب (٢١٣٥ / ٩) والترمذى فى التفسير (٣١٥٥) وقال : « هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس » والنسائى فى التفسير (٣٣٥) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها فى بطن أمه ، فذلك قوله : ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ آتانى الكتاب ﴾ الآية ، قال : قضى أن أكون كذلك . وأخرج الإسماعيلى فى معجمه وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه وابن النجارعن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ فى قول عيسى : ﴿ وجعلنى مباركا أين ما كنت ﴾ قال : « جعلنى نفاعًا للناس أينما اتجهت » [1] وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وجعلنى مباركا ﴾ قال : معلمًا ومؤدبًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:﴿ ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ يقول : عصيا .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ .

الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى المتصف بالأوصاف السابقة . قال الزجاج : ذلك الذى قال : إنى عبد اللّه عيسى ابن مريم ، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن اللّه وأنه إله . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب :﴿ قول الحق ﴾ بالنصب . وقرأ الباقون بالرفع . فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح ، أو على أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبد اللّه ، قاله الزجاج . ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى ، أى ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ ، قاله الكسائى . وسمى قول الحق كما سمى كلمة اللّه ، والحق هو اللّه عز وجلّ . وقال أبو حاتم : المعنى : هو قول الحق . وقيل : التقدير : هذا الكلام قول الحق ، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين . وقيل : الإضافة للبيان . وقرئ : « قال الحق » وروى ذلك عن ابن مسعود ، وقرأ الحسن : « قول الحق » بضم القاف ، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد ، و﴿الذى فيه يمترون ﴾ صفة لعيسى : أى ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق ، ومعنى ﴿ يمترون ﴾ : يختلفون ، على أنه من المماراة ، أو يشكوا على أنه من المرية . وقد وقع الاختلاف فى عيسى ؛ فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : هو ابن اللّه .

﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ أى ما صح ولا استقام ذلك ، فـ « أن » فى محل رفع

(١) أبو نعيم فى الحلية ٣/ ٢٥ وقال : « غريب من حديث يونس تفرد به هشيم وعنه شعيب » .

على أنها اسم كان . قال الزجاج : « من » فى ﴿ **من ولد** ﴾ مؤكدة تدل على نفى الواحد والجماعة ؛ ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه ؛ ثم صرح سبحانه بما هو شأنه ــ تعالى سلطانه ــ فقال: ﴿ **إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أى إذا قضى أمرًا من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير . وقد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة ، وفى إيراده فى هذا الموضوع تبكيت عظيم للنصارى، أى من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ ﴿ **وأن الله ربى وربكم فاعبدوه** ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن ». وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها ، وهو من تمام كلام عيسى، وقرأ أبىّ:« إن الله » بغير واو ، قال الخليل وسيبويه : فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى : ولأن الله ربى وربكم ، وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفًا على الصلاة، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على ﴿ **أمرا** ﴾ . ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربى وربكم ، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه .

﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾: « من » زائدة للتوكيد ، والأحزاب: اليهود والنصارى ، أى فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى ، فاليهود قالوا : إنه ساحر ، كما تقدّم ، وقالوا : إنه ابن يوسف النجار . والنصارى اختلفت فرقهم فيه ، فقالت النسطورية منهم : هو ابن الله . وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو الله تعالى ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت ﴿ **فويل للذين كفروا** ﴾ وهم المختلفون فى أمره ﴿**من مشهد يوم عظيم** ﴾ أى من شهود يوم القيامة وما يجرى فيه من الحساب والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم . وقيل : المعنى : فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ، فيقولون: أسمع بزيد وأبصر به ، أى ما أسمعه وأبصره ، فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ أى للحساب والجزاء ﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى واضح ظاهر ، ولكنهم أغفلوا التفكر ، والاعتبار والنظر فى الآثار. ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ أى يوم يتحسرون جميعًا ، فالمسىء على إساءته ، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿ **إذ قضى الأمر** ﴾ أى فرغ من الحساب وطويت الصحف ، وصار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وجملة : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ فى محل نصب على الحال : أى غافلين عما يعمل بهم ، وكذلك جملة ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها** ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعًا ﴿ **وإلينا يرجعون** ﴾ أى يردون إلينا يوم القيامة فنجازى كلا بعمله ، وقد تقدّم مثل هذا فى سورة الحجر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قول الحق** ﴾ قال : الله الحقّ

عز وجلّ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ **الذى فيه يمترون** ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم ،فامتروا فى عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو اللّه هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية ؛ فقالت الثلاثة :كذبت ؛ ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، فقال: هو ابن اللّه ، وهم النسطورية ؛ فقال اثنان : كذبت ؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، اللّه إله ، وعيسى إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ، وهم ملوك النصارى ؛ فقال الرابع : كذبت ، هو عبد اللّه ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا ، فظهروا على المسلمين ، فذلك قول اللّه سبحانه : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ [آل عمران : ٢١] قال قتادة : وهم الذين قال اللّه : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزابًا ، فاختصم القوم ، فقال المرء المسلم : أنشدكم باللّه هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن اللّه لا يطعم ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن اللّه لا ينام ؟ قالوا :اللهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم ، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله : ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أسمع بهم وأبصر**﴾ يقول الكفار يومئذ : أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ قال : ذلك يوم القيامة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون إليه ، فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة** ﴾ الآية ، وأشار بيده وقال : «أهل الدنيا فى غفلة » [١] . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه [٢]. وأخرج ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال: يوم الحسرة : هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ [الزمر : ٥٦] وعلى هذا ضعيف ، والآية التى استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٣٠) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩/ ٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١٥٦) وقال: « حسن صحيح » .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٣٦) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **واذكر** ﴾ معطوف على « وأنذر » والمراد بذكر الرسول إياه فى الكتاب : أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء: ٦٩] ، وجملة : ﴿**إنه كان صديقا نبيا** ﴾ تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن يذكره، وهى معترضة ما بين البدل والمبدل منه، والصديق: كثير الصدق ، وانتصاب ﴿ **نبيا** ﴾ على أنه خبر آخر لكان ، أى اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين ، و ﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ، وأبو إبراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره ، والتاء فى ﴿ **يا أبت** ﴾ عوض عن الياء ، ولهذا لا يجتمعان ، والاستفهام فى ﴿ **لم تعبد** ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿ **ما لا يسمع** ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿ **ولا يبصر** ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التى تفعلها مريدًا بها الثواب ، ويجوز أن يحمل نفى السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك ، أى لا يسمع شيئًا من المسموعات ، ولا يبصر شيئًا من المبصرات ﴿ **ولا يغنى عنك شيئا** ﴾ من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضررًا ، وهى الأصنام التى كان يعبدها آزر ، أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح ، وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه ، وامتثالا لأمر ربه .

ثم كرر دعوته إلى الحق فقال : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك** ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه ، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ، ويقتدربه على إرشاد الضال ، ولهذا أمره باتباعه فقال : ﴿ **فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ مستويا موصلا إلى المطلوب منجيًا من المكروه . ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾ أى لا تطعه ، فإن عبادة الأصنام هى من طاعة الشيطان ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم ، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله ، والعاصى حقيق بأن تسلب

عنه النعم وتحلّ به النقم . قال الكسائى : العصى والعاصى بمعنى واحد .

ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ **يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن** ﴾ قال الفراء : معنى أخاف هنا : أعلم . وقال الأكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره ، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازمًا بذلك لم يشتغل بنصحه ، ومعنى الخوف على الغير : هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿ **فتكون للشيطان وليا** ﴾ أى إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه فى النار واللعنة ، فتكون بهذا السبب مواليًا ، أو تكون بسبب موالاته فى العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف: ٦٧] . وقيل : الولى بمعنى التالى . وقيل : الولىّ بمعنى القريب ، أى تكون للشيطان قريبًا منه فى النار ، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة فقال :﴿ **أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم** ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، والمعنى : أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره ؟ ثم توعده فقال : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ أى بالحجارة . وقيل : باللسان ، فيكون معناه لأشتمنك . وقيل : معناه لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك ﴿**واهجرنى مليا** ﴾ أى زمانًا طويلا . قال الكسائى : يقال : هجرته مليا وملوة وملاوة ، بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل ، ومنه قول مهلهل :

فتصدّعت صمّ الجبال لموته وبكت عليه المرملات مليا

وقيل : معناه : اعتزلنى سالم العرض لا تصيبك منى معرة ، واختار هذا ابن جرير ، فمليا على هذا منتصب على الحال من إبراهيم ، وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ **قال سلام عليك** ﴾ أى تحية توديع ومتاركة كقوله : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وقيل : معناه : أمنة منى لك ، قاله ابن جرير . وإنما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله ، والأول أولى ، وبه قال الجمهور. وقيل : معناه الدعاء له بالسلامة ، استمالة له ورفقًا به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفًا له وطمعًا فى لينه وذهاب قسوته :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال اللّه سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فلما تبين له أنه عدو للّه تبرأ منه ﴾ بعد قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : ١١٤] وجملة : ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ تعليل لما قبلها ؛ والمعنى سأطلب لك المغفرة من اللّه ، فإنه كان بى كثير البرّ واللطف، يقال :حفى به وتحفى : إذا بره . قال الكسائى :يقال :حفى بى حفاوة وحفوة . وقال الفراء : إنه كان بى حفيًا ، أى عالمًا لطيفًا يجيبنى إذا دعوته .

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾ أى أهاجر بدينى عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحى ولا نجعت فيكم دعوتى ﴿ **وأدعو ربى** ﴾ وحده ﴿ **عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾ أى خائبًا . وقيل : عاصيًا . قيل : أراد بهذا الدعاء : هو أن يهب الله له ولدًا وأهلا يستأنس بهم فى اعتزاله ويطمأن إليهم عند وحشته . وقيل : أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ، والأول أولى لقوله : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ أى جعلنا هؤلاء الموهوبين له ، أهلا وولدًا بدل الأهل الذين فارقهم ﴿ **وكلا جعلنا نبيا** ﴾ أى كل واحد منهما، وانتصاب﴿ **كلا** ﴾ على أنه المفعول الأول لجعلنا قدّم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم ، أى كل واحد منهم جعلنا نبيا ، لا بعضهم دون بعض .

﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هى من باب الرحمة . وقيل : المراد بالرحمة هنا : المال . وقيل : الأولاد . وقيل : الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ لسان الصدق : الثناء الحسن ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لأرجمنك** ﴾ قال : لأشتمنك ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ قال : حينًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ قال : اجتنبنى سويا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى الآية قال : اجتنبنى سالمًا قبل أن تصيبك منى عقوبة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة: ﴿ **مليا** ﴾ : دهرًا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : سالمًا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ قال : لطيفًا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ قال : يقول : وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ قال : الثناء الحسن .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا

(٥٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾ .

قفّى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلاه فى الشرف، وقدمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب ، أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿ **إنه كان مخلصا** ﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام ، أى جعلناه مختارًا وأخلصناه . وقرأ الباقون بكسرها ، أى أخلص العبادة والتوحيد للّه غير مراء للعباد ﴿ **إنه كان رسولا نبيا** ﴾ أى أرسله اللّه إلى عباده فأنبأهم عن اللّه بشرائعه التى شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبى بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى ، واللّه أعلم . وقال النيسابورى : الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء ، والنبى الذى ينبئ عن اللّه عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص ، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله فى طه: ﴿ رب هارون وموسى ﴾ [طه : ٧٠] انتهى .

﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن** ﴾ أى كلمناه من جانب الطور، وهوجبل بين مصر ومدين اسمه زبير ، ومعنى الأيمن : أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى ، فإن الشجرة كانت فى ذلك الجانب والنداء وقع منها ، وليس المراد : يمين الجبل نفسه . فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . وقيل : معنى الأيمن : الميمون ، ومعنى النداء : أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿ **وقربناه نجيا** ﴾ أى أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجى بمعنى المناجى كالجليس والنديم ، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام ، مثلت حاله بحال من قربه منه الملك لمناجاته . قال الزجاج : قربه فى المنزلة حتى سمع مناجاته . وقيل : إن اللّه سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم . روى هذا عن بعض السلف .

﴿ **ووهبنا له من رحمتنا** ﴾ أى من نعمتنا ، وقيل : من أجل رحمتنا ، و﴿ **هارون** ﴾ عطف بيان ، و﴿ **نبيا** ﴾ حال منه ، وذلك حين سأل ربه قال : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى. هارون أخى ﴾ [طه : ٢٩ ، ٣٠] . ووصف اللّه سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهورًا بذلك مبالغًا فيه، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك ، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالى، حتى قيل : إنه انتظر لبعض من وعده حولا . والمراد بإسماعيل هنا : هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولم يخالف فى ذلك إلا

من لا يعتد به فقال : هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره الله فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه . وقد استدل بقوله تعالى فى إسماعيل : ﴿**وكان رسولا نبيا**﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته . وقيل :إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾ قيل :المراد بأهله هنا أمته. وقيل : جرهم ، وقيل : عشيرته كما فى قوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . والمراد بالصلاة والزكاة هنا : هما العباداتان الشرعيتان ويجوز أن يراد : معناهما اللغوى ﴿ **وكان عند ربه مرضيا** ﴾ أى رضيا زاكيًا صالحًا . قال الكسائى والفراء : من قال مرضى ؛ بنى على رضيت ، قالا: وأهل الحجاز يقولون مرضوّ .

﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس** ﴾ اسم إدريس أخنوخ ، قيل : هو جد نوح ، فإن نوحًا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبى نوح .ذكره الثعلبى وغيره . وقد قيل : إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية . وهو أول من خط بالقلم ونظر فى النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب . قيل : وهو أول من أعطى النبوّة من بنى آدم . وقد اختلف فى معنى قوله: ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ فقيل : إن الله رفعه إلى السماء الرابعة. وقيل : إلى السادسة . وقيل: إلى الثانية وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث الإسراء وفيه : ومنهم إدريس فى الثانية (١) ، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبى نمر . والصحيح أنه فى السماء الرابعة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبىّ (٢) وقيل: إن المراد برفعه مكانًا عليا : ما أعطيه من شرف النبوّة . وقيل : إنه رفع إلى الجنة .

﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين** ﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، والموصول صفته ، و﴿ **من النبيين** ﴾ بيان للموصول ، و﴿ **من ذرية آدم** ﴾ بدل منه بإعادة الخافض . وقيل : إن « من » فى ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ للتبعيض ﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ أى من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس ، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ وهم الباقون ﴿ **وإسرائيل** ﴾ أى ومن ذرية إسرائيل ، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى . وقيل : إنه أراد بقوله : ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ إدريس وحده ، وأراد بقوله : ﴿**وممن حملنا مع نوح** ﴾ إبراهيم وحده ، وأراد بقوله : ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأراد بقوله : ﴿ **ومن ذرية إسرائيل** ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ **وممن هدينا** ﴾ أى من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ **واجتبينا** ﴾ بالإيمان ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ وهذا خبر لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿**الذين أنعم الله عليهم** ﴾ وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه. وقد تقدم فى سبحان

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٢) . (٢) مسلم فى الإيمان (١٦٢/ ٢٥٩) .

بيان معنى خرّوا سجدًا :يقال : بكى يبكى بكاء وبكيا . قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أى ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر:

بكت عينى وحق لها بكاها   وما يغنى البكاء ولا العويل

و ﴿ **سجدا** ﴾ منصوب على الحال . قال الزجاج : قد بين الله أن الأنبياء إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا ، وقد استدل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة .

ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيبًا لغيرهم فى الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيرًا للناس عن طريقتهم فقال : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ أى عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير : خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر : خلف بسكون اللام ، وقد قدمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ قال الأكثر : معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها . وقيل : أضاعوا الوقت . وقيل : كفروا بها وجحدوا وجوبها . وقيل : لم يأتوا بها على الوجه المشروع . والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضًا من فروضها أو شرطًا من شروطها أو ركنًا من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو أحدها دخولا أوليا . واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقيل : فى اليهود . وقيل : فى النصارى . وقيل : فى قوم من أمة محمد ﷺ يأتون فى آخر الزمان ، ومعنى ﴿**واتبعوا الشهوات** ﴾ أى فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ الغى : هو الشر عند أهل اللغة ، كما أن الخير : هو الرشاد ، والمعنى : أنهم سيلقون شرا لا خيرا . وقيل : الغىّ : الضلال ، وقيل : الخيبة . وقيل :هو اسم وادٍ فى جهنم . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : سيلقون جزاء الغىّ ، كذا قال الزجاج ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ يلق أثاما ﴾ [الفرقان : ٦٨] . أى جزاء أثام .

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أى تاب مما فرط منه من تضييع الصلوات واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملا صالحًا ، وفى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لا فى المسلمين ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر :« يدخلون » بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء ﴿ **ولا يظلمون شيئا** ﴾ أى لا ينقص من أجورهم شىء وإن كان قليلا، فإن الله سبحانه يوفى إليهم أجورهم . وانتصاب ﴿ **جنات عدن** ﴾ على البدل من الجنة ، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة . قال الزجاج : ويجوز « جنات عدن » بالرفع على الابتداء، وقرئ كذلك . قال أبو حاتم: لولا الخط لكان جنة عدن ، يعنى: بالإفراد ، مكان الجمع وليس هذا بشىء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس . وقرئ بنصب الجنات على المدح ، وقد قرئ جنة بالإفراد ﴿ **التى وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن و ﴿ **بالغيب** ﴾ فى محل نصب على الحال من الجنات ، أو من عباده ، أى متلبسة ، أو متلبسين بالغيب ، وقرئ : بصرف عدن ، ومنعها على أنها علم لمعنى

العدن وهو الإقامة ، أو علم لأرض الجنة ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ أى موعوده على العموم ، فتدخل فيه الجنات دخولا أوليا . قال الفراء : لم يقل آتيًا ، لأن كل ما أتاك فقد آتيته ، وكذا قال الزجاج .

﴿ **لا يسمعون فيها لغوا** ﴾ هو الهذر من الكلام الذى يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم، وقيل :اللغو: كل ما لم يكن فيه ذكر اللّه ﴿ **إلا سلاما** ﴾ هو استثناء منقطع : أى سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم . وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى : أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ قال المفسرون : ليس فى الجنة بكرة ولا عشية ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه . قرأ يعقوب : « نورث » بفتح الواو وتشديد الراء ، وقرأ الباقون بالتخفيف . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : نورث من كان تقيا من عبادنا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وكان رسولا نبيا** ﴾ قال : النبىّ الذى يكلم وينزل عليه ولا يرسل . ولفظ ابن أبى حاتم : الأنبياء الذين ليسوا برسل : يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد . والرسل : الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**جانب الطور الأيمن** ﴾ قال : جانب الجبل الأيمن ﴿ **وقربناه نجيا** ﴾ قال : نجا بصدقه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : قربه حتى سمع صريف القلم ، يكتب فى اللوح . وأخرجه الديلمى عنه مرفوعًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون** ﴾ قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن إنما وهب له نبوته .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ قال :كان إدريس خياطا وكان لا يغرز غرزة إلا قال :سبحان اللّه ، وكان يمسى حين يمسى وليس على الأرض أفضل عملا منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال : ياربّ ائذن لى فأهبط إلى إدريس ، فأذن له فأتى إدريس فقال : إنى جئتك لأخدمك ، قال : كيف تخدمنى وأنت ملك وأنا إنسان؟ ثم قال إدريس : هل بينك وبين ملك الموت شىء ؟ قال الملك: ذاك أخى من الملائكة، قال : هل تستطيع أن تنفعنى ؟ قال: أما يؤخر شيئًا أو يقدمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال : اركب بين جناحى ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا فلقى ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لى إليك حاجة ، قال : علمت حاجتك تكلمنى فى إدريس وقد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات

إدريس بين جناحى الملك [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : سألت كعبًا فذكر نحوه ، فهذا هو من الإسرائيليات التى يرويها كعب . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : رفع إدريس إلى السماء السادسة . وأخرج الترمذى وصححه، وابن المنذر وابن مردويه قال :حدثنا أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «لما عرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة » [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال :رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إدريس هو إلياس .وحسنه السيوطى .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم** ﴾ إلى آخره ، قال : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ؛ أما من ذرية آدم : فإدريس ونوح ؛ وأما من حمل مع نوح فإبراهيم ؛ وأما ذرية إبراهيم : فإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب ؛ وأما ذرية إسرائيل : فموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى الآية قال:هم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله فى السماء . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ قال : ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشىء ولا يتركه، ولكن إضاعتها :إذا لم يصلها لوقتها . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾ الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ ، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » [(٣)] وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن » قلت : يا رسول الله ، ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » ، قلت: ما أهل اللبن ؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات » [(٤)]. وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ،والحاكم وصححه عن عائشة ؛

---

(١) ذكر الإمام ابن كثير ٤/ ٤٦٥، ٤٤٦ هذا الأثر ونحوه من رواية ابن أبى حاتم وابن جرير وقال : « هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات ، وفى بعضه نكارة ، والله أعلم » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٥٧) .

(٣) أحمد ٣/ ٣٨، ٣٩ وابن حبان (٧٥٢) وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٤ وقال :« رواته حجازيون وشاميون أثبات » ، وقال الذهبى : «صحيح» والبيهقى فى الشعب (٢٣٨٥) ورجاله موثقون غير شيخ الحاكم عبد الله بن إسحاق . قال الدارقطنى : « فيه لين فلعله هو » .

(٤) أحمد ٤/ ١٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٤ووافقه الذهبى .

أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربريا ولا بربرية ، فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « هم الخلف الذين قال اللّه: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ »(١) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ قال : خسرًا . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث من طرق عن ابن مسعود فى قوله: ﴿**فسوف يلقون غيا** ﴾ قال: الغىّ : نهر ، أو واد فى جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم ، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات . وقد قال بأنه واد فى جهنم البراء بن عازب . وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبرانى . وأخرج ابن جرير والطبرانى والبيهقى عن أبى أمامة قال :قال رسول اللّه ﷺ : « لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفًا ، ثم تنتهى إلى غىّ وأثام » ، قلت : وما غىّ وأثام ؟ قال : « نهران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر اللّه فى كتابه : ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾ » [الفرقان : ٦٨] (٢) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « الغى واد فى جهنم » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **بكرة وعشيا** ﴾ قال : يؤتون به فى الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : قال رجل : يا رسول اللّه، هل فى الجنة من ليل ؟ قال : « وما هيجك على هذا؟» قال : سمعت اللّه يذكر فى الكتاب : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ فقلت : الليل من البكرة والعشى ، فقال رسول اللّه ﷺ : «ليس هناك ليل، وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدّو على الرواح والرواح على الغدّو، تأتيهم طرف الهدايا من اللّه لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة». وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات ، إلا (٣) أنه يزف إلى ولى اللّه فيها زوجة من الحور العين وأدناهنّ التى خلقت من الزعفران » قال بعد إخراجه : قال أبو محمد : هذا حديث منكر.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ

---

(١) صحيح الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبى : « عبيد اللّه مختلف فى توثيقه ، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع » وقال ابن كثير : « هذا حديث غريب » .

(٢) ابن جرير ١٦/ ٧٥ والطبرانى (٧٧٣١) وقال ابن كثير ٤/ ٤٧٠ : « هذا حديث غريب ورفعه منكر » .

(٣) فى المطبوعة : « إلى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما نتنزل** ﴾ أى قال اللّه سبحانه : قل يا جبريل : وما نتنزل، وذلك أن رسول اللّه ﷺ استبطأ نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر اللّه [1] قيل : احتبس جبريل عن رسول اللّه ﷺ أربعين يومًا. وقيل : خمسة عشر. وقيل : اثنى عشر. وقيل : ثلاثة أيام . وقيل : إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وأنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان ﴿ **إلا بأمر ربك** ﴾ والأوّل أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين : الأوّل : وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. والثانى : وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك ، والتنزّل : النزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبى ﷺ فقال : ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ أى من الجهات والأماكن ،أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة، وما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه ، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيئته. وقيل : المعنى : له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ، وهو ما بين النفختين . وقيل : الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض . وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التى نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : أن اللّه سبحانه هو المحيط بكل شىء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة ، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، وقال : ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ ولم يقل : وما بين ذينك ، لأن المراد : وما بين ما ذكرنا كما فى قوله سبحانه : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ أى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى : إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئًا . وقيل: المعنى : وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله .

﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى خالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر اللّه نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته** ﴾ والفاء للسببية لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدّى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾

---

(١) الترمذى (٣١٥٨) .

الاستفهام للإنكار. والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه فى العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق اللّه سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبنى على أن المراد بالسمى : هو الشريك فى المسمى . وقيل : المراد به : الشريك فى الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل : المعنى : إنه لم يسم شىء من الأصنام ولا غيرها باللّه قط، يعنى بعد دخول الألف واللام التى عوضت عن الهمزة ولزمت. وقيل : المراد : هل تعلم أحدًا اسمه الرحمن غيره ؟. قال الزجاج : تأويله واللّه أعلم : هل تعلم له سميا يستحق أن يقال له : خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ، وعلى هذا لا سمىّ للّه فى جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمى بشىء من أسمائه، فللّه سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفى العلم المستفاد من الإنكار هنا : نفى المعلوم على أبلغ وجه وأكمله .

﴿ **ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام ، وقرأ ابن ذكوان : « إذا ما مت » على الخبر، والمراد بالإنسان ها هنا : الكافر؛ لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث. وقيل : اللام فى الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض ، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم ، والمراد بقوله : ﴿ **أخرج** ﴾ أى من القبر، والعامل فى الظرف فعل دل عليه أخرج ، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها .﴿ **أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخى ، والواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة قبلها ، والمراد بالذكر هنا : إعمال الفكر ، أى ألا يتفكر هذا الجاحد فى أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هى إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعًا واختراعًا، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾: قبل الحالة التى هو عليها الآن، وجملة: ﴿ **ولم يك شيئا** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئًا من الأشياء أصلا، فإعادته بعد أن كان شيئًا موجودًا أسهل وأيسر . قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبوجعفر وأهل الكوفة إلا عاصمًا : « أو لا يذكر » بالتشديد ، وأصله: يتذكر. وقرأ شيبة ونافع وعاصم وابن عامر «يذكر » بالتخفيف ، وفى قراءة أبى : « أو لا يتذكر » .

ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التى أجمع العقلاء على أنه لم يكن فى حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافًا إلى رسوله تشريفًا له وتعظيمًا، فقال : ﴿ **فوربك لنحشرنهم** ﴾ ومعنى ﴿ **لنحشرنهم** ﴾ لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والواو فى قوله: ﴿ **والشياطين** ﴾ للعطف على المنصوب ، أو بمعنى مع. والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم اللّه مع شياطينهم الذين أغروهم وأضلوهم ، وهذا ظاهر على جعل اللام فى الإنسان للعهد ، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد فى الجنس من يحشر مع شيطانه﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ الجثىّ جمع

جاث، من قولهم :جثا على ركبتيه يجثو جثوا ، وهومنتصب على الحال ، أى جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه:﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ [الجاثية : ٢٨] . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **جثيا** ﴾ : جماعات ، وأصله : جمع جثوة ، والجثوة هى : المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة :

أرى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

﴿ **ثم لننزعن من كل شيعة** ﴾ : الشيعة : الفرقة التى تبعت دينًا من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشرى فقال: هى الطائفة التى شاعت: أى تبعت غاويًا من الغواة قال اللّه تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] . ومعنى : ﴿ **أيهم أشد على الرحمن عتيا** ﴾ من كان أعصى للّه وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغى والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم . والعتى ها هنا مصدركالعتو، وهو التمرّد فى العصيان. وقيل : المعنى : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشرّ. وقد اتفق القراء على قراءة ﴿ **أيهم** ﴾ بالضم إلا هارون الغازى فإنه قرأها بالفتح . قال الزجاج :فى رفع أيهم ثلاثة أقوال : الأوّل : قول الخليل بن أحمد : إنه مرفوع على الحكاية، والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم : أيهم أشد. وأنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر :

وقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له : هو لا حرج ولا محروم. قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق ، يعنى الزجاج، يختار هذا القول ويستحسنه. القول الثانى : قول يونس : وهو أن ﴿**لننزعن** ﴾ بمنزلة الأفعال التى تلغى وتعلق. فهذا الفعل عنده معلق عن العمل فى أى، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه . القول الثالث : قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبنى على الضم ، لأنه خالف أخواته فى الحذف ، وقد غلط سيبويه فى قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج : ما تبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما ، وللنحويين فى إعراب « أيهم » هذه فى هذا الموضع كلام طويل .

﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾ يقال : صلى يصلى صليا مثل مضى الشىء يمضى مضيا. قال الجوهرى : يقال صليت الرجل نارًا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصليته تصلية ومنه : ﴿ ويصلى سعيرا﴾ [الانشقاق :١٢] ومن خفف فهومن قولهم : صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق ، قال اللّه تعالى : ﴿ **الذين هم أولى بها صليا** ﴾ قال العجاج :

واللّه لولا النار أن تصلاها

ومعنى الآية : أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتيا هم أولى بصليها ، أو صليهم أولى بالنار .

﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتا ، أى ما منكم من أحد إلا واردها ، أى واصلها . وقد اختلف الناس فى هذا الورود. قيل : الورود: الدخول ويكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورود هو : المرور على الصراط. وقيل : ليس الورود الدخول إنما هو كما يقول : وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء:١٠١] قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدّل على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : ٢٣] فإن المراد : أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقًا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو : المرور على الصراط، أوالورود على جهنم وهى خامدة فيه، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدًا من عذابهما ، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط ﴿ **كان على ربك حتما مقضيا** ﴾ أى كان ورودهم المذكور أمرًا محتومًا قد قضى سبحانه أنه لابد من وقوعه لا محالة. وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه.

﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ أى اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به. قرأ عاصم والجحدرى ومعاوية بن قرة : « ننجى » بالتخفيف من أنجى، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائى، وقرأ الباقون بالتشديد ، وقرأ ابن أبى ليلى : « ثم نذر » بفتح الثاء من ثم ، والمراد بالظالمين : الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض، والجثى جمع جاث، وقد تقدم قريبًا تفسير الجثى وإعرابه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل :« ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ إلى آخر الآية [١] . وزاد ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وكان ذلك الجواب لمحمد . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ :أى البقاع أحب إلى الله ، وأيها أبغض إلى الله ؟ قال :

(١) البخارى فى التفسير(٤٧٣١) والترمذى فى التفسير (٣١٥٨) وقال: « حديث حسن غريب » .

«ما أدرى حتى أسأل » ، فنزل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه ، فقال : « لقد أبطأت على حتى ظننت أن بربى على موجدة » ، فقال : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل على النبى ﷺ أربعين يومًا ثم نزل، فقال له النبى ﷺ : « ما نزلت حتى اشتقت إليك » ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أشوق ، ولكنى مأمور، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وهو مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ ، ثم أتاه جبريل فقال له : « ما حبسك عنى ؟ » قال : وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستاكون ؟ وقرأ : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وهو مرسل أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **له ما بين أيدينا** ﴾ قال من أمر الآخرة ﴿ **وما خلفنا** ﴾ قال : من أمر الدنيا ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ قال : ما بين الدنيا والآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ قال: ما بين النفختين. وأخرج ابن المنذر عن أبى العالية مثله . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى والبيهقى، والحاكم وصححه عن أبى الدرداء رفع الحديث قال : « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا » ثم تلا : ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ (١) .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ قال : هل تعرف للربّ شبهًا أو مثلا. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عنه :﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره . وأخرج ابن مردويه عنه أيضًا فى الآية قال : يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ويقول الإنسان** ﴾ قال : العاص بن وائل، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جثيا** ﴾ قال : قعودًا، وفى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : معصية. وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : عصيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم لننزعن** ﴾ قال : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم فى الشر. وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود قال : نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا، ثم قرأ : ﴿ **فوربك لنحشرنهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾

---

(١) البيهقى ١٠/ ١٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٥ ووافقه الذهبى .

قال : يقول : إنهم أولى بالخلود في جهنم . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا :يدخلونها جميعًا ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له ، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول :« لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجًا من بردها . ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ » (١) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس ، فقال ابن عباس : الورود : الدخول، وقال نافع : لا، فقرأ ابن عباس : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وقال : وردوا أم لا ؟ وقرأ : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود : ٩٨] أوردوا أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها. وأخرج هناد والطبرانى عنه فى الآية قال: ورودها الصراط. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى وابن الأنبارى وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ: « ليرد الناس كلهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشدّ الرحل . ثم كمشيه » (٢) وقد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ يقول : « مجتاز فيها » .

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية » ، قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قالت : ألم تسمعيه يقول : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ (٣). وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم » ثم قرأ سفيان : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ (٤) . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه، وأبو يعلى والطبرانى وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « من حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعًا لا يأخذه سلطان ؛ لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ **وإن منكم**

---

(١) أحمد ٣/ ٣٢٩ وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٧ عن ابن مسعود ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨ : «رجاله ثقات » والبيهقى فى الشعب (٣٦٤) وقال : « هذا إسناد حسن ذكره البخارى فى التاريخ » .

(٢) أحمد ١/ ٤٣٣ والترمذى فى التفسير (٣١٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب بمعناه موقوفًا ٢/ ٣٥٧ .

(٣) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٦/ ١٦٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨١).

(٤) البخارى فى الجنائز (١٢٥١) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٢/ ١٥٠) وأحمد ٢/ ٢٣٩، ٢٤٠ .

إلا واردها ﴾ »(١) والأحاديث فى تفسير هذه الآية كثيرة جدًا. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حتما مقضيا** ﴾ قال : قضاء من الله. وأخرج الخطيب فى تالى التلخيص عن عكرمة حتمًا مقضيا قال : قسمًا واجبًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ قال : باقين فيها .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾.

الضمير فى ﴿ **عليهم** ﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم فى قوله :﴿ **أئذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ أى هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا، وقالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أطيب من حالنا ، ولم يكن بالعكس ، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه ويعزّ أعداءه ، ومعنى البينات : الواضحات التى لا تلتبس معانيها. وقيل : ظاهرات الإعجاز. وقيل : إنها حجج وبراهين، والأوّل أولى . وهى حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله : ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم . وقيل : المراد بالذين كفروا هنا : هم المتمردون المصرون منهم ، ومعنى قالوا ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ : قالوا لأجلهم. وقيل :هذه اللام هى لام التبليغ كما فى قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ [البقرة : ٢٤٧] أى خاطبوهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ المراد بالفريقين : المؤمنون والكافرون ، كأنهم قالوا : أفريقنا خير أم فريقكم ، قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مقامًا » بضم الميم ، وهو موضع الإقامة ، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإقامة ، قرأ الباقون بالفتح ، أى منزلا ومسكنًا . وقيل : المقام : الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة، والمعنى : أى الفريقين أكبر جاهًا وأكثر أنصارًا وأعوانًا، والندى والنادى : مجلس القوم ومجتمعهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تأتون فى ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت : ٢٩] وناداه : جالسه فى النادى، ومنه

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ وأبو يعلى (١٤٩٠) وإسناده ضعيف ؛ فيه رشدين بن سعد وزبان بن فائد ، والطبرانى ٢٠ / ١٨٥ (٤٠٢) .

دار الندوة ؛ لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم، ومنه أيضًا قول الشاعر :

أنادى به آل الوليد وجعفرا

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ القرن : الأمة والجماعة ﴿ **هم أحسن أثاثا ورئيا** ﴾ الأثاث : المال أجمع ، الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع. وقيل : هو متاع البيت خاصة. وقيل : هو الجديد من الفرش. وقيل : اللباس خاصة. واختلفت القراءات فى : ﴿ **ورئيا** ﴾ ، فقرأ أهل المدينة وابن ذكوان : « وريا » بياء مشدّدة ، وفى ذلك وجهان : أحدهما : أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء فى الياء والمعنى على هذه القراءة : هم أحسن منظرًا وبه قول جمهور المفسرين ، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس ، أو حسن الأبدان وتنعمها ، أو مجموع الأمرين . وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير : « ورئيًا » وحكاها ورش عن نافع وهشام عن ابن عامر، ومعناها معنى بالقراءة الأولى. وقال الجوهرى : من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا ... بذى الرئى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز : إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريًا، أى امتلأت وحسنت. وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى. وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل : إن هذه القراءة غلط ، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالزاى مكان الراء، وروى مثل ذلك عن أبى بن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكى واليزيدى. والزى : الهيئة والحسن. وقيل : ويجوز أن يكون من زويت : أى جمعت، فيكون أصلها : زويا، فقلبت الواو ياء، والزى : محاسن مجموعة .

﴿ **قل من كان فى الضلالة** ﴾ أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية، أى من كان مستقرًا فى الضلالة ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : ٣٧] أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ [آل عمران :١٧٨] وقيل: المراد بالآية : الدعاء بالمد والتنفيس. قال الزجاج : تأويله : أن اللّه جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها ، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول : أفعل ذلك وآمر به نفسى ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون** ﴾ يعنى الذين مد لهم فى الضلالة، وجاء بضمير الجماعة اعتبارًا بمعنى من، كما أن قوله: ﴿ **كان فى الضلالة فليمدد له** ﴾ اعتبار بلفظها،وهذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿ **إما العذاب**

وإما الساعة﴾ هذا تفصيل لقوله : ﴿ **ما يوعدون** ﴾ أى هذا الذى توعدون هو أحد أمرين: إما العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخروى ﴿**فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو جواب على المفتخرين ، أى هؤلاء القائلون : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين ، أو الأخروى ، فسيعلمون عند ذلك من هو شر مكانًا من الفريقين ، وأضعف جندًا منهما ، أي أنصارًا وأعوانًا . والمعنى : أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكانًا لا خير مكانا، وأضعف جندًا لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين؛ وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندًا ضعفاء ، بل لا جند لهم أصلا كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون اللّه وما كان منتصرا ﴾ [الكهف : ٤٣] .

ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال : ﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ وذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير . وقيل : المراد بالزيادة : العبادة من المؤمنين ، والواو فى ﴿ **ويزيد** ﴾ للاستئناف ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين . وقيل : الواو للعطف على ﴿ **فليمدد** ﴾ . وقيل : للعطف على جملة ﴿ **من كان فى الضلالة** ﴾. قال الزجاج : المعنى : أن اللّه يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينًا كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم فى ضلالتهم ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا** ﴾ هى الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيرًا عند اللّه ثوابًا : أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿ **وخير مردا** ﴾ المردّ هاهنا مصدر كالردّ، والمعنى : وخير مردًا للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها، والمردّ : المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلا .

ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال : ﴿**أفرأيت الذى كفر بآياتنا** ﴾ أى أخبرنى بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث أولئك، وإنما استعملوا أرأيت بمعنى أخبر، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية ومن جملتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام، أى أنظرت فرأيت، واللام فى ﴿ **لأوتين مالا وولدا** ﴾ هى الموطئة للقسم، كأنه قال : واللّه لأوتين فى الآخرة مالا وولدًا، أى انظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على اللّه مع كفره به وتكذيبه بآياته .

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال: ﴿ **أطلع** ﴾ على ﴿ **الغيب** ﴾ أى أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين . وقيل : المعنى : أنظر فى اللوح المحفوظ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهدًا ؟ وقيل : معنى ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ : أم قال : لا إله إلا

اللّه فأرحمه بها. وقيل : المعنى : أم قدّم عملا صالحًا فهو يرجوه. واطلع مأخوذ من قولهم : اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش : « وولدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها ، فقيل : هما لغتان معناهما واحد، يقال : ولد وولد كما يقال : عدم وعُدم ، قال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشرًا　　　قد ثمروا مالا وولدًا

وقال آخر :

فليت فلانًا كان فى بطن أمه　　　وليت فلانًا كان ولد حمار

وقيل : الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله : ﴿ **لأوتين مالا وولدا** ﴾ أنه يؤتى ذلك فى الدنيا. وقال جماعة : فى الجنة، وقيل : المعنى : إن أقمت على دين آبائى لأوتين . وقيل : المعنى : لو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدًا .

﴿ **كلا سنكتب ما يقول** ﴾ : « كلا » حرف ردع وزجر، أى ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد ، سيكتب ما يقول : أى سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه فى الآخرة ، أو سنظهر ما يقول ، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ **ونمد له من العذاب مدا** ﴾ أى نزيده عذابًا فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أو نطول له من العذاب ما يستحق وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء . ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ أى نميته فنرثه المال والولد الذى يقول إنه يؤتاه. والمعنى : مسمى ما يقول ومصداقه. وقيل : المعنى نحرمه ما تمناه ونعطيه غيره . ﴿ **ويأتينا فردا** ﴾ أى يوم القيامة لا مال له ولا ولد ،بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع فى أن نؤتيه. وقيل : المراد بما يقول : نفس القول لا مسماه ، والمعنى : إنما يقول هذا القول ما دام حيا ، فإذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خير مقاما** ﴾ قال : المنازل ﴿ **وأحسن نديا** ﴾ قال : المجالس ، وفى قوله : ﴿ **أحسن أثاثا** ﴾ قال : المتاع والمال ﴿ **ورئيا** ﴾ قال : المنظر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ : فليدعه اللّه فى طغيانه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى حرف أبى : « قل من كان فى الضلالة فإنه يزيده اللّه ضلالة » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما فى قوله : ﴿ **أفرأيت الذى كفر** ﴾ من حديث خباب بن

الأرت قال : كنت رجلا قينًا وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت : والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله فيه هذه الآية (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ قال : لا إله إلا الله يرجو بها. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ قال : ماله وولده .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ .

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه، وتألوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل يتعززون بذلك. قال الهروى : معنى ﴿ **ليكونوا لهم عزا** ﴾ : ليكونوا لهم أعوانًا. قال الفراء : معناه : ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة. وقيل : معناه : ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها . ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، والضمير فى الفعل إما للآلهة ، أى ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه ، لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك، وإما للمشركين ، أى سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] وقوله : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ [النحل : ٨٦] ويدل على الوجه الثانى قوله تعالى :﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] وقرأ ابن أبى نهيك : « كلا » بالتنوين ، وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها ، فعلى الضم هى بمعنى جميعًا ، وانتصابها بفعل مضمر ، كأنه قال : سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم ، وعلى الفتح يكون مصدرًا لفعل محذوف تقديره : كل هذا الرأى كلا،

(١) أحمد ٥ / ١١٠ ، ١١١ والبخارى فى التفسير (٤٧٣٢) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٥ / ٣٥) .

وقراءة الجمهور هى الصواب ، وهى حرف ردع وزجر ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أى تكون هذه الآلهة التى ظنوها عزا لهم ضدًا عليهم ، أى ضدا للعز وضد العز : الذّل ، هذا على الوجه الأول . وأما على الوجه الثانى فيكون المشركون للآلهة ضدا وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها.

﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين** ﴾ ذكر الزجاج فى معنى هذا وجهين: أحدهما : أن معناه: خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم [1] منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : ٦٥] الوجه الثانى: أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم قال :﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ﴾ [الزخرف : ٣٦] فمعنى الإرسال ها هنا : التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ [الإسراء:٦٤] ويؤيد الوجه الثانى تمام الآية ، وهو﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ فإن الأز والهز والاستفزاز معناه: التحريك والتهييج والإزعاج ، فأخبر اللّه سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم ، وذلك هو التسليط لها عليهم . وقيل : معنى الأز: الاستعجال ، وهو مقارب لما ذكرنا ؛ لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول اللّه ﷺ من حالهم ، وللتنبيه له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، وجملة :﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام ،كأنه قيل : ماذا تفعل الشياطين بهم ؟

﴿ **فلا تعجل عليهم** ﴾ بأن تطلب من اللّه إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر، وعنادهم للحق ، وتمردهم عن داعى اللّه سبحانه. ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله : ﴿ **إنما نعد لهم عدا**﴾ يعنى نعد الأيام والليالى والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم . وقيل : نعدّ أنفاسهم . وقيل : خطواتهم . وقيل : لحظاتهم . وقيل : الساعات. وقال قطرب : نعد أعمالهم . وقيل : المعنى : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثمًا .

ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر، أى اذكر يا محمد يوم الحشر. وقيل: منصوب بالفعل الذى بعده ، ومعنى حشرهم إلى الرحمن : حشرهم إلى جنته ودار كرامته ، كقوله : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى ﴾ [الصافات:٩٩] والوفد جمع وافد ، كالركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب، يقال : وفد يفد وفدًا إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهرى. ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا** ﴾ السوق : الحث على السير، والورد: العطاش، قاله الأخفش وغيره. وقال الفراء وابن الأعرابى :هم المشاة، وقال الأزهرى : هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء. وقيل: ﴿ **وردا** ﴾ أى للورد، كقولك : جئتك إكرامًا، أى

---

(١) فى المطبوعة : « فلم نعصهم » والصواب ما أثبتناه .

للإكرام. وقيل: أفرادًا. قيل: ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشًا أفرادًا، وأصل الورد: الجماعة التى ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك . والورد : الماء الذى يورد.

وجملة : ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور، والضمير فى ﴿ **يملكون** ﴾ راجع إلى الفريقين. وقيل : للمتقين خاصة. وقيل : للمجرمين خاصة، والأول أولى. ومعنى ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ : أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم. وقيل : لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، والأوّل أولى ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول : أى لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنًا متقيًا، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله. وقيل : معنى اتخاذ العهد : أن الله أمره بذلك كقولهم : عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به . وقيل : معنى اتخاذ العهد : شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل غير ذلك. وعلى الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل « من » فى ﴿ **من اتخذ** ﴾ الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء. وأما على الوجه الثانى: فالاستثناء منقطع ؛ لأن التقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ وهم المسلمون. وقيل هو متصل على هذا الوجه أيضًا، والتقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلمًا .

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ولدًا » بضم الواو وإسكان اللام ، وقرأ الباقون فى المواضع الأربعة المذكورة فى هذه السورة بفتح الواو واللام . وقد قدمنا الفرق بين القراءتين . والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، وفى قوله : ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإد كما قال الجوهرى : الداهية والأمر الفظيع، وكذلك الإدة، وجمع الإدة إدد، يقال : أدت فلانًا الداهية تؤده أدا بالفتح . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى :« أدًا » بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ ابن عباس وأبو العالية : «آدًا » مثل مادا، وهى مأخوذة من الثقل ، يقال : آده الحمل يؤوده : إذا أثقله. قال الواحدى: ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ أى عظيمًا فى قول الجميع ، ومعنى الآية : قلتم قولا عظيمًا. وقيل : الإد : العجب ، والإدة : الشدة ، والمعنى متقارب، والتركيب يدور على الشدة والثقل .

﴿ **يكاد السموات يتفطرن منه** ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص (١) ويحيى بن وثاب « يكاد » بالتحتية، وقرأ الباقون بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص « يتفطرن » بالتاء الفوقية، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل ﴿ **ينفطرن** ﴾ بالتحتية (٢) من الانفطار ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : ١] ،وقوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ [المزمل : ١٨] وقرأ ابن مسعود : « يتصدعن » والانفطار والتفطر : التشقق ﴿**وتنشق الأرض** ﴾ أى وتكاد أن تنشق الأرض ، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق

---

(١) المعروف عن حفص بالتاء.

(٢) كذا والصواب : « بالنون ».

معناهـا واحـد ﴿ وتخر الجبال ﴾ أي تسقط وتنهدم. وانتصاب ﴿ هدا ﴾ على أنه مصدر مؤكد؛ لأن الخرور في معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدّر، أي وتنهد هدا، أو على الحال أي مهدودة ، أو على أنه مفعول له ، أي لأنها تنهد. قال الهروي: يقال : هدني الأمر وهدّ ركني، أي كسرني وبلغ مني. قال الجوهري : هدّ البناء يهدّه هدا كسره وضعضعه، وهدته المصيبة أوهنت ركنه ، وانهد الجبل ،أي انكسر، والهدة: صوت وقع الحائط ، كما قال ابن الأعرابي ، ومحل ﴿ أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ الجرّ بدلا من الضمير في ﴿منه ﴾ وقال الفراء : في محل نصب بمعنى لأن دعوا . وقال الكسائي : هو في محل خفض بتقدير الخافض. وقيل : في محل رفع على أنه فاعل ﴿ هدا ﴾ والدعاء بمعنى التسمية ، أي سموا للرحمن ولدًا، أو بمعنى النسبة أي نسبوا له ولدًا .

﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه ؛ لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث، والجملة في محل نصب على الحال، أي قالوا اتخذ الرحمن ولدًا، أو أن دعوا للرحمن ولدًا، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك. ﴿ إن كل من في السموات والأرض ﴾ أي ما كل من في السموات والأرض ﴿ إلا ﴾ وهو ﴿ آتي ﴾ الله يوم القيامة مقرًا بالعبودية خاضعًا ذليلا كما قال : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ [النمل : ٧٨] أي صاغرين. والمعنى : أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولدًا له؟ وقرئ : « آت » على الأصل. ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي حصرهم وعلم عددهم ﴿ وعدهم عدا ﴾ أي عد أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهـم . ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ أي كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردًا لا ناصر له ولا مال معه، كما قال سبحانه :﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ [الشعراء: ٨٨] .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ويكونون عليهم ضدا ﴾ قال أعوانًا. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ ضدا ﴾ قال : حسرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضًا قال : ﴿ تؤزهم أزا ﴾ : تغويهم إغواء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿تؤزهم أزا ﴾ قال : تحرّض المشركين على محمد وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال :تزعجهم إزعاجًا إلى معاصي الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس : ﴿ وفدا ﴾ قال : ركبانًا. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة ﴿ وفدا ﴾ قال : على الإبل . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا» (١) والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا.

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٢٢) ومسلم في الجنة (٢٨٦١/٥٩) والنسائي في الجنائز ٤/١١٤.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس: ﴿ وردا﴾ قال : عطاشًا. وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوّة ، ولا يرجو إلا الله. وأخرج ابن مردويه عنه فى الآية قال : من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ :﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : إن الله يقول يوم القيامة : من كان له عندى عهد فليقم ، فلا يقوم إلا من قال هذا فى الدنيا، قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عملى تقربنى من الشرّ وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لى عندك عهدًا تؤديه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على مؤمن سرورًا فقد سرنى، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدًا، ومن اتخذ عند الرحمن عهدًا فلا تمسه النار، إن الله لا يخلف الميعاد ». وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ :« من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئًا جاء وله عند الله عهد ألا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئًا فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » (١).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ قال : قولا عظيمًا، وفى قوله : ﴿ **يكاد السموات** ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك يرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وفى قوله: ﴿ **وتخر الجبال هدا** ﴾ قال : هدمًا. وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة، وأحمد فى الزهد، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى والبيهقى فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادى الجبل باسمه ، يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر الله ؟ فإذا قال : نعم ، استبشر . قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير؟ هن للخير أسمع ، وقرأ : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ الآيات .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ .

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٩٧، ٢٩٨: « رواه الطبرانى فى الأوسط وقال : لم يروه عن محمد بن عمرو إلا عيسى بن واقد ، قلت : ولم أجد من ذكره »، والحديث عن عائشة .

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ أى حبًا فى قلوب عباده، يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التى توجب ذلك، كما يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب ، والسين فى : ﴿ **سيجعل** ﴾ للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية. وقرئ :« ودًا » بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصًا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾ أى يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿ **فإنما يسرناه**﴾ الآية . ثم علل ما ذكره من التيسير فقال : ﴿ **لتبشر به المتقين** ﴾ أى المتلبسين بالتقوى ، المتصفين بها ﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ اللد :جمع الألد ،وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **ألد الخصام** ﴾ [البقرة : ٢٠٤] قال الشاعر :

أبيت نجيًا للهموم كأننى ... أخاصم أقوامًا ذوى جدل لدًا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدّعى الباطل. وقيل: اللد : الصم . وقيل : الظلمة. ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس، وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين ووعيد لهم ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، أى هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿ **أو تسمع لهم ركزا** ﴾ الركز : الصوت الخفى، ومنه ركز الرمح : إذا غيب طرفه فى الأرض . قال طرفة :

وصادفتها سمع التوجس للسرى ... لركز خفى أو لصوت مفند

وقال ذو الرمة :

إذا توجس ركزًا مقفر ندس ... بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى فى استماعه كذب بل هو صادق الاستماع، والندس : الحاذق ، والنبأة : الصوت الخفى.

وقال اليزيدى وأبو عبيدة : الركز : ما لا يفهم من صوت أو حركة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أنه لما هاجر إلى المدينة وجد فى نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ الآية (١). قال ابن كثير : وهو خطأ، فإن السورة مكية بكمالها لم ينزل شىء منها بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى على بن أبى طالب: ﴿ **إن الذين آمنوا**

(١) ابن جرير ١٦/١٠١.

وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ قال : محبة فى قلوب المؤمنين [١]. وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « قل : اللهم اجعل لى عندك عهدًا ، واجعل لى عندك ودًا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » ، فأنزل الله الآية فى علىّ [٢] . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ﴿ **ودا** ﴾ قال: محبة فى الناس فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى وابن مردويه عن على قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ ما هو ؟ قال : « المحبة الصادقة فى صدور المؤمنين » . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل : إنى قد أحببت فلانًا فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ وإذا أبغض الله عبدًا نادى جبريل إنى قد أبغضت فلانًا، فينادى فى أهل السماء ، ثم ينزل له البغضاء فى الأرض » [٣]. والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ قال : فجارًا. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : صمًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ قال : هل ترى منهم من أحد. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ركزا** ﴾ قال : صوتًا.

---

(١) الطبرانى (١٢٦٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨، ٥٩ : « فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف » .
(٢) الديلمى (١٩٣٢) .
(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٧/ ١٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٦١) وقال : «حديث حسن صحيح » .

تفسير سورة طــه

هى مكية . وآياتها مائة وخمس وثلاثون آية . قال القرطبى : مكية فى قول الجميع . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة طه بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الدارمى ، وابن خزيمة فى التوحيد ، والعقيلى فى الضعفاء ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن عدىّ وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تكلمت بهذا »[١] . قال ابن خزيمة بعد إخراجه : حديث غريب ، وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما ، يعنى إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان وهما من رجال إسناده . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت السورة التى ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأوّل ، وأعطيت سورة طه والطواسين من ألواح موسى،وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة » . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئاً إلا سورة طه ويس ، فإنهم يقرؤون بهما فى الجنة». وأخرج الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك ، فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه ، وكان ذلك سبب إسلام عمر ، والقصة مشهورة فى كتب السير[٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ④ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ⑧ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ⑨ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⑩ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ⑪ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ

---

(١) الدارمى ٢/ ٤٥٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٩ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار وضعفه البخارى بهذا الحديث ووثقه ابن معين » والبيهقى فى الشعب (٢٢٢٥) وإسناده ضعيف .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٦٩ ــ ٣٧٦ .

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾.

قوله : ﴿ طه ﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبى إسحاق ، وأمالهما جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ الباقون بالتفخيم . قال الثعلبى : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . وقال النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : الأولى : أنه ليس هاهنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة . والعلة الثانية : أن الطاء من موانع الإمالة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الكلمة على أقوال : الأول : أنها من المتشابه الذى لا يفهم المراد به . والثانى: أنها بمعنى: يا رجل فى لغة عكل ، وفى لغة عك. قال الكلبى : لو قلت لرجل من عك : يا رجل ، لم يجب حتى تقول : طه، وأنشد ابن جرير فى ذلك :

دعوت بطه فى القتال فلم يجب فخفت عليه أن يكون موائلاً

ويروى مزايلاً . وقيل : إنها فى لغة عكّ بمعنى : يا حبيبى . وقال قطرب :هى كذلك فى لغة طىّ أى بمعنى : يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة . وقيل : هى كذلك فى اللغة السريانية ، حكاه المهدوى . وحكى ابن جرير أنها كذلك فى اللغة النبطية ، وبه قال السدّى وسعيد بن جبير . وحكى الثعلبى : عن عكرمة أنها كذلك فى لغة الحبشة ، ورواه عن عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى فى تلك اللغات كلها إذا صح النقل . القول الثالث : أنها اسم من أسماء الله سبحانه . والقول الرابع : أنها اسم للنبى ﷺ . القول الخامس : أنها اسم للسورة . القول السادس : أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى . ثم اختلفوا فى هذه المعانى التى تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة . القول السابع : أن معناها : طوبى لمن اهتدى . القول الثامن : أن معناها طأ الأرض يا محمد . قال ابن الأنبارى : وذلك أن النبى ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى التروح ، فقيل له : طأ الأرض ، أى لا تتعب حتى تحتاج إلى التروّح . وحكى القاضى عياض فى الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ يعنى : طأ الأرض يا محمد ، وحكى عن الحسن البصرى أنه قرأ : «طه» على وزن دع،أمر بالوطء ، والأصل : طأ ، فقلبت الهمزة هاء. وقد حكى الواحدى عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل ، يريد النبى ﷺ، قال : وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحّاك وقتادة ومجاهد وابن عباس فى رواية عطاء والكلبى غير أن بعضهم يقول : هى بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ، ويقول الكلبى : هى بلغة عك . قال ابن الأنبارى : ولغة قريش وافقت تلك اللغة فى هذا المعنى ؛ لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش . انتهى .

وإذا تقرر أنها لهذا المعنى فى لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التى قدّمنا بيان كونها من المتشابه فى فاتحة سورة البقرة ، وهكذا إذا كانت لهذا المعنى فى لغة من لغات العجم واستعملتها العرب فى كلامها فى ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التى استعملتها العرب الموجودة فى الكتاب العزيز ، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب .

وجملة : ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب ، والشقاء يجىء فى معنى التعب . قال ابن كيسان : وأصل الشقاء فى اللغة : العناء والتعب ، ومنه قول الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ، فهو كقوله سبحانه: ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ [الكهف: ٦] . قال النحاس : بعض النحويين يقول : هذه اللام فى :﴿ **لتشقى** ﴾ لام النفى ، وبعضهم يقول : لام الجحود . وقال ابن كيسان : هى لام الخفض ، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال : إن طه كسائر فواتح السور التى ذكرت تعديداً لأسماء الحروف ، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله : ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ خبراً عنها ، وهى فى موضع المبتدأ ، وأما على قول من قال : إن معناها : يا رجل ، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض ، فتكون الجملة مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة فى العبادة .

وانتصاب ﴿ **إلا تذكرة** ﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا ، كقولك :ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً عليك . وقال الزجاج: هو بدل من لتشقى ، أى ما أنزلناه إلا تذكرة . وأنكره أبو على الفارسى من جهة أن التذكرة ليست بشقاء ، قال : وإنما هو منصوب على المصدرية ، أى أنزلناه لتذكر به تذكرة ، أو على المفعول من أجله ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ، ما أنزلناه إلا للتذكرة .

وانتصاب ﴿ **تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى** ﴾ على المصدرية ، أى أنزلناه تنزيلاً. وقيل : بدل من قوله: ﴿ **تذكرة** ﴾ .وقيل : هو منصوب على المدح . وقيل : منصوب بـ﴿**يخشى** ﴾ أى يخشى تنزيلاً من الله على أنه مفعول به . وقيل : منصوب على الحال بتأويله باسم الفاعل . وقرأ أبو حيوة الشامى : « تنزيل » بالرفع على معنى هذا تنزيل، و﴿ **ممن خلق**﴾ متعلق بـ﴿ **تنزيلا** ﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له ، وتخصيص خلق الأرض والسموات ؛ لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عزّ وجلّ ، والعلى : جمع العليا ، أى المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر . ومعنى الآية : إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله .

وارتفاع ﴿ **الرحمن** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش ، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء . وقرئ بالجر ، قال الزجاج : على البدل ممن ، وجوز النحاس أن يكون مرتفعا على البدل من المضمر فى خلق ، وجملة : ﴿ **على العرش استوى** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ . قال أحمد بن يحيى ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء . وقيل: هو كناية عن الملك والسلطان ، والبحث فى تحقيق هذا يطول ، وقد تقدم البحث عنه فى الأعراف . والذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى: أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ ولا كيف ، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذى يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل .

﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ أى أنه مالك كل شيء ومدبره ﴿ **وما بينهما** ﴾ من الموجودات ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ الثرى فى اللغة : التراب الندىّ ،أى ما تحت التراب من شيء. قال الواحدى : والمفسرون يقولون : إنه سبحانه أراد الثرى الذى تحت الصخرة التى عليها الثور الذى تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه . ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى** ﴾ الجهر بالقول: هو رفع الصوت به ، والسرّ : ما حدث به الإنسان غيره وأسره إليه ، والأخفى من السر : هو ما حدث به الإنسان نفسه وأخطره بباله . والمعنى : إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنى عن ذلك ، فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول ، وفى هذا معنى النهى عن الجهر ، كقوله سبحانه : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرّعا وخيفة ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]. وقيل : السر : ما أسر الإنسان فى نفسه ، والأخفى منه : هو ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه . وقيل : السر : ما أضمره الإنسان فى نفسه ، والأخفى منه : ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقيل السرّ : سر الخلائق ، والأخفى منه : سرّ الله عزّ وجلّ ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال : إن الأخفى : ما ليس فى سرّ الإنسان وسيكون فى نفسه .

ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى، فقال : ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ فالله خبر مبتدأ محذوف ، أى الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله ، وجملة : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه ، أى لا إله فى الوجود إلا هو ، وهكذا جملة :﴿ **له الأسماء الحسنى** ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى ، وهى التسعة والتسعون التى ورد بها الحديث الصحيح . وقد تقدم بيانها فى قوله سبحانه:﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ من سورة الأعراف [الآية :١٨٠] . والحسنى تأنيث الأحسن ، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنى . ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التى بعده ،ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير فى يعلم.

ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال : ﴿ **وهل أتاك حديث موسى** ﴾ الاستفهام للتقرير ، ومعناه : أليس قد أتاك حديث موسى . وقيل : معناه : قد أتاك حديث موسى . وقال الكلبى : لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك . وفى سياق هذه القصة تسلية للنبى ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة ، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها ، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله. والمراد بالحديث : القصة الواقعة لموسى ، و﴿ **إذ رأى نارا** ﴾ ظرف للحديث . وقيل : العامل فيه مقدر ، أى اذكر . وقيل : يقدر مؤخراً ، أى حين رأى ناراً كان كيت وكيت ، وكانت رؤيته للنار فى ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استئذانه لشعيب ، فلما رآها ﴿ **قال لأهله امكثوا** ﴾ والمراد بالأهل هنا : امرأته ، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم . وقيل : المراد بهم : المرأة والولد والخادم ، ومعنى ﴿ **امكثوا** ﴾ : أقيموا مكانكم ، وعبر بالمكث دون الإقامة ؛ لأن الإقامة تقتضى الدوام، والمكث ليس كذلك . وقرأ حمزة : « لأهله » بضم الهاء ، وكذا فى القصص . قال النحاس : وهذا على لغة من قال : مررت بهو يا رجل ، فجاء به على الأصل وهو جائز ، إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة .

﴿ **إنى آنست نارا** ﴾ أى أبصرت ، يقال : آنست الصوت : سمعته ، وآنست الرجل : أبصرته . وقيل : الإيناس : الإبصار البين . وقيل : الإيناس مختص بإبصار ما يؤنس . والجملة تعليل للأمر بالمكث ، ولما كان الإتيان بالقبس ، ووجود الهدى متوقعين بنى الأمر على الرجاء ، فقال : ﴿ **لعلى آتيكم منها بقبس** ﴾ أى أجيئكم من النار بقبس . والقبس : شعلة من النار ، وكذا المقباس ، يقال : قبست منه أقبس ناراً قبساً فأقبسنى ، أى أعطانى وكذا اقتبست. قال اليزيدى : أقبست الرجل علماً وقبسته ناراً ، فإن كنت طلبتها له قلت : أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته ناراً وعلماً سواء ، قال : وقبسته أيضاً فيهما . ﴿ **أو أجد على النار هدى** ﴾ أى هادياً يهدينى إلى الطريق ويدلنى عليها . قال الفراء : أراد هادياً ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر ؛ لقصد المبالغة على حذف المضاف ، أى ذا هدى ، وكلمة :« أو » فى الموضعين لمنع الخلو دون الجمع ، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها .

﴿ **فلما أتاها نودى** ﴾ أى فلما أتى النار التى آنسها ﴿ **نودى** ﴾ من الشجرة ، كما هو مصرّح بذلك فى سورة القصص ، أى من جهتها ، ومن ناحيتها ﴿ **يا موسى . إنى أنا ربك** ﴾ أى نودى ، فقيل : يا موسى . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبوجعفر وابن محيصن وحميد واليزيدى : « أنى » بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بكسرها ، أى بأنى . ﴿ **فاخلع نعليك** ﴾ أمره الله سبحانه بخلع نعليه ؛ لأن ذلك أبلغ فى التواضع ، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب . وقيل : إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ . وقيل : معنى الخلع للنعلين : تفريغ القلب من الأهل والمال ، وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال ، ﴿ **إنك**

بالواد المقدس طوى ﴾ المقدس :المطهر . والقدس : الطهارة . والأرض المقدسة: المطهرة . سميت بذلك ؛ لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ، و ﴿ طوى ﴾ اسم للوادى . قال الجوهرى : وطوى : اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ، يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، وقرأ عكرمة : « طوى » بكسر الطاء ، وقرأ الباقون بضمها . وقيل : إن طوى كثنى من الطى مصدر لنودى ، أو للمقدس ، أى نودى نداءين ، أو قدس مرة بعد أخرى .

﴿ وأنا اخترتك ﴾ قرأ أهل المدينة ، وأهل مكة وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ بالإفراد. وقرأ حمزة : « وإنا اخترناك » بالجمع . قال النحاس : والقراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما: أنها أشبه بالخط، والثانية: أنها أولى بنسق الكلام لقوله : ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾ ومعنى ﴿ اخترتك ﴾: اصطفيتك للنبوة والرسالة ،والفاء فى قوله : ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها و« ما » موصولة أو مصدرية ، أى فاستمع للذى يوحى إليك ، أو للوحى ، وجملة: ﴿ إننى أنا الله ﴾ بدل من ما فى: ﴿ لما يوحى ﴾ . ثم أمره سبحانه بالعبادة، فقال : ﴿ فاعبدنى ﴾ والفاء هنا كالفاء التى قبلها ؛لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ، ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ خص الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة ؛ لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة ، وعلل الأمر بإقامة الصلاة لقوله : ﴿لذكرى ﴾ أى لتذكرنى فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو المعنى : لتذكرنى فيهما لاشتمالهما على الأذكار، أو المعنى : أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة . وقيل : المعنى : لأذكرك بالمدح فى عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول .

وجملة : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ تعليل ما قبلها من الأمر ، أى إن الساعة التى هى وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة .

ومعنى ﴿ أكاد أخفيها ﴾ : مختلف فيه . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسى ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشىء : كتمته حتى من نفسى ، أى لم أطلع عليه أحداً ؛ ومعنى الآية : أن الله بالغ فى إخفاء الساعة ، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب . وقد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ : « أخفيها » بفتح الهمزة ، ومعناه : أظهرها . وكذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير . قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا . قال القرطبى : وكذا رواه ابن الأنبارى فى كتاب الردّ قال : حدّثنى أبى ، حدثنا محمد بن الجهم ، حدّثنا الفراء حدّثنا الكسائى فذكره . قال النحاس : وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ :﴿ أخفيها ﴾ بضم الهمزة . قال ابن الأنبارى : قال الفراء : ومعنى قراءة الفتح:

أكاد أظهرها ، من خفيت الشيء: إذا أظهرته أخفيه . قال القرطبي: وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون : ﴿ أخفيها ﴾ بضم الألف معناه : أظهرها ؛ لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد . قال النحاس : وهذا حسن ، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر ، وذلك قول امرئ القيس :

فإن تكتموا الداء لا نخفه　　　وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أى وإن تكتموا الداء لا نظهره. وقد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من نخفه ، وقال امرؤ القيس :

خفاهن من أنفاقهن كأنما　　　خفاهن ودق من عَشىّ مُجَلِّب

أى أظهرهن . وقد زيف النحاس هذا القول وقال : ليس المعنى : على أظهرها ، ولاسيما و« أخفيها » قراءة شاذة ، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة . وقال ابن الأنبارى : فى الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على : ﴿ أكاد ﴾ وبعده مضمر ، أى أكاد آتى بها ، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمى (١):

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى　　　تركت على عثمان تبكى حلائله

أى وكدت أفعل . واختار هذا النحاس . وقال أبو علىّ الفارسى : هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها : أزيل عنها خفاءها ، وهو سترها ، ومن هذا قولهم : أشكيته ، أى أزلت شكواه . وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن ﴿ أكاد ﴾ زائدة للتأكيد ، قال: ومثله : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ [النور : ٤٠] ، ومثله قول الشاعر :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه　　　فمـا إن يكـاد قـرنه يتنفس

قال : والمعنى : أكاد أخفيها ؛ أى أقارب ذلك ، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم ، جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا. وقوله: ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآتية ، أو بأخفيها، و« ما » مصدرية ، أى لتجزى كل نفس بسعيها . والسعى وإن كان ظاهراً فى الأفعال، فهو هنا يعم الأفعال والتروك؛ للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به . ﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ، والتصديق بها ، أو عن ذكرها ومراقبتها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ من الكفرة ، وهذا النهى وإن كان للكافر بحسب الظاهر ، فهو فى الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد ، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، كما هو معروف . وقيل : الضمير فى : ﴿ عنها ﴾ للصلاة وهو بعيد ، وقوله:﴿ واتبع هواه ﴾ معطوف على ما قبله ، أى من لا يؤمن ، ومن اتبع هواه: أى هوى نفسه بالانهماك فى اللذات الحسية الفانية ﴿ فتردى ﴾ أى

---

(١) هذا خطأ ، فالبيت لأبيه ضابئ بلا خلاف .

فتهلك ؛ لأن انصدادك عنها بصدّ الكفارين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له .

وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ : أول ما نزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿**طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾ (١) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : قالوا : لقد شقى هذا الرجل بربه ، فأنزل الله هذه الآية (٢). وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج البزار عن علىّ قال : كان النبى ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت :﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ وحسن السيوطى إسناده. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل الله : ﴿ **طه** ﴾ برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه فى قوله: ﴿ **طه** ﴾ قال : يا رجل . وأخرج الحارث ابن أبى أسامة وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **طه** ﴾ بالنبطية ، أى طأ يا رجل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : هو كقولك : اقعد . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : ﴿ **طه** ﴾ بالنبطية : يا رجل . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ **طه** ﴾ : يا رجل بالسريانية . وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال : ﴿ **طه** ﴾ هو كقولك : يا محمد بلسان الحبش . وفى هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتدافع . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى عند ربى عشرة أسماء»، قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية: محمد ، وأحمد ، وأبو القاسم ،والفاتح ، والخاتم ،والماحى، والعاقب ، والحاشر. وزعم سيف أن أبا جعفر قال له : الاسمان الباقيان طه ويس . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ قال : يا رجل ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وكان يقوم الليل على رجليه فهى لغة لعك إن قلت لعكى : يا رجل ، لم يلتفت، وإذا قلت : طه ، التفت إليك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ **طه** ﴾ قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ قال : الثرى : كل شيء مبتل . وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبى ﷺ سئل ما تحت هذه الأرض ؟ قال « الماء » قيل : فما تحت الماء ؟ قال : « ظلمة » قيل : فما تحت الظلمة؟ قال : « الهواء » قيل : فما تحت الهواء ؟ قال : « الثرى » قيل : فما تحت الثرى ؟ قال : « انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق» . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: و﴿ **يعلم السر وأخفى** ﴾ قال: السر :

---

(١) البيهقى فى الشعب (١٤١٦) وإسناده ضعيف ؛ لضعف محمد بن زياد اليشكرى .

(٢) ابن جرير ١٦/ ١٠٢ .

ما أسره ابن آدم فى نفسه ، وأخفى : ما خفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله ، فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد وجميع الخلائق عنده فى ذلك كنفس واحدة وهو كقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان : ٢٨] . وأخرج الحاكم وصححه عنه فى الآية قال : السرّ : ما علمته أنت ، وأخفى : ما قذف الله فى قلبك مما لم تعلمه . وأخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى بلفظ : يعلم ما تسرّ فى نفسك ويعلم ما تعمل غداً.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ يقول : من يدل على الطريق . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله : ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال : كانتا من جلد حمار ميت فقيل له : اخلعهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ قال المبارك ﴿طوى﴾ قال : اسم الوادى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ بالواد المقدس طوى ﴾ يعنى : الأرض المقدسة ، وذلك أنه مرّ بواديها ليلاً فطوى : يقال : طويت وادى كذا وكذا . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً فى قوله : ﴿ طوى ﴾ قال : طأ الوادى .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكرى﴾ » (١). وأخرج الترمذى وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿أقم الصلاة لذكرى ﴾ » (٢) وكان ابن شهاب يقرؤها : « للذكرى » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ أكاد أخفيها﴾ من نفسى .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي

---

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٩٧) ومسلم فى المساجد (٦٨٤/ ٣١٦) وأحمد ٣/ ١٨٤ .

(٢) الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٦٣) بمعناه ، وابن ماجة فى الصلاة (٦٩٧) وابن حبان (٢٦٤٢ ، ٢٦٤٣) بمعناه .

وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾ قال الزجاج والفراء : إن ﴿ **تلك** ﴾ اسم ناقص وصلت ﴿ **بيمينك** ﴾ أى ما التى بيمينك ؟ وروى عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ، ولو قال : ما ذلك لجاز ، أى ما ذلك الشىء ؟ وبالأوّل قال الكوفيون . قال الزجاج : ومعنى سؤال موسى عما فى يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها . قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هى عصاى لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هى فى الأزل ، ومحل: « ما » الرفع على الابتداء ، و﴿ **تلك** ﴾ خبره ، و﴿ **بيمينك** ﴾ فى محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ ، وإن كانت اسماً موصولاً كان ﴿ **بيمينك** ﴾ صلة للموصول .

﴿ **قال هى عصاى** ﴾ قرأ ابن أبى إسحاق : « عصى » على لغة هذيل. وقرأ الحسن : «عصاى » بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ﴿ **أتوكأ عليها** ﴾ أى أتحامل عليها فى المشى وأعتمدها عند الإعياء والوقوف ، ومنه الاتكاء . ﴿ **وأهش بها على غنمى** ﴾ هش بالعصا يهش هشاً : إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق . قال الشاعر :

أهش بالعصا على أغنامى ... من ناعم الأراك والبشام

وقرأ النخعى : « أهس » بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة . وقيل : هما لغتان لمعنى واحد ﴿ **ولى فيها مآرب أخرى** ﴾ أى حوائج ، واحدها مأربة ومَأْرَبَة ومَأْرُبُة مثلث الراء ، كذا قال ابن الأعرابى وقطرب ، ذكر تفصيل منافع العصا ، ثم عقبه بالإجمال .

وقد تعرّض قوم لتعداد منافع العصى ، فذكروا من ذلك أشياء منها قول بعض العرب : عصاى أركزها لصلاتى ، وأعدها لعداتى ، وأسوق بها دابتى ، وأقوى بها على سفرى ، وأعتمد بها فى مشيتى ، ليتسع خطوى ، وأثب بها النهر ، وتؤمننى العثر ، وألقى عليها كسائى ، فتقينى الحرّ ، وتدفينى من القرّ ، وتدنى إلىّ ما بعد منى ، وهى تحمل سفرتى ، وعلاقة إداوتى ، أعصى بها عند الضراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأقى بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح فى الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبى وأورثها بعدى بنىّ . انتهى .

وقد وقفت على مصنف فى مجلد لطيف فى منافع العصا لبعض المتأخرين ، وذكر فيه أخبارا وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتا رشيقة . وقد جمع الله سبحانه لموسى فى عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبى ﷺ وعنزته ، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند

الكلام ، وفى المحافل والخطب .

﴿ **قال ألقها يا موسى** ﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿ **فألقاها** ﴾ موسى على الأرض ﴿ **فإذا هى حية تسعى** ﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى،أى تمشى بسرعة وخفة . قيل : كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وباقيها جسم حية ، تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها ، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب ، فعند ذلك ﴿ **قال** ﴾ سبحانه : ﴿ **خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ قال الأخفش والزجاج : التقدير : إلى سيرتها ، مثل : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف:١٥٥] قال : ويجوز أن يكون مصدراً ؛ لأن معنى سنعيدها : سنسيرها ، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أى سائرة ، أو بمعنى اسم المفعول ، أى مسيرة . والمعنى: سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التى هى العصوية . قيل : إنه لما قيل له : ﴿ **لا تخف** ﴾ بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحيها .

﴿ **واضمم يدك إلى جناحك** ﴾ قال الفراء والزجاج : جناح الإنسان : عضده ، وقال قطرب : جناح الإنسان :جنبه، وعبر عن الجنب بالجناح ؛ لأنه فى محل الجناح ، وقيل : إلى بمعنى مع ، أى مع جناحك ، وجواب الأمر ﴿ **تخرج بيضاء** ﴾ أى تخرج يدك حال كونها بيضاء ، ومحل ﴿ **من غير سوء** ﴾ النصب على الحال ، أى كائنة من غير سوء . والسوء : العيب ، كنى به عن البرص، أى تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضىء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص . وانتصاب ﴿ **آية أخرى** ﴾ على الحال أيضاً ، أى معجزة أخرى غير العصا . وقال الأخفش : إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء . قال النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى : آتيناك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال : ﴿ **تخرج بيضاء** ﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿ **لنريك من آياتنا الكبرى** ﴾ قيل: والتقدير : فعلنا ذلك لنريك، و﴿ **من آياتنا** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، و﴿**الكبرى**﴾ معناها : العظمى ، وهو صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : لنريك من آياتنا الآية الكبرى ، أى لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى ، فلا يلزم أن تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن فى اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا ، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة .

ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات ، فقال : ﴿ **اذهب إلى فرعون** ﴾ وخصه بالذكر ؛ لأن قومه تبع له ، ثم علل ذلك بقوله :﴿ **إنه طغى** ﴾ أى عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحدّ ، وجملة :﴿ **قال رب اشرح لى صدرى** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال ؟ ومعنى شرح الصدر : توسيعه ، تضرّع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه

بقوله : ﴿ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ [الشعراء: ١٣] ومعنى تيسير الأمر :تسهيله. ﴿ **واحلل عقدة من لسانى** ﴾ يعنى العجمة التى كانت فيه من الجمرة التى ألقاها فى فيه وهو طفل ، أى أطلق عن لسانى العقدة التى فيه ، قيل : أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ وقيل : لم تذهب كلها؛ لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بدليل قوله : ﴿ **من لسانى** ﴾ أى كائنة من عقد لسانى ، ويؤيد ذلك قوله :﴿ هو أفصح منى لسانا ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقوله حكاية عن فرعون :﴿ ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، وجواب الأمر قوله : ﴿ **يفقهوا قولى** ﴾ أى يفهموا كلامى ، والفقه فى كلام العرب : الفهم ، ثم خص به علم الشريعة والعالم به فقيه ، قاله الجوهرى .

﴿ **واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى** ﴾ الوزير : الموازر ، كالأكيل المواكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره ، أى ثقله . قال الزجاج : واشتقاقه فى اللغة من الوزر ، وهو الجبل الذى يعتصم به لينج من الهلكة . والوزير : الذى يعتمد الملك على رأيه فى الأمور ويلتجئ إليه . وقال الأصمعى : هو مشتق من الموازرة ، وهى المعاونة . وانتصاب ﴿ **وزيرا** ﴾ و﴿**هارون** ﴾ على أنهما مفعولا اجعل ، وقيل : مفعولاه : لى وزيراً ، ويكون هارون عطف بيان للوزير ، والأوّل أظهر ، ويكون لى متعلقاً بمحذوف ، أى كائناً لى ، و﴿ **من أهلى** ﴾ صفة لـ ﴿ **وزيرا** ﴾ ، وأخى بدل من هارون . قرأ الجمهور : ﴿ **اشدد** ﴾ بهمزة وصل ، و﴿**أشركه** ﴾ بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء ، أى يا رب أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، والأزر : القوة ، يقال : آزره ، أى قواه . وقيل : الظهر ، أى أشدد به ظهرى . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبى إسحاق : «أشدد » بهمزة قطع « وأشركه » بضم الهمزة ، أى أشدد أنا به أزرى وأشركه أنا فى أمرى . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جواباً لقوله : ﴿ **اجعل لى وزيرا** ﴾ ، وقرأ بفتح الياء من : « أخى » ابن كثير وأبو عمرو .

﴿ **كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيرا** ﴾ هذا التسبيح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدم . والمراد التسبيح هنا باللسان . وقيل : المراد به : الصلاة ، وانتصاب ﴿ **كثيرا** ﴾ فى الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف ، أو لزمان محذوف ﴿ **إنك كنت بنا بصيرا** ﴾ البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور ، وهو المراد هنا ، أى إنك كنت بنا عالماً فى صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى عصا موسى قال : أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضىء له بالليل ، ويضرب بها الأرض فتخرج له النبات ، ويهش بها على غنمه ورق الشجر. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وأهش بها على غنمى** ﴾ قال : أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمى ، وقد روى

نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**ولى فيها مآرب**﴾ قال : حوائج . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج أيضاً عن قتادة قال: كانت تضىء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فألقاها فإذا هى حية تسعى** ﴾ قال : ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبراً ، فنودى أن يا موسى خذها ، فلم يأخذها ، ثم نودى الثانية : أن خذها ولا تخف ، فقيل له فى الثالثة : إنك من الآمنين فأخذها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ قال : حالتها الأولى . وأخرجا عنه أيضاً : ﴿**من غير سوء** ﴾ قال : من غير برص . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:﴿ **واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى** ﴾ قال :كان أكبر من موسى. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وأشركه فى أمرى** ﴾ قال نبئ هارون ساعتئذٍ حين نبئ موسى .

﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)** ﴾.

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ويجعل له وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء ، فقال : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ أى أعطيت ما سألته ، والسؤل : المسؤول ، أى المطلوب ، كقولك : خبر بمعنى مخبور ، وزيادة قوله : ﴿ **يا موسى** ﴾ لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل ، وجملة : ﴿ **ولقد مننا عليك مرة أخرى** ﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه ، والمنّ : الإحسان والإفضال ، والمعنى : ولقد أحسنا إليك مرّة أخرى قبل هذه المرّة ، وهى حفظ الله سبحانه له من شرّ الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا ، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير .

﴿ **إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى** ﴾ أى مننا ذلك الوقت وهو وقت الإيحاء ، فإذ ظرف للإيحاء ، والمراد بالإيحاء إليها : إما مجرد الإلهام لها ، أو فى النوم بأن أراها ذلك ، أو على

لسان نبى ، أو على لسان ملك ، لا على طريق النبوة كالوحى إلى مريم ، أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها ، والمراد بـ ﴿ **ما يوحى** ﴾ : ما سيأتى من الأمر لها، أبهمه أولاً ، وفسره ثانياً ؛ تفخيماً لشأنه ، وجملة : ﴿ **أن اقذفيه فى التابوت** ﴾ مفسرة ؛ لأن الوحى فيه معنى القول ، أو مصدرية على تقدير بأن اقذفيه ، والقذف ها هنا : الطرح ، أى اطرحيه فى التابوت وقد مرّ تفسير التابوت فى البقرة فى قصة طالوت ﴿ **فاقذفيه فى اليم** ﴾ أى اطرحيه فى البحر ، واليم : البحر أو النهر الكبير . قال الفراء : هذا أمر وفيه المجازاة ، أى اقذفيه يلقه اليم بالساحل ، والأمر للبحر مبنى على تنزيله منزلة من يفهم ويميز ، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع . والساحل : هو شط البحر ، سمى ساحلاً ؛ لأن الماء سحله ، قاله ابن دريد . والمراد هنا : ما يلى الساحل من البحر لا نفس الساحل ، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت ، وإن كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له . وجملة : ﴿ **يأخذه عدو لى وعدو له** ﴾ جواب الأمر بالإلقاء ، والمراد بالعدوّ : فرعون ، فإن أمّ موسى لما ألقته فى البحر ، وهو النيل المعروف ، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون ، فساقه الله فى ذلك النهر إلى داره ، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه . وقيل : إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه . وقيل وجدته ابنة فرعون ، والأوّل أولى .

﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾ أى ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى فى قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه . وقيل : جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه . وقال ابن جرير : المعنى : وألقيت عليك رحمتى . وقيل كلمة « من » متعلقة بـ﴿ **ألقيت** ﴾ فيكون المعنى: ألقيت منى عليك محبة ، أى أحببتك ،ومن أحبه الله أحبه الناس. ﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾ أى ولتربى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا رباها ، وصنع فرسه : إذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير ﴿ **على عينى** ﴾ : بمرأى منى صحيح. قال النحاس: وذلك معروف فى اللغة ،ولكن لا يكون فى هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من الله . وقال أبو عبيدة وابن الأنبارى : إن المعنى : لتغذى على محبتى وإرادتى ، تقول : أتخذ الأشياء على عينى ، أى على محبتى . قال ابن الأنبارى : العين فى هذه الآية يقصد بها: قصد الإرادة والاختيار ، من قول العرب: غدا فلان على عينى ، أى على المحبة منى . قيل : واللام متعلقة بمحذوف ، أى فعلت ذلك لتصنع ، وقيل : متعلقة بـ﴿ **ألقيت** ﴾ . وقيل : متعلقة بما بعده ، أى ولتصنع على عينى قدرنا مشى أختك . وقرأ ابن القعقاع : «ولتصنع» بإسكان اللام على الأمر ، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء . والمعنى : ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى ، وعلى عين منى .

﴿ **إذ تمشى أختك** ﴾ ظرف لألقيت ، أو لتصنع ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ **إذ أوحينا** ﴾ وأخته اسمها مريم ﴿ **فتقول هل أدلكم على من يكفله** ﴾ وذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره ، فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول ، أى هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ؟ فقالا لها : ومن هو ؟ قالت : أمى ، فقالا : هل لها

لبن ؟ قالت : نعم لبن أخى هارون ، وكان هارون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بأكثر ، فجاءت الأم فقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثدى مرضعة غيرها ، وهذا هو معنى : ﴿ **فرجعناك إلى أمك** ﴾ وفى مصحف أبى : « فرددناك » والفاء فصيحة. ﴿ **كى تقر عينها** ﴾ قرأ ابن عامر فى رواية عبد الحميد عنه: « كى تقرّ » بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها . قال الجوهرى : قررت به عيناً قرّة وقروراً ، ورجل قرير العين ، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ ، نقيض سخنت ، والمراد بقرّة العين : السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته فى البحر وعظم عليها فراقه . ﴿**ولا تحزن** ﴾ أى لا يحصل لها ما يكدّر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذى قرّت عينها بزواله لقدّم نفى الحزن على قرّة العين ، فيحمل هذا النفى للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال : إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين . وقيل : المعنى: ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها ، وهو تعسف .

﴿ **وقتلت نفسا** ﴾ المراد بالنفس هنا : نفس القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه ، وكان قتله له خطأ . ﴿ **فنجيناك من الغم** ﴾ أى الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً . وقيل : الغم هو : القتل بلغة قريش ، وما أبعد هذا . ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة ، وبمعنى الأمر الشاقّ، وكل ما يبتلى به الإنسان . والفتون يجوز أن يكون مصدراً كالثبور والشكور والكفور ، أى ابتليناك ابتلاءً ، واختبرناك اختباراً ، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور فى حجرة وبدور فى بدرة ، أى خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته . ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو: الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له ، وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبنى إسرائيل ﴿ **فلبثت سنين فى أهل مدين** ﴾ قال الفراء : تقدير الكلام : وفتناك فتوناً ، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ، ومثل هذا الحذف كثير فى التنزيل ، وكذا فى كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً . ومدين : هى بلد شعيب ، وكانت على ثمانى مراحل من مصر، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين ، وهى أتمّ الأجلين . وقيل : أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة، منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له ، والفاء فى : ﴿ **فلبثت** ﴾ تدل على أن المراد بالمحن المذكورة : هى ما كان قبل لبثه فى أهل مدين ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ أى فى وقت سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك وأجعلك نبياً ، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به . قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة : « ثم » المفيدة للتراخى للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدّة ، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرّق غنمه ونحو ذلك . ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ الاصطناع : اتخاذ الصنعة ، وهى الخير تسديه إلى إنسان ، والمعنى : اصطنعتك لوحيى ورسالتى لتتصرّف على إرادتى . قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامة حجتى ، وجعلتك بينى وبين خلقى ، وصرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم . قيل : وهو تمثيل لما خوّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه . ﴿**اذهب أنت وأخوك** ﴾ أى وليذهب أخوك ، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ، ومعنى ﴿ **بآياتى** ﴾ : بمعجزاتى التى جعلتها لك آية ، وهى التسع الآيات . ﴿ **ولا تنيا فى ذكرى** ﴾ أى لا تضعفا ولا تفترا ، يقال : ونى ينى ونياً : إذا ضعف . قال الشاعر :

فمـا ونـى محمد مـذ أن غـفــر   لـه الإلـه ما مضى وما غبـر

وقال امرؤ القيس :

مسح إذا ما السابحات على الونى   أثرن غباراً بالكديد المركل

قال الفراء : فى ذكرى وعن ذكرى سواء ، والمعنى : لا تقصرا عن ذكرى بالإحسان إليكما ، والإنعام عليكما وذكر النعمة شكرها . وقيل : معنى ﴿ **لا تنيا** ﴾ : لا تبطئا فى تبليغ الرسالة ، وفى قراءة ابن مسعود : « لا تهنا فى ذكرى » .

﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب ، وموسى حاضر وهارون غائب تغليباً لموسى ؛ لأنه الأصل فى أداء الرسالة ، وعلل الأمر بالذهاب بقوله : ﴿ **إنه طغى**﴾ أى جاوز الحدّ فى الكفر والتمرد ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم ، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده ، وتأكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير . وقيل : إن فى هذا دليلاً على أنه لا يكفى ذهاب أحدهما . وقيل : الأوّل أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس ، والثانى : أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما فى ذلك من التأثير فى الإجابة، فإن التخشين بادئ [ذى] بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب فى الكفر ، والقول اللين :هو الذى لاخشـونة فيه ، يقال : لان الشىء يلين ليناً ، والمراد : تركهما للتعنيف، كقولهما : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : ١٨] . وقيل : القول اللين هو الكنية له. وقيل : أن يعداه بنعيم الدنيا إن أجاب ، ثم علل الأمر بإلانة القول له بقوله : ﴿**لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ أى باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع ، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين :سيبويه وغيره. وقد تقدم تحقيقه فى غير موضع. قال الزجاج:« لعل» لفظة طمع وترج ، فخاطبهم بما يعقلون . وقيل: لعل ها هنا بمعنى الاستفهام . والمعنى : فانظرا هل يتذكر أو يخشى ؟ وقيل : بمعنى كى . والتذكر : النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً فى الإجابة ، والخشية هى خشية عقاب الله الموعود به على

لسانهما ، وكلمة « أو » لمنع الخلو دون الجمع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فاقذفيه فى اليم** ﴾ قال : هو النيل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾ قال : كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سلمة بن كهيل قال : حببتك إلى عبادى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى فى قوله : ﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾ قال : تربى بعين الله . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال ، لتغذى على عينى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال :يقول : أنت بعينى ، إذ جعلتك أمك فى التابوت ، ثم فى البحر ، وإذ تمشى أختك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ » يقول الله سبحانه : ﴿ **وقتلت نفساً فنجيناك من الغم** ﴾ قال : « من قتل النفس » ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ قال : « أخلصناك إخلاصاً » .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ قال : ابتليناك ابتلاءً . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : اختبرناك اختباراً . وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً فى تفسير الآية ، فمن أحبّ استيفاء ذلك فلينظره فى كتاب التفسير من سنن النسائى (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم جئت على قدر** ﴾ قال : لميقات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد وقتادة ﴿ **على قدر** ﴾ قال : موعد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا تنيا** ﴾ قال : لا تبطئا . وأخرج ابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله : ﴿ **قولا لينا** ﴾ قال : كنه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : كنياه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ قال : هل يتذكر ؟

﴿ **قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ**

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٤٦) ورجاله ثقات ، وابن جرير ١٦/ ١٢٥ . قال الحافظ ابن كثير ٤/ ٥١٥ : « وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا القليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضى الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم ؛ وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضا » .

لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

قرأ الجمهور : ﴿ **أن يفرط** ﴾ بفتح الياء وضم الراء ، ومعنى ذلك : أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا ، يقال : فرط منه أمر ، أى بدر ، ومنه الفارط ، وهو الذى يتقدّم القوم إلى الماء ، أى يعذبنا عذاب الفارط فى الذنب ، وهو المتقدّم فيه ، كذا قال المبرد . وقال أيضاً: فرط منه أمر وأفرط : أسرف ، وفرط : ترك . وقرأ ابن محيصن : « يفرط » بضم الياء وفتح الراء ، أى يحمله حامل على التسرع إلينا ، وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء ، ومنهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة من الإفراط ، أى يشتط فى أذيتنا . قال الراجز :

قد أفرط العلج علينا وعجل

ومعنى ﴿ **أو أن يطغى** ﴾ قد تقدم قريباً ، وجملة : ﴿ **قال لا تخافا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، نهى لهما عن الخوف الذى حصل معهما من فرعون ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إننى معكما** ﴾ أى بالنصر لهما ، والمعونة على فرعون ، ومعنى ﴿ **أسمع وأرى** ﴾ : إدراك ما يجرى بينهما وبينه ، بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية ، وليس بغافل عنهما ، ثم أمرهما بإتيانه الذى هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرار . ﴿ **فقولا إنا رسولا ربك** ﴾ أرسلنا إليك ﴿ **فأرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ أى خل عنهم وأطلقهم من الأسر ﴿**ولا تعذبهم** ﴾ بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون فى عذاب شديد : يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه ، ثم أمرهما سبحانه أن يقولا لفرعون : ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ قيل : هى العصا واليد . وقيل : إن فرعون قال لهما : وما هى ؟ فأدخل موسى يده فى جيب قميصه ، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى**﴾ أى السلامة . قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجل ومن عذابه ، وليس بتحية ، قال : والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب . قال الفراء : السلام على من اتبع الهدى ، ولمن اتبع الهدى سواء .

﴿ **إنا قد أوحى إلينا** ﴾ من جهة الله سبحانه ﴿ **أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ المراد بالعذاب : الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى النار . والمراد بالتكذيب : التكذيب بآيات الله وبرسله. والتولى : الإعراض عن قبولها والإيمان بها . ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى** ﴾ أى قال

فرعون لهما : فمن ربكما ؟ فأضاف الرب إليهما ولم يضفه إلى نفسه ؛ لعدم تصديقه لهما ولجحده للربوبية . وخص موسى بالنداء ؛ لكونه الأصل فى الرسالة . وقيل: لمطابقة رؤوس الآى. ﴿ **قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه** ﴾ أى قال موسى مجيباً له، و﴿ **ربنا** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ **الذى أعطى كل شىء خلقه** ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ **ربنا** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، وما بعده صفته . قرأ الجمهور : ﴿ **خلقه** ﴾ بسكون اللام ، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ : «خلقه » بفتح اللام على أنه فعل ، وهى قراءة ابن أبى إسحاق ، ورواها نصير عن الكسائى . فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثانى مفعولى أعطى . والمعنى : أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شىء صلاحه وهداه لما يصلحه. وقال مجاهد : المعنى لم يخلق خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شىء فقدره تقديراً ، ومنه قول الشاعر :

وله فى كل شىء خِلْقَةٌ   وكذاك الله ما شاء فعلْ

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث . ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى ، أى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ومعنى ﴿ **ثم هدى** ﴾: أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شىء فيما خلق له ، وأما على القراءة الآخرة ، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أى أعطى كل شىء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه ، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثانى محذوفاً، أى أعطى كل شىء خلقه ما يحتاج إليه ، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى .

﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ لما سمع فرعون ما احتج به موسى فى ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ، ولابدّ لهما من خالق وهادٍ ، وذلك الخالق والهادى هو الله سبحانه لا ربّ غيره . قال فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ فإنها لم تقرّ بالربّ الذى تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات ، ومعنى البال : الحال والشان ، أى ما حالهم وما شأنهم ؟ وقيل : إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة ، أى ما حال القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث ؟ فأجابه موسى ، فقال : ﴿ **علمها عند ربى** ﴾ أى إن هذا الذى سألت عنه ليس مما نحن بصدده ، بل هو من علم الغيب الذى استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا . وعلى التفسير الأوّل يكون معنى ﴿ **علمها عند ربى** ﴾ : أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله فى كتابه سيجازيهم عليها ، ومعنى كونها فى كتاب :أنها مثبتة فى اللوح المحفوظ .قال الزجاج: المعنى : أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها ، والتقدير : علم أعمالها عند ربى فى كتاب .

وقد اختلف فى معنى ﴿ **لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ على أقوال : الأوّل : إنه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد تمّ الكلام عند قوله: ﴿ **فى كتاب** ﴾ كذا قال الزجاج، قال : ومعنى ﴿ **لا يضل** ﴾ : لا يهلك من قوله : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ [السجدة : ١٠] ﴿ **ولا ينسى** ﴾ شيئاً من الأشياء ، فقد نزّهه عن الهلاك والنسيان . القول الثانى : أن معنى ﴿**لا يضل** ﴾ : لا يخطئ . القول الثالث : أن معناه : لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع : أن المعنى : لا يحتاج إلى كتاب ، ولا يضل عنه علم شيء من الأشياء ، ولا ينسى ما علمه منها ، حكى هذا عن الزجاج أيضاً . قال النحاس : وهو أشبهها بالمعنى . ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابى . القول الخامس : أن هاتين الجملتين صفة لكتاب ، والمعنى : أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له .

﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهادا** ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه صفة لربى متضمنة لزيادة البيان ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على المدح . قرأ الكوفيون :﴿ **مهدا** ﴾ على أنه مصدر لفعل مقدّر ، أى مهدها مهداً ، أو على تقدير محذوف ، أى ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش . وقرأ الباقون : ﴿ **مهادا** ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالا: لاتفاقهم على قراءة:﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ [النبأ : ٦]. قال النحاس : والجمع أولى من المصدر؛ لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على حذف المضاف. قيل : يجوز أن يكون مهاداً مفرداً كالفراش ، ويجوز أن يكون جمعاً. ومعنى المهاد : الفراش ، فالمهاد جمع المهد ، أى جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم .﴿ **وسلك لكم فيها سبلا** ﴾ السلك : إدخال الشيء فى الشيء . والمعنى : أدخل فى الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم . وفى الآية الأخرى: ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴾ [الزخرف : ١٠] .

ثم قال سبحانه ممتناً على عباده : ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ هو ماء المطر . قيل : إلى هنا انتهى كلام موسى ، وما بعده هو :﴿ **فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى** ﴾ من كلام الله سبحانه . وقيل : هو من الكلام المحكيّ عن موسى معطوف على أنزل ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة . ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه : بأن الكلام كله محكيّ عن واحد هو موسى ، والحاكى للجميع هو الله سبحانه . والمعنى : فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أزواجاً ، أى ضروباً وأشباهاً من أصناف النبات المختلفة . وقوله : ﴿ **من نبات** ﴾ صفة لـ﴿ **أزواجا** ﴾ أو بيان له ، وكذا ﴿ **شتى** ﴾ صفة أخرى له ، أى متفرقة جمع شتيت. وقال الأخفش : التقدير : أزواجاً شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى ، فيجوز أن يكون ﴿ **شتى** ﴾ نعتاً لـ﴿ **أزواجا** ﴾ ويجوز أن يكون نعتاً للنبات ، يقال : أمر شَتٌّ ، أى متفرق ، وشت الأمر شتاً وشتاتاً : تفرق ، واستشت مثله، والشتيت : المتفرق . قال رؤبة :

جاءت معاً واطَّرقتْ شتيتاً

وجملة : ﴿ **كلوا وارعوا** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى قائلين لهم ذلك ، والأمر للإباحة، يقال : رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية ، أى أسامها وسرحها يجيء لازماً ومتعدّياً . والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ إلى ما تقدم ذكره فى هذه الآيات ، والنهى : العقول جمع نهية ، وخص ذوى النهى ؛ لأنهم الذين يُنتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح ، وهذا كله من موسى ، احتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جواباً لقوله : ﴿ **فمن ربكما يا موسى** ﴾ . والضمير فى :﴿ **منها خلقناكم** ﴾ وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً . قال الزجاج وغيره : يعنى أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه. وقيل : المعنى : أن كل نطفة مخلوقة من التراب فى ضمن خلق آدم ؛ لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه ﴿ **وفيها** ﴾ أى فى الأرض ﴿ **نعيدكم** ﴾ بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بفى دون إلى ؛ للدلالة على الاستقرار ﴿ **ومنها** ﴾ أى من الأرض ﴿ **نخرجكم تارة أخرى** ﴾ أى بالبعث والنشور وتأليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت ، والتارة كالمرة .

﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها** ﴾ أى أرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها ، والمراد بالآيات هى : الآيات التسع المذكورة فى قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ﴾ [الإسراء : ١٠١] على أن الإضافة للعهد . وقيل : المراد : جميع الآيات التى جاء بها موسى ، والتى جاء بها غيره من الأنبياء ، وأن موسى قد كان عرفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء ، والأوّل أولى . وقيل : المراد بالآيات : حجج الله سبحانه الدالة على توحيده .﴿ **فكذب وأبى** ﴾ أى كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد ؛ لأنه رأى الآيات وكذب بها كما فى قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ [النمل: ١٤] .

وجملة : ﴿ **قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال فرعون بعد هذا ؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات ، أى جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبىّ يجب عليهم اتباعك ، والإيمان بما جئت به ، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذى هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها . وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض ؛ لتنفير قومه عن إجابة موسى ، فإنه إذا وقع فى أذهانهم وتقرّر فى أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين فى معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير .

﴿ **فلنأتينك بسحر مثله** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هى الموطئة للقسم ، أى والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتى يتبين للناس أن الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر .﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا** ﴾ هو مصدر ، أى وعداً . وقيل : اسم مكان ، أى اجعل لنا يوماً معلوماً ، أو مكانا معلوما لا نخلفه . قال القشيرى : والأظهر أنه

مصدر ، ولهذا قال : ﴿ **لا نخلفه** ﴾ أى لا نخلف ذلك الوعد . والإخلاف :أن تعد شيئاً ولا تنجزه .قال الجوهرى : الميعاد: المواعدة والوقت والموضع ، وكذلك الموعد . وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج : « لا نخلفه » بالجزم على أنه جواب لقوله : ﴿ **اجعل** ﴾ . وقرأ الباقون بالرفع على أنه صفة لموعداً ، أى لا نخلف ذلك الوعد ﴿ **نحن ولا أنت** ﴾ وفوض تعيين الموعد إلى موسى ؛ إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى . وانتصاب: ﴿ **مكانا سوى** ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه المصدر ، أو على أنه بدلا من موعد . قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة :﴿ **سوى** ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها وهما لغتان . واختار أبو عبيَد وأبو حاتم كسر السين ؛ لأنها اللغة العالية الفصيحة، والمراد : مكاناً مستوياً . وقيل : مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك . قال سيبويه : يقال :سوى وسوى ، أى عدل ، يعنى مكانا عدلاً بين المكانين . قال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها　　　يسوى بيننا فيها السواء

قال أبو عبيدة والقتيبى : معناه مكانا وسطاً بين الفريقين ، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى :

وجدنا أبانا كان حل ببلدة　　　سوًى بين قيس قيس عَيْلان والفِزْر

والفزر: سعد بن زيد مناة . ثم واعده موسى بوقت معلوم فقال : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدى : كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه . وقال سعيد بن جبير : كان ذلك يوم عاشوراء . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيل : يوم النيروز . وقيل : يوم كسر الخليج . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسلمى وهبيرة عن حفص: « يوم الزينة» بالنصب ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، أى فى يوم الزينة إنجاز موعدنا ، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدكم ، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى ؛ لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، أو على تقدير مضاف محذوف ، أى موعدكم مكان يوم الزينة .

﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ معطوف على ﴿ **يوم الزينة** ﴾ فيكون فى محل رفع ، أو على ﴿ **الزينة** ﴾ فيكون فى محل جر ، يعنى ضحى ذلك اليوم . والمراد بالناس : أهل مصر . والمعنى : يحشرون إلى العيد وقت الضحى ، وينظرون فى أمر موسى وفرعون . قال الفراء : المعنى : إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد . قال : وجرت عادتهم بحشر الناس فى ذلك اليوم . والضحى قال الجوهرى : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى ، وهو حين تشرق الشمس . وخص الضحى ؛ لأنه أوّل النهار، فإذا امتدّ الأمر بينهما كان فى النهار متسع . وقرأ ابن مسعود والجحدرى : « وأن يحشر» على البناء للفاعل ، أى وأن يحشر الله الناس ضحى . وروى عن الجحدرى أنه قرأ:« وأن نحشر» بالنون وقرأ

بعض القرّاء بالتاء الفوقية ، أى وأن تحشر أنت يا فرعون ، وقرأ الباقون بالتحتية على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إننا نخاف أن يفرط علينا** ﴾ قال : يعجل ﴿ **أو أن يطغى** ﴾ قال : يعتدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **أسمع وأرى** ﴾ قال : أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به ، فأوحى إليكما فتجاوبانه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : ربّ أى شىء أقول ؟ قال : قل : أهيا شراهيا . قال الأعمش : تفسير ذلك الحى قبل كل شىء ، والحى بعد كل شىء . وجوّد السيوطى إسناده، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير فى تفسيره . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **على من كذب وتولى** ﴾ قال : كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أعطى كل شىء خلقه** ﴾ قال: خلق لكل شىء روحه ﴿ **ثم هدى** ﴾ قال: هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يضل ربى** ﴾ قال : لا يخطئ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من نبات شتى** ﴾ قال : مختلف . وفى قوله : ﴿ **لأولى النهى** ﴾ قال : لأولى التقى . وأخرج ابن المنذر عنه ﴿**لأولى النهى** ﴾ قال : لأولى الحجا والعقل . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله :﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم** ﴾ . وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : لما وضعت أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ: « ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ بسم الله، وفى سبيل الله، وعلى ملة رسول الله » (١) . وفى حديث فى السنن : « أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : ﴿ **منها خلقناكم** ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿ **وفيها نعيدكم** ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿**ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ قال : يوم عاشوراء . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥٤ والحاكم ٢/ ٣٧٩ وقال الذهبى : « خبره واه ؛لأن على بن زيد متروك » .

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾.

قوله : ﴿ **فتولى فرعون** ﴾ أى انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه . وقيل : معنى تولى : أعرض عن الحق ، والأوّل أولى ﴿ **فجمع كيده** ﴾ أى جمع ما يكيد به من سحره وحيلته . والمراد : أنه جمع السحرة . قيل : كانوا اثنين وسبعين . وقيل : أربعمائة . وقيل : اثنا عشر ألفاً . وقيل : أربعة عشر ألفاً . وقال ابن المنذر : كانوا ثمانين ألفاً ﴿ **ثم أتى**﴾ أى أتى الموعد الذى تواعدا إليه مع جمعه الذى جمعه ، وجملة : ﴿ **قال لهم موسى** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا** ﴾ دعا عليهم بالويل ، ونهاهم عن افتراء الكذب . قال الزجاج : هو منصوب بمحذوف ، والتقدير : ألزمهم الله ويلاً . قال : ويجوز أن يكون نداء ،كقوله : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : ٥١] ﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾ السحت : الاستئصال ، يقال : سحت وأسحت بمعنى ، وأصله استقصاء الشعر . وقرأ الكوفيون إلا شعبة: ﴿ **فيسحتكم** ﴾ بضم حرف المضارعة من أسحت ، وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقون بفتحه من سحت ، وهى لغة الحجاز ، وانتصابه على أنه جواب للنهى ﴿ **وقد خاب من افترى** ﴾ أى خسر وهلك والمعنى : قد خسر من افترى على الله أى كذب كان .

﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ أى السحرة لما سمعوا كلام موسى ، تناظروا وتشاوروا وتجاذبوا أطراف الكلام فى ذلك ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ أى من موسى ، وكانت نجواهم هى قولهم : ﴿**إن هذان لساحران** ﴾ . وقيل : إنهم تناجوا فيما بينهم فقالوا : إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر . وقيل : الذى أسروه : أنه إذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفرّاء والزجاج . وقيل : الذى أسروه : أنهم لما سمعوا قول موسى : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله** ﴾ قالوا : ما هذا بقول ساحر . والنجوى : المناجاة يكون اسماً ومصدراً .

قرأ أبو عمرو: « إن هذين لساحران » بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء فى اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف ، وهو نصب الاسم ورفع الخبر . ورويت هذه القراءة عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن وسعيد بن جبير والنخعى وغيرهم من التابعين ، وبها قرأ عاصم الجحدرى وعيسى بن عمر كما حكاه النحاس ، وهذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف . وقرأ الزهرى والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه : « إن هذان» بتخفيف إن على أنها نافية ، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وللإعراب . وقرأ ابن كثير

مثل قراءتهم إلا أنه يشدّد النون من هذان . وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر : ﴿ **إن هذان**﴾ بتشديد إن وبالألف ، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر . وقد تكلم جماعة من أهل العلم فى توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر ، وقد استوفى ذكر ذلك ابن الأنبارى والنحاس ، فقيل : إنها لغة بنى الحارث بن كعب وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف ، ومنه قول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى ‏ ‏ ‏ مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقول الآخر :

تزودّ منا بين أذناه ضربة

وقول الآخر :

إن أباها وأبا أباها ‏ ‏ ‏ قد بلغا فى المجد غايتاها

ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه والأخفش وأبى زيد والكسائى والفراء : إن هذه القراءة على لغة بنى الحارث بن كعب . وحكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنها لغة بنى كنانة . وحكى غيره أنه لغة خثعم . وقيل : إن « إنّ » بمعنى نعم هاهنا ، كما حكاه الكسائى عن عاصم ، وكذا حكاه سيبويه . قال النحاس : رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه ، فيكون التقدير : نعم هذان لساحران ، ومنه قول الشاعر :

ليت شعرى هل للمحبّ شفاء ‏ ‏ ‏ من جـوى حبهـنّ إن اللقـاء

أى نعم اللقاء . قال الزجاج : والمعنى فى الآية : أن هذان لهما ساحران ، ثم حذف المبتدأ وهو هما . وأنكره أبو على الفارسى وأبو الفتح بن جنى ، وقيل : إن الألف فى ﴿هذان﴾ مشبهة بالألف فى يفعلان فلم تغير . وقيل : إن الهاء مقدّرة ، أى إنه هذان لساحران، حكاه الزجاج عن قدماء النحويين ، وكذا حكاه ابن الأنبارى . وقال ابن كيسان : إنه لما كان يقال : هذا بالألف فى الرفع والنصب والجر على حال واحدة ، وكانت التثنية لا تغير الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف فى الرفع والنصب والجر ، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجيها تصح به وتخرج به عن الخطأ ، وبذلك يندفع ما روى عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف .

﴿ **يريدان أن يخرجاكم من أرضكم** ﴾ وهى أرض مصر﴿ **بسحرهما** ﴾ الذى أظهراه ﴿**ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ قال الكسائى : بطريقتكم : بسنتكم . و﴿ **المثلى** ﴾ **نعت** ، كقولك : امرأة كبرى ، تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى ، يعنون :على الهدى المستقيم . قال الفراء :العرب تقول :هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم . والمثلى تأنيث الأمثل ، وهو الأفضل ، يقال : فلان أمثل قومه ، أى أفضلهم ، وهم الأماثل . والمعنى : أنهما إن

يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم ، أو يذهبا بمذهبكم الذى هو أمثل المذاهب .

﴿ **فأجمعوا كيدكم** ﴾ الإجماع : الإحكام ، والعزم على الشيء ، قاله الفراء . تقول : أجمعت على الخروج مثل أزمعت . وقال الزجاج : معناه : ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعاً عليه . وقد اتفق القراء على قطع الهمزة فى أجمعوا إلا أبا عمرو ، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع . قال النحاس : وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس .﴿ **ثم ائتوا صفا** ﴾ أى مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمورهم وأشد لهيبتهم ، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال أبوعبيدة :الصف: موضع المجمع ، ويسمى المصلى: الصف . قال الزجاج : وعلى هذا معناه : ثم ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال :أتيت الصف بمعنى : أتيت المصلى ، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب ﴿ **صفا** ﴾ على الحال ، وعلى تفسير أبى عبيدة يكون انتصابه على المفعولية . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون ، فيكون على هذا مصدراً فى موضع الحال ، ولذلك لم يجمع . وقرئ بكسر الهمزة بعدها ياء ، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفاً ﴿ **وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ أى من غلب ، يقال : استعلى عليه : إذا غلبه ، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

وجملة : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تلقى** ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا ؟ فقيل : قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإن مع ما فى حيزها فى محل نصب بفعل مضمر ، أى اختر إلقاءك أولا أو إلقاءنا ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر إلقاؤك ، أو إلقاؤنا ، ومفعول تلقى محذوف ، والتقدير : إما أن تلقى ما تلقيه أولا ﴿ **وإما أن نكون** ﴾ نحن ﴿ **أول من ألقى**﴾ ما يلقيه ، أو أول من يفعل الإلقاء . والمراد : إلقاء العصى على الأرض ، وكانت السحرة معهم عصى ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون ، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول ، فقال لهم موسى : ﴿ **بل ألقوا** ﴾ أمرهم بالإلقاء أولا ؛ لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقى هو عصاه فتبتلع ذلك ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : ألقوا فإذا حبالهم، والفاء فصيحة ، وإذا للمفاجأة أو ظرفية . والمعنى : فألقوا ففاجأ موسى وقت أن ﴿ **يخيل إليه** ﴾ سعى حبالهم وعصيهم ، وقرأ الحسن : « عصيهم » بضم العين وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقون بكسرها اتباعاً لكسرة الصاد ، وقرأ ابن عباس وابن ذكوان وروح عن يعقوب :« تخيل » بالمثناة ؛ لأن العصىّ والحبال مؤنثة ، وذلك أنهم لطخوها بالزئبق ، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت واهتزّت ، وقرئ :« نخيل » بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرئ : « يخيل » بالياء التحتية مبنياً للفاعل ، على أن المخيل هو الكيد . وقيل : المخيل هو أنها تسعى ، فإن فى موضع رفع ، أى يخيل إليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج . وقال الفراء : إنها

فى موضع نصب ، أى بأنها ثم حذف الباء . قال الزجاج : ومن قرأ بالتاء : يعنى الفوقية جعل أنّ فى موضع نصب ، أى تخيل إليه ذات سعى . قال : ويجوز أن يكون فى موضع رفع بدلاً من الضمير فى تخيل ، وهو عائد على الحبال والعصىّ ، والبدل فيه بدل اشتمال ، يقال : خيل إليه: إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة .

﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾ أى أحس . وقيل : وجد . وقيل : أضمر . وقيل : خاف ، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه . وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه . وقيل : إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا ، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ أى المستعلى عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهى عن الخوف .

﴿ **وألق ما فى يمينك** ﴾ يعنى العصا ، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً ، وجزم ﴿ **تلقف ما صنعوا** ﴾ على أنه جواب الأمر ، قرئ تشديد القاف ، والأصل : تتلقف ، فحذف إحدى التاءين ، وقرئ : « تلقف » بكسر اللام من لقفه : إذا ابتلعه بسرعة ، وقرئ :« تلقف » بالرفع على تقدير فإنها تتلقف ، ومعنى ﴿ **ما صنعوا** ﴾ : الذى صنعوه من الحبال والعصى . قال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال ، كأنه قال : ألقها متلقفة ، وجملة : ﴿ **إنما صنعوا كيد ساحر** ﴾ تعليل لقوله : ﴿ **تلقف** ﴾ وارتفاع كيد على أنه خبر لإن ، وهى قراءة الكوفيين إلا عاصماً. وقرأ هؤلاء: «سحر » بكسر السين وسكون الحاء ، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذى سحر . وقرأ الباقون : ﴿**كيد ساحر** ﴾ ، ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾ أى لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وأين توجه ، وهذا من تمام التعليل .

﴿ **فألقى السحرة سجدا** ﴾ أى فألقى ذلك الأمر الذى شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجداً لله تعالى، وقد مرّ تحقيق هذا فى سورة الأعراف . ﴿ **قالوا آمنا برب هارون وموسى** ﴾ إنما قدّم هارون على موسى فى حكاية كلامهم ؛ رعاية لفواصل الآى وعناية بتوافق رؤوسها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾ قال: يهلككم. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذرعن قتادة : ﴿ **فيسحتكم** ﴾ قال : يستأصلكم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى صالح قال :فيذبحكم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن علىّ :﴿ **ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ قال : يصرفا وجوه الناس إليهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : يقول : أمثلكم ، وهم بنو إسرائيل .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق فى قوله : ﴿ **تلقف ما صنعوا** ﴾ ما يأفكون ، عن قتادة

قال : ألقاها موسى فتحولت حية تأكل حبالهم وما صنعوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ؛ أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة ، فقالوا لفرعون : إن يكن هذان ساحران فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا ، وإن كانا من ربّ العالمين فإنه لا طاقة لنا بربّ العالمين، فلما كان من أمرهم أن خرّوا سجداً أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى إليها يصيرون فعندها ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ إلى قوله: ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾.

قوله : ﴿ **قال آمنتم له** ﴾ يقال : آمن له وآمن به ، فمن الأول : قوله : ﴿ فآمن له لوط ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ومن الثانى : قوله فى الأعراف:﴿ آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ [الآية:١٢٣]. وقيل : إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع . وقرئ على الاستفهام التوبيخى ، أى كيف آمنتم به من غير إذن منى لكم بذلك؟ ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر**﴾ أى إن موسى لكبيركم، أى أسحركم وأعلاكم درجة فى صناعة السحر ، أو معلمكم وأستاذكم كما يدل عليه قوله : ﴿**الذى علمكم السحر** ﴾ قال الكسائى : الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال : جئت من عند كبيرى . وقال محمد بن إسحاق : إنه لعظيم السحر . قال الواحدى : والكبير فى اللغة : الرئيس ، ولهذا يقال للمعلم : الكبير . أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، ولا كان رئيساً لهم ، ولا بينه وبينهم مواصلة ﴿ **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ أى والله لأفعلن بكم ذلك . والتقطيع للأيدى والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، و« من » للابتداء ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ أى على جذوعها، كقوله : ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ [الطور : ٣٨] أى عليه ، ومنه قول سويد بن أبى كاهل :

هم صلبوا العبدىّ فى جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

وإنما آثر كلمة « فى » للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف فى الظرف ﴿**ولتعلمن أينا أشدّ عذابا وأبقى**﴾ أراد : لتعلمن هل أنا أشدّ عذاباً لكم أم موسى ؟ ومعنى

﴿أبقى﴾ : أدوم ، وهو يريد بكلامه هذا : الاستهزاء بموسى ؛ لأن موسى لم يكن من التعذيب فى شىء ، ويمكن أن يريد : العذاب الذى توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا . وقيل : أراد بموسى ربّ موسى على حذف المضاف .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أى لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا . وقيل : إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه فى سجودهم من المنازل المعدة لهم فى الجنة **﴿ والذى فطرنا ﴾** معطوف على **﴿ ما جاءنا ﴾** أى لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذى فطرنا ، أى خلقنا . وقيل : هو قسم ، أى والله الذى فطرنا لن نؤثرك ، أو لا نؤثرك ، وهذان الوجهان فى تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج **﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾** هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم : **﴿لأقطعن﴾** إلخ ، والمعنى : فاصنع ما أنت صانع ، واحكم ما أنت حاكم ، والتقدير : ما أنت صانعه **﴿إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾** أى إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا فى هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها ، فاسم الإشارة فى محل نصب على الظرفية أو على المفعولية و« ما » كافة، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذى ، أى أن الذى تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر فى ذلك .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التى سلفت منا من الكفر وغيره **﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾** معطوف على **﴿ خطايانا ﴾** أى ويغفر لنا الذى أكرهتنا عليه من عمل السحر فى معارضة موسى فما فى محل نصب على المفعولية . وقيل : هى نافية ، قال النحاس : والأوّل أولى . قيل : ويجوز أن يكون فى محل رفع بالابتداء والخبر مقدّر ، أى وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا **﴿ والله خير وأبقى ﴾** أى خير منك ثواباً وأبقى منك عقاباً ، وهذا جواب قوله : **﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾** . **﴿ إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾** المجرم هو : المتلبس بالكفر والمعاصى ، ومعنى **﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾** : أنه لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه . قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحى ، ويبلغ به حال الموت فى المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ، والعرب تقول : فلان لا حى ولا ميت ، إذا كان غير منتفع بحياته ، وأنشد ابن الأنبارى فى مثل هذا :

ألا من لنفس لا تموت فينقضى   شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وهذه الآية من جملة ما حكاه الله سبحانه من قول السحرة . وقيل : هو ابتداء كلام . والضمير فى : **﴿ إنه ﴾** على هذا الوجه للشأن **﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات ﴾** أى ومن يأت ربه مصدقاً به قد عمل الصالحات ، أى الطاعات ، والموصوف محذوف ، والتقدير : الأعمال الصالحات ، وجملة: **﴿ قد عمل ﴾** فى محل نصب على الحال ، وهكذا **﴿ مؤمنا ﴾** منتصب على الحال ، والإشارة بـ **﴿ أولئك ﴾** إلى من باعتبار معناه **﴿ لهم الدرجات العلى ﴾**

أى المنازل الرفيعة التى قصرت دونها الصفات ﴿ **جنات عدن** ﴾ بيان للدرجات أو بدل منها، والعدن : الإقامة ، وقد تقدّم بيانه ، وجملة : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ حال من الجنات ؛ لأنها مضافة إلى عدن ، وعدن علم للإقامة كما سبق . وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال من ضمير الجماعة فى لهم ، أى ماكثين دائمين ، والإشارة ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم لهم من الأجر ، وهو مبتدأ ، و﴿ **جزاء من تزكى** ﴾ خبره ، أى جزاء من تطهر من الكفر والمعاصى الموجبة للنار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرما ، قال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد فى الأرض . قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى ، وهم الذين قالوا : ﴿ **آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ قال : خير منك إن أطيع ، وأبقى منك عذاباً إن عصى .

وأخرج أحمد ومسلم وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له : الحياة أو الحيوان ، فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل » (١). وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:«إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرىّ فى أفق السماء،وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما» (٢). وفى الصحيحين بلفظ : « إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب العابر فى أفق السماء» (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ

---

(١) أحمد ٣/ ٥ ومسلم فى الإيمان (١٨٥/ ٣٠٦) .

(٢) أبو داود فى الحروف (٣٩٨٧) .

(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١/ ١٠ ، ١١) .

اهْتَدَىٰ (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾.

هذا شروع فى إنجاء بنى إسرائيل وإهلاك عدوّهم ، وقد تقدّم فى البقرة ، وفى الأعراف ، وفى يونس . واللام فى : ﴿ **لقد** ﴾ هى الموطئة للقسم ، وفى ذلك من التأكيد ما لا يخفى ، و« أن » فى : ﴿ **أن أسر بعبادى** ﴾ إما المفسرة لأن فى الوحى معنى القول ، أو مصدرية ، أى بأن أسر ، أى أسر بهم من مصر . وقد تقدّم هذا مستوفى . ﴿ **فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبسا** ﴾ أى اجعل لهم طريقا ، ومعنى ﴿ **يبسا** ﴾ : يابساً ، وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين . وقرئ : « يبسا » بسكون الباء ، على أنه مخفف من يبسا المحرك ، أو جمع يابس كصحب فى صاحب . وجملة: ﴿ **لا تخاف دركا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى آمنا من أن يدرككم العدوّ ، أو صفة أخرى لطريق ، والدرك : اللحاق بهم من فرعون وجنوده . وقرأ حمزة : « لا تخف » على أنه جواب الأمر ، والتقدير : إن تضرب لا تخف ، و﴿ **لا تخشى** ﴾ على هذه القراءة مستأنف ، أى ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر . وقرأ الجمهور : ﴿ **لا تخاف** ﴾ وهى أرجح لعدم الجزم فى : ﴿ **تخشى** ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق ، أى لا تخاف منه ولا تخشى منه .

﴿ **فأتبعهم فرعون بجنوده** ﴾ أتبع هنا مطاوع تبع ، يقال : أتبعتهم : إذا تبعتهم ، وذلك إذا سبقوك فلحقتهم ، فالمعنى: تبعهم فرعون ومعه جنوده . وقيل :الباء زائدة والأصل اتبعهم جنوده، أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه، وقرئ : « فاتبعهم » بالتشديد ، أى لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال : ركب الأمير بسيفه ، أى معه سيفه ، ومحل بجنوده النصب على الحال ، أى سابقاً جنوده معه ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ أى علاهم وأصابهم ما علاهم وأصابهم ، والتكرير للتعظيم والتهويل كما فى قوله :﴿ الحاقة . ما الحاقة ﴾ [الحاقة :١ ،٢]. وقيل : غشيهم ما سمعت قصته . وقال ابن الأنبارى : غشيهم البعض الذى غشيهم ؛ لأنه لم

يغشهم كل ماء البحر، بل الذى غشيهم بعضه . فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء ، والأوّل أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم . وقرئ : « فغشاهم من اليمّ ما غشاهم » أى غطاهم ما غطاهم .

﴿ **وأضل فرعون قومه وما هدى** ﴾ أى أضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى طريق النجاة ؛ لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة ، وبين أيديهم البحر ، وفى قوله : ﴿ **وما هدى** ﴾ تأكيد لإضلاله ؛ لأن المضل قد يرشد من يضله فى بعض الأمور .

﴿ **يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم** ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بنى إسرائيل بعد إنجائهم ، والتقدير : قلنا لهم بعد إنجائهم : ﴿ **يا بنى إسرائيل** ﴾ ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا ﷺ ؛ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء . والمراد بعدوّهم هنا : فرعون وجنوده ،وذلك بإغراقه وإغراق قومه فى البحر بمرأى من بنى إسرائيل . ﴿ **وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ انتصاب ﴿ **جانب** ﴾ على أنه مفعول به، لا على الظرفية ؛ لأنه مكان معين غير مبهم ، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة . قال مكى : وهذا أصل لا خلاف فيه . قال النحاس : والمعنى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور ، فالوعد كان لموسى ، وإنما خوطبوا به ؛ لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب : « ووعدناكم » بغير ألف ، واختاره أبو عبيدة؛ لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ، وقد قدّمنا فى البقرة هذا المعنى . و﴿ **الأيمن** ﴾ منصوب على أنه صفة للجانب ، والمراد : يمين الشخص ؛ لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل بمعناه : عن يمينك من الجبل . وقرئ بجرّ الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿ **ونزلنا عليكم المن والسلوى** ﴾ قد تقدّم تفسير المنّ بالترنجبين والسلوى بالسمانى ، وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وإنزال ذلك عليهم كان فى التيه .

﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ أى وقلنا لهم : كلوا . والمراد بالطيبات : المستلذات . وقيل : الحلال ، على الخلاف المشهور فى ذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش : « قد أنجيتكم من عدوّكم ووعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتكم » بتاء المتكلم فى الثلاثة. وقرأ الباقون بنون العظمة فيها .﴿ **ولا تطغوا فيه** ﴾ الطغيان : التجاوز ، أى لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى : لا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين . وقيل : لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها. وقيل : لا تعصوا المنعم ، أى لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعانى ، فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان ﴿ **فيحل عليكم غضبى** ﴾ هذا جواب النهى ، أى يلزمكم غضبى وينزل بكم ، وهو مأخوذ من حلول الدين ، أى حضور وقت أدائه ﴿ **ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى** ﴾ قرأ

الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائى : « فيحل » بضم الحاء ، وكذلك قرؤوا :« يحلل » بضم اللام الأولى ، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان . قال الفراء : والكسر أحبّ إلىّ من الضم ؛ لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع . ويحل بالكسر : يجب ، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع ، وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره. ومعنى ﴿ **فقد هوى** ﴾ : فقد هلك. قال الزجاج: ﴿ **فقد هوى** ﴾ أى صار إلى الهاوية ، وهى قعر النار من هوى يهوى هوياً ، أى سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان ، أى مات .

﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أى لمن تاب من الذنوب التى أعظمها الشرك باللّه ، وآمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ أى استقام على ذلك حتى يموت ، كذا قال الزجاج وغيره . وقيل : لم يشك فى إيمانه. وقيل : أقام على السنة والجماعة. وقيل : تعلم العلم ليهتدى به . وقيل : علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً ، والأوّل أرجح مما بعده .

﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى** ﴾ هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات . قال المفسرون : وكانت المواعدة أن يوافى موسى وجماعة من وجوه قومه . فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه ، فقال الله له : ما أعجلك ؟ أى ما الذى حملك على العجلة ، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ، فأجاب موسى عن ذلك : ﴿**قال هم أولاء على أثرى** ﴾ أى هم بالقرب منى ، تابعون لأثرى واصلون بعدى . وقيل : لم يرد أنهم يسيرون خلفه ، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم . ثم قال مصرحاً بسبب ما سأله الله عنه فقال : ﴿ **وعجلت إليك رب لترضى** ﴾ أى لترضى عنى بمسارعتى إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عنى بذلك. قال أبو حاتم : قال عيسى بن عمر: بنو تميم يقولون : « أولا » مقصورة ، وأهل الحجاز يقولون : « أولاء » ممدودة . وقرأ ابن أبى إسحاق ونصر ورويس عن يعقوب : « على إثرى » بكسر الهمزة وإسكان الثاء ، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان . ومعنى ﴿ **عجلت إليك** ﴾ : عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنى. يقال : رجل عجل وعجول وعجلان : بين العجلة . والعجلة خلاف البطء .

وجملة : ﴿ **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال الله له ؟ فقيل : قال : إنا قد فتنا قومك من بعدك ، أى ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم فى فتنة ومحنة . قال ابن الأنبارى : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون ﴿ **وأضلهم السامرى** ﴾ أى دعاهم إلى الضلالة ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر ، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقال لمن معه من بنى إسرائيل : إنما تخلف موسى عن الميعاد الذى بينكم وبينه لما صار معكم من الحلىّ ، وهى حرام عليكم وأمرهم بإلقائها فى النار ، فكان من أمر العجل ما كان .

﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ قيل : وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً : ذا القعدة ، وعشر ذى الحجة ، والأسف : الشديد الغضب . وقيل : الحزين ، وقد مضى فى الأعراف بيان هذا مستوفى . ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخى ، والوعد الحسن : وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أن يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها ، فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل: وعدهم النصر والظفر . وقيل : هو قوله : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ الآية . ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ الفاء للعطف على مقدّر ، أى أوعدكم ذلك ، فطال عليكم الزمان فنسيتم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ أى يلزمكم وينزل بكم ، والغضب: العقوبة والنقمة . والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم ﴿ فأخلفتم موعدى ﴾ أى موعدكم إياى ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ؛ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عزّ وجلّ إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات ، فتوقفوا فأجابوه ، و﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ الذى وعدناك ﴿ بملكنا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر وعاصم وعيسى بن عمر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشىء أملكه ملكاً ، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، أى بملكنا أمورنا ، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ ،وقرأ حمزة والكسائى : « بملكنا » بضمّ الميم ، والمعنى : بسلطاننا ، أى لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك . وقيل : إن الفتح والكسر والضم فى :« بملكنا » كلها لغات فى مصدر ملكت الشىء .

﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس : ﴿حملنا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم ، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبوحاتم ؛لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم ، وما حملوها كرهاً ، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل ، وسميت أوزاراً ، أى آثاماً ؛ لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم والأوزار فى الأصل : الأثقال ، كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا : الحلى .﴿ فقذفناها ﴾ أى طرحناها فى النار طلباً للخلاص من إثمها . وقيل : المعنى : طرحناها إلى السامرىّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه ﴿ فكذلك ألقى السامرى ﴾ أى فمثل ذلك القذف ألقاها السامرى. قيل : إن السامرىّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى : إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلىّ ، فجمعوه ودفعوه إليه ، فرمى به فى النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل ، فصار ﴿ عجلا جسدا له خوار ﴾ أى يخور كما يخور الحىّ من العجول ، والخوار : صوت البقر . وقيل : خواره كان بالريح ؛ لأنه

كان عمل فيه خروقاً ، فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم يكن فيه حياة ﴿ **فقالوا هذا إلهكم وإله موسى** ﴾ أى قال السامرىّ ومن وافقه هذه المقالة ﴿ **فنسى** ﴾ أى فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه فى الطور . وقيل : المعنى : فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم . وقيل : الناسى هو السامرىّ ، أى ترك السامرىّ ما أمر به موسى من الإيمان وضل ، كذا قال ابن الأعرابى .

﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا** ﴾ أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولاً ، أى لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يكلمهم إذا كلموه ، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة ؟ فأن فى : ﴿ **ألا يرجع** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير مقدّر يرجع إلى العجل ، ولهذا ارتفع الفعل بعدها ، ومنه قول الشاعر:

فى فتية من سيوف الهند قد علموا ... أن هالك كل من يحفى وينتعل

أى أنه هالك . وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة ، وجملة :﴿ **ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا** ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ **لا يرجع** ﴾ أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ولا يجلب إليهم نفعاً .

﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التى قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ، أى ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتى موسى ويرجع إليهم ﴿ **يا قوم إنما فتنتم به** ﴾ أى وقعتم فى الفتنة بسبب العجل ، وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لأجله . قيل : ومعنى القصر المستفاد من إنما هو : أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم ، وليس معناه : أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره ﴿ **وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ أى ربكم الرحمن لا العجل ، فاتبعونى فى أمرى لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامرىّ فى أمره لكم بعبادة العجل ، وأطيعوا أمرى لا أمره .

﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ أجابوا هارون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه ، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشر ، أى لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ، حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر : هل يقررنا على عبادته أو ينهانا عنها ؟ فعند ذلك اعتزلهم هارون فى اثنى عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامرىّ .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿**يبسا** ﴾ قال : يابساً ليس فيه ماء ولا طين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس :﴿ **لا تخاف دركا** ﴾ من آل فرعون ﴿ **ولا تخشى** ﴾ من البحر غرقاً. وأخرجا عنه أيضاً فى قوله :﴿ **فقد هوى**﴾: شقى. وأخرجا عنه أيضاً :﴿ **وإنى لغفار لمن تاب** ﴾ قال : من الشرك ﴿ **وآمن** ﴾ قال : وحد الله ﴿ **وعمل صالحا** ﴾ قال : أدّى الفرائض ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ قال : لم يشكك . وأخرج سعيد

ابن منصور والفريابى عنه أيضاً : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ قال : من تاب من الذنب ، وآمن من الشرك ، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ﴿ ثم اهتدى ﴾ علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ ثم اهتدى ﴾ قال : ثم استقام ، لزم السنة والجماعة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، والبيهقى فى البعث من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : تعجل موسى إلى ربه ، فقال الله : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ الآية ، قال : فرأى فى ظل العرش رجلاً فعجب له ، فقال : من هذا يا ربّ ؟ قال : لا أحدثك من هو ، لكن سأخبرك بثلاث فيه : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعقّ والديه ، ولا يمشى بالنميمة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن علىّ قال : لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامرىّ فجمع ما قدر عليه من حلىّ بنى إسرائيل فضربه عجلاً ، ثم ألقى القبضة فى جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار ، فقال لهم السامرىّ : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾ فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه ، فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامرىّ : ما خطبك ؟ قال: ﴿ قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ﴾ فعمد موسى إلى العجل ، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالى بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم ، فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقى (١) . والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بملكنا ﴾ قال : بأمرنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة : ﴿ بملكنا ﴾ قال : بطاقتنا .وأخرج ابن أبى حاتم عن السدىّ مثله . وأخرج أيضاً عن الحسن قال : بسلطاننا . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾ قال : فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ على شرط الشيخين وقال : « لم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا(٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١) ﴾.

جملة : ﴿ **قال يا هارون** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والمعنى : أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته وقال : ﴿ **ما منعك** ﴾ من اتباعى واللحوق بى عندما وقعوا فى هذه الضلالة ودخلوا فى الفتنة . وقيل : معنى ﴿ **ما منعك** . . . **ألا تتبعن** ﴾ : ما منعك من اتباعى فى الإنكار عليهم . وقيل : معناه : هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم . وقيل : معناه : هلا فارقتهم . و« لا » فى : ﴿ **ألا تتبعن** ﴾ زائدة ، وهو فى محل نصب على أنه مفعول ثان لمنع ، أى أىّ شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعى ، والاستفهام فى :﴿ **أفعصيت أمرى** ﴾ للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، والمعنى : كيف خالفت أمرى لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ؟ وقيل المراد بقوله : ﴿**أمرى**﴾ هو قوله الذى حكى الله عنه : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فلما أقام معهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه .

﴿ **قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى** ﴾ قرئ بالفتح والكسر للميم ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة الأعراف . ونسبه إلى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه وأمه ، عند الجمهور ؛ استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ، ومعنى ﴿ **ولا برأسى** ﴾ : ولا بشعر رأسى ، أى لا تفعل هذا بى عقوبة منك لى ، فإن لى عذراً هو﴿ **إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل** ﴾ أى خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول : إنى فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامرىّ عند العجل آخرون ،وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، ومعنى ﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ : ولم تعمل بوصيتى لك فيهم ، إنى خشيت أن تقول : فرقت بينهم ، وتقول : لم تعمل بوصيتى لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له هو قوله : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ﴾ قال أبو عبيد : معنى ﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ : ولم تنتظر عهدى وقدومى لأنك أمرتنى أن أكون معهم ، فاعتذر هارون إلى موسى ها هنا بهذا ، واعتذر إليه فى الأعراف بما حكاه الله عنه هنالك حيث قال : ﴿ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامرىّ فقال : ﴿ **فما خطبك يا سامرى** ﴾ أى ما

شأنك وما الذى حملك على ما صنعت ؟ ﴿ **قال بصرت بما لم يبصروا به** ﴾ أى قال السامرىّ مجيباً على موسى : رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له ، وأراد بذلك : أنه رأى جبريل على فرس الحياة ، فألقى فى ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول ، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف : « ما لم تبصروا به » بالمثناة من فوق على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وهى أولى ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعى لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى ، وقرئ بضم الصاد فيهما وبكسرها فى الأوّل وفتحها فى الثانى ، وقرأ أبى بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة : « فقبصت قبصة » بالصاد المهملة فيهما ، وقرأ الباقون بالضاد المعجمة فيهما ، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة : هو الأخذ بجميع الكف ، وبالمهملة : بأطراف الأصابع . والقبضة بضم القاف : القدر المقبوض . قال الجوهرى :هى ما قبضت عليه من شىء، قال : وربما جاء بالفتح ، وقد قرئ : « قبضة » بضم القاف وفتحها ، ومعنى الفتح: المرة من القبض ، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف ، ومعنى ﴿ **من أثر الرسول** ﴾ : من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل ، ومعنى ﴿ **فنبذتها** ﴾ : فطرحتها فى الحلى المذابة المسبوكة على صورة العجل ﴿**وكذلك سولت لى نفسى** ﴾ قال الأخفش : أى زينت ، أى ومثل ذلك التسويل : سولت لى نفسى . وقيل : معنى ﴿ **سولت لى نفسى** ﴾ : حدّثتنى نفسى .

فلما سمع موسى منه قال : ﴿ **فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس** ﴾ أى فاذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك فى الحياة ، أى ما دمت حياً ، وأطول حياتك أن تقول : لا مساس . المساس مأخوذ من المماسة ، أى لا يمسك أحد ولا تمس أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك ، بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك ؛ لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرىّ عن قومه ، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قيل : إنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش لا يجد أحداً من الناس يمسه، حتى صار كمن يقول : لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ، كما قال الشاعر:

حمال رايات بها قناعسا حتى تقول الأزد لا مسايسا

قال سيبويه : وهو مبنى على الكسر . قال الزجاج : كسرت السين ؛ لأن الكسرة من علامة التأنيث . قال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب : لا مساس ، مثل قطام ، فإنما بنى على الكسر ؛ لأنه معدول عن المصدر ، وهو المس . قال النحاس : وسمعت علىّ بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول : إذا اعتل الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء ، فمساس دراك اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، ومنها أنه معرفة ، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين . وقد رأيت أبا إسحاق ، يعنى الزجاج ، ذهب إلى أن هذا القول خطأ وألزم أبا العباس إذا سميت امرأة

بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد . وقد قرأ بفتح الميم أبوحيوة والباقون بكسرها. وحاصل ما قيل في معنى ﴿ **لا مساس** ﴾ ثلاثة أوجه : الأول : أنه حرم عليه مماسة الناس ، وكان إذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس ، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً لا مساس . والثاني :أن المراد منع الناس من مخالطته ؛ واعترض بأنّ الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو : لا مساس ، وإنما يقال له. وأجيب بأن المراد الحكاية ، أي أجعلك يا سامرى بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت: لا مساس . والقول الثالث : أن المراد انقطاع نسله ، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة ، قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً .

ثم ذكر حاله في الآخرة فقال : ﴿ **وإن لك موعدا لن تخلفه** ﴾ أى لن يخلفك الله ذلك الموعد ، وهو يوم القيامة ، والموعد مصدر ، أى إن لك وعداً لعذابك ، وهو كائن لا محالة قال الزجاج : أى يكافئك الله على ما فعلت فى القيامة والله لا يخلف الميعاد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى والحسن : «لن تخلفه » بكسر اللام ، وله على هذه القراءة معنيان : أحدهما : ستأتيه ولن تجده مخلفاً كما تقول : أحمدته ، أى وجدته محموداً . والثاني : على التهديد ، أى لابدّ لك من أن تصير إليه . وقرأ ابن مسعود : « لن نخلفه » بالنون ، أى لن يخلفه الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وبالفوقية مبنياً للمفعول ، معناه ما قدمناه .

﴿ **وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا** ﴾ ظلت أصله : ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً ، والعرب تفعل ذلك كثيرا . وقرأ الأعمش اللامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود :« ظلت » بكسر الظاء . والمعنى : انظر إلى إلهك الذى دمت وأقمت على عبادته ، والعاكف : الملازم .﴿ **لنحرقنه** ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرّقه . وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرقه يحرقه . وقرأ على وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب والعقيلى :« لنحرقنه » بفتح النون وضم الراء مخففة ، من حرقت الشيء أحرقه حرقاً : إذا بردته وحككت بعضه ببعض ، أى لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد: المحرق . والقراءة الأولى أولى، ومعناها : الإحراق بالنار ، وكذا معنى القراءة الثانية، وقد جمع بين هذه القراءات الثلاث بأنه أحرق ، ثم برد بالمبرد ، وفى قراءة ابن مسعود : «لنذبحنه ثم لنحرقنه » واللام هى الموطئة للقسم .﴿ **ثم لننسفنه فى اليم نسفا** ﴾ النسف :نفض الشيء ليذهب به الريح .قرأ أبو رجاء :« لننسفنه » بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وهما لغتان . والمنسف : ما ينسف به الطعام ، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع، والنسافة : ما يسقط منه .

﴿ **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو** ﴾ لا هذا العجل الذى فتنكم به السامرىّ ﴿ **وسع كل شيء علما** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **وسع** ﴾ بكسر السين مخففة . وهو متعد إلى مفعول واحد ، وهو ﴿ **كل شيء** ﴾ . وانتصاب ﴿ **علما** ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل ، أى وسع علمه كل

شيء . وقرأ مجاهد وقتادة : « وسع » بتشديد السين وفتحها فيتعدى إلى مفعولين ، ويكون انتصاب ﴿ **علما** ﴾ على أنه المفعول الأول وإن كان متأخراً ؛ لأنه في الأصل فاعل ، والتقدير: وسع علمه كل شيء ، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف .

﴿ **كذلك نقص عليك** ﴾ الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، أي كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك ﴿ **من أنباء ما قد سبق** ﴾ أي من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك ، و« من » للتبعيض ، أي بعض أخبار ذلك ﴿ **وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾ المراد بالذكر: القرآن ، وسمى ذكراً ؛ لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار . وقيل : المراد بالذكر : الشرف ، كقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

ثم توعد سبحانه المعرضين عن هذا الذكر فقال : ﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا** ﴾ أي أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه . وقيل : أعرض عن الله سبحانه ، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً ، أي إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿ **خالدين فيه**﴾ في الوزر ، والمعنى : أنهم يقيمون في جزائه . وانتصاب : ﴿ **خالدين** ﴾ على الحال ﴿**وساء لهم يوم القيامة حملا** ﴾ أي بئس الحمل يوم القيامة ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي ساء لهم حملاً وزرهم واللام للبيان ، كما في : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ **يا هارون ما منعك** ﴾ إلى قوله : ﴿**أفعصيت أمرى** ﴾ قال: أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين ، فكان من إصلاحه أن ينكر العجل . وأخرج عنه أيضاً في قوله : ﴿ **ولم ترقب قولى** ﴾ قال : لم تنتظر قولى ما انا صانع ، وقال ابن عباس : ﴿ **لم ترقب** ﴾ : لم تحفظ قولى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس** ﴾ قال : عقوبة له ﴿ **وإن لك موعدا لن تخلفه** ﴾ قال : لن تغيب عنه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا** ﴾ قال : أقمت ﴿ **لنحرقنه** ﴾ قال : بالنار ﴿ **ثم لننسفنه في اليم** ﴾ قال : لنذرينه في البحر . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ :« لنحرقنه » خفيفة ، ويقول : إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار ، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ **اليم** ﴾ : البحر . وأخرج أيضاً عن عليّ قال :﴿ **اليم** ﴾ : النهر . وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله : ﴿ **وسع كل شيء علما** ﴾ قال : ملأ . وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله : ﴿ **من لدنا ذكرا** ﴾ قال : القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ **وزرا** ﴾ قال : إثماً . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وساء لهم يوم القيامة حملا** ﴾ يقول : بئس ما حملوا .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾.

الظرف وهو : ﴿ **يوم ينفخ** ﴾ متعلق بمقدر هو اذكر . وقيل : هو بدل من يوم القيامة ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ **ينفخ** ﴾ بضم الياء التحتية مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق بالنون مبنياً للفاعل ، واستدل أبو عمرو على قراءته هذه بقوله: ﴿ **ونحشر** ﴾ فإنه بالنون ، وقرأ ابن هرمز : « ينفخ » بالتحتية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل ، وقرأ أبو عياض : « فى الصور » بفتح الواو جمع صورة ، وقرأ الباقون بسكون الواو ، وقرأ طلحة بن مصرف والحسن :« يحشر » بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع ﴿**المجرمين**﴾ وهو خلاف رسم المصحف ، وقرأ الباقون بالنون. وقد سبق تفسير هذا فى الأنعام . والمراد بالمجرمين : المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التى لم يغفرها الله لهم ، والمراد بـ﴿**يومئذ** ﴾ : يوم النفخ فى الصور . وانتصاب ﴿ **زرقا** ﴾ على الحال من المجرمين ، أى زرق العيون ، والزرقة الخضرة فى العين كعين السنور والعرب تتشاءم بزرقة العين ، وقال الفراء : ﴿**زرقا** ﴾ أى عمياء . وقال الأزهرى : عطاشاً ، وهو قول الزجاج ؛ لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقة . وقيل : إنه كنى بقوله : ﴿ **زرقا** ﴾ عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة . وقيل : هو كناية عن شخوص البصر من شدة الحوص ، ومنه قول الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا بن معكبر   كما كل ضبىّ من اللؤم أزرق

والقول الأول أولى ، والجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم .

وجملة : ﴿ **يتخافتون بينهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه فى ذلك اليوم ، والخفت فى اللغة : السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته : خفته . والمعنى : يتساررون ، أى يقول بعضهم لبعض سراً : ﴿ **إن لبثتم إلا عشرا** ﴾ أى ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال . وقيل : فى القبور . وقيل : بين النفختين ، والمعنى :أنهم يستقصرون مدة مقامهم

فى الدنيا ، أو فى القبور ، أو بين النفختين لشدة ما يرون من أهوال القيامة. وقيل: المراد بالعشر : عشر ساعات . ثم لـما قالوا هذا القول قال الله سبحانه : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة** ﴾ أى أعدلهم قولاً وأكملهم رأيًا وأعلمهم عند نفسه : ﴿ **إن لبثتم إلا يوما** ﴾ أى ما لبثتم إلا يوماً واحداً ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ؛ لكونه أدل على شدّة الهول ، لا لكونه أقرب إلى الصدق .

﴿ **ويسألونك عن الجبال** ﴾ أى عن حال الجبال يوم القيامة ، وقد كانوا سألوا النبى ﷺ عن ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **فقل ينسفها ربى نسفا** ﴾ قال ابن الأعرابى وغيره : يقلعها قلعاً من أصولها، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ، ثم كالهباء المنثور . والفاء فى قوله : ﴿ **فقل** ﴾ لجواب شرط مقدّر ، والتقدير: إن سألوك فقل ، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين. والضمير فى قوله : ﴿ **فيذرها** ﴾ راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها ، أى فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال ﴿ **قاعا صفصفا** ﴾ قال ابن الأعرابى : القاع الصفصف : الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء ، وقال الفراء : القاع : مستنقع الماء ، والصفصف : القرعاء الملساء التى لا نبات فيها . وقال الجوهرى : القاع : المستوى من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان . والظاهر من لغة العرب أن القاع : الموضع المنكشف ، والصفصف : المستوى الأملس ، وأنشد سيبويه :

وكم دون بيتك من صفصف ودكـداك رمـل وأعقـادها

وانتصاب : ﴿ **قاعا** ﴾ على أنه مفعول ثان ليذر على تضمينه معنى التصيير ، أو على الحال والصفصف صفة له . ومحل :﴿ **لا ترى فيها عوجا** ﴾ النصب على أنه صفة ثانية لـ﴿**قاعا**﴾ والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار . والعوج بكسر العين : التعوج ، قاله ابن الأعرابى . والأمت : التلال الصغار . والأمت فى اللغة : المكان المرتفع . وقيل : العوج : الميل ، والأمت : الأثر مثل الشراك . وقيل : العوج : الوادى ، والأمت : الرابية . وقيل : هما الارتفاع . وقيل : العوج : المصدوع ، والأمت : الأكمة . وقيل : الأمت : الشقوق فى الأرض . وقيل : الأمت : أن يغلظ فى مكان ويدق فى مكان . ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ها هنا يدفع ما يقال : إن العوج بكسر العين فى المعانى وبفتحها فى الأعيان ، وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما عنه غنى ، وفى غيره سعة .

﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ أى يوم نسف الجبال يتبع الناس داعى الله إلى المحشر. وقال الفراء : يعنى صوت الحشر ، وقيل : الداعى هو إسرافيل إذا نفخ فى الصور لا عوج له ، أى لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين .وقيل :لا عوج لدعائه﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن**﴾ أى خضعت لهيبته ، وقيل : ذلت . وقيل : سكتت ، ومنه قول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

﴿ فلا تسمع إلا همسا ﴾ الهمس : الصوت الخفى . قال أكثر المفسرين : هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ، ومنه قول الشاعر :

وهنّ يمشين بنا هميسا

يعنى صوت أخفاف الإبل.

وقال رؤبة يصف نفسه :

ليث يدق الأسد الهموسا ولا يهاب الفيل والجاموسا

يقال للأسد : الهموس ؛ لأنه يهمس فى الظلمة ، أى يطأ وطأ خفياً . والظاهر أن المراد هنا : كل صوت خفى سواء كان بالقدم ، أو من الفم ، أو غير ذلك ، ويؤيده قراءة أبى بن كعب : « فلا ينطقون إلا همساً » .

﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ أى يوم يقع ما ذكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائنا من كان ﴿إلا من أذن له الرحمن ﴾ أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له ﴿ ورضى له قولا ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة أو رضى لأجله قول الشافع . والمعنى : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقوله : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ [مريم : ٨٧] ، وقوله : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : ٤٨] .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أى ما بين أيديهم من أمر الساعة ، وما خلفهم من أمر الدنيا ، والمراد هنا : جميع الخلق . وقيل : المراد بهم : الذين يتبعون الداعى ، وقال ابن جرير : الضمير يرجع إلى الملائكة ، أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ أى بالله سبحانه ، لا تحيط علومهم بذاته ، ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته . وقيل : الضمير راجع إلى ما فى الموضعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ أى ذلت وخضعت ، قاله ابن الأعرابى . قال الزجاج : معنى عنت فى اللغة : خضعت ، يقال : عنى يعنو عنواً : إذا خضع ، ومنه قيل للأسير : عان ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل : هو من العناء ، بمعنى التعب ﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ أى خسر من حمل شيئاً من الظلم . وقيل: هو الشرك . ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ أى الأعمال الصالحة ﴿وهو مؤمن ﴾ بالله ؛ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان ، بل هو شرط فى القبول ﴿ فلا يخاف ظلما ﴾ يصاب به من نقص ثواب فى الآخرة ﴿ ولا هضما ﴾ الهضم : النقص والكسر ،

يقال: هضمت لك من حقى ، أى حططته وتركته . وهذا يهضم الطعام ، أى ينقص ثقله . وامرأة هضيم الكشح ، أى ضامرة البطن . وقرأ ابن كثير ومجاهد : « لا يخف » بالجزم جواباً لقوله: ﴿ **ومن يعمل من الصالحات** ﴾ وقرأ الباقون : ﴿ **يخاف** ﴾ على الخبر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه ، فقال رأيت قوله : ﴿ **ونحشر المجرمين يومئذ زرقا** ﴾ وأخرى عمياً قال : إن يوم القيامة فيه حالات يكونون فى حال زرقاً ، وفى حال عمياً . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يتخافتون بينهم** ﴾ قال يتساررون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **أمثلهم طريقة** ﴾ قال : أوفاهم عقلاً ، وفى لفظ قال : أعلمهم فى نفسه .

وأخرج ابن المنذر وابن جريج قال : قالت قريش : كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت : ﴿**ويسألونك عن الجبال** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فيذرها قاعا صفصفا** ﴾ قال : لا نبات فيه ﴿ **لا ترى فيها عوجا** ﴾ قال : وادياً ﴿ **ولا أمتا** ﴾ قال : رابية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله :﴿ **قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجاْ ولا أمتا** ﴾ قال : كان ابن عباس يقول : هى الأرض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **عوجا** ﴾ قال : ميلاً ﴿ **ولا أمتا** ﴾ قال : الأمت : الأثر مثل الشراك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى منادٍ فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قول الله : ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى الآية : قال لا عوج عنه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وخشعت الأصوات** ﴾ قال : سكتت ﴿ **فلا تسمع إلا همسا** ﴾ قال :الصوت الخفى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إلا همسا** ﴾ قال : صوت وطء الأقدام. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الصوت الخفى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : سر الحديث وصوت الأقدام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وعنت الوجوه** ﴾ قال : ذلت . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : خشعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال :خضعت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :﴿ **وعنت الوجوه** ﴾ : الركوع والسجود. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ قال : شركاً . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة : ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ قال : شركاً ﴿ **فلا يخاف ظلما**

ولا هضما ﴾ قال : ظلماً أن يزاد في سيئاته ﴿ **ولا هضما** ﴾ قال : ينقص من حسناته . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : لا يخاف أن يظلم في سيئاته ، ولا يهضم في حسناته . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه ﴿ **ولا هضما** ﴾ قال : غضباً .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾.

قوله : ﴿ **وكذلك أنزلناه** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **كذلك نقص عليك** ﴾ أي مثل ذلك الإنزال أنزلناه ، أي القرآن حال كونه ﴿ **قرآنا عربيا** ﴾ أي بلغة العرب ليفهموه ﴿ **وصرفنا فيه من الوعيد** ﴾ بينا فيه ضروباً من الوعيد تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿ **لعلهم يتقون**﴾ أي كي يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿ **أو يحدث لهم ذكرا** ﴾ أي اعتباراً واتعاظاً. وقيل : ورعاً . وقيل : شرفاً . وقيل : طاعة وعبادة ؛ لأن الذكر يطلق عليها . وقرأ الحسن : «أو نحدث » بالنون .

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء ، أي جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون في صفاته ، فإنه الملك الذي بيده الثواب والعقاب ، وأنه الحق أي ذو الحق ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه** ﴾ أي يتم إليك وحيه . قال المفسرون : كان النبي ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما كان ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك ، ومثله قوله : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : ١٦] على ما يأتي إن شاء الله . وقيل : المعنى : ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، وقرأ ابن مسعود ويعقوب والحسن والأعمش : « من قبل أن نقضى » بالنون ونصب :« وحيه » . ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾ أي سل ربك زيادة العلم بكتابه.

﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم** ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من

تصريف الوعيد ، أى لقد أمرناه ووصيناه ، والمعهود محذوف ، وهو ما سيأتى من نهيه عن الأكل من الشجرة ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ : أى من قبل هذا الزمان ﴿ **فنسى** ﴾ قرأ الأعمش بإسكان الياء ، والمراد بالنسيان هنا : ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين . وقيل : النسيان على حقيقته ، وأنه نسى ما عهد الله به إليه وينتهى عنه ، وكان آدم مأخوذاً بالنسيان فى ذلك الوقت ، وإن كان النسيان مرفوعاً عن هذه الأمة . والمراد من الآية : تسلية النبى ﷺ على القول الأوّل ، أى أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيرى . واعترضه ابن عطية قائلاً بأن كون آدم مماثلاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشىء ، وقرئ : « فنسى » بضم النون وتشديد السين مكسورة مبنياً للمفعول ، أى فنساه إبليس ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ العزم فى اللغة : توطين النفس على الفعل والتصميم عليه ، والمضى على المعتقد فى أى شىء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على ألا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك ، فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر . وقيل : العزم : الصبر ، أى لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة . قال النحاس : وهو كذلك فى اللغة ، يقال : لفلان عزم ، أى صبر وثبات على التحفظ عن المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه : ﴿ كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقيل : المعنى : ولم نجد له عزماً على الذنب ، وبه قال ابن كيسان . وقيل : ولم نجد له رأياً معزوماً عليه ، وبه قال ابن قتيبة .

ثم شرع سبحانه فى كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، والعامل فى إذ مقدّر ، أى واذكر ﴿ **إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة ؛ لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة فى البقرة مستوفى ، ومعنى ﴿ **فتشقى** ﴾ : فتتعب فى تحصيل ما لابد منه فى المعاش كالحرث والزرع ، ولم يقل : « فتشقيا » ؛ لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده .

ثم علل ما يوجبه ذلك النهى بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام ، فقال : ﴿ **إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾ أى فى الجنة . والمعنى : أن لك فيها تمتعاً بأنواع المعايش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية ، فإنه لما نفى عنه الجوع والعرى أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له ، وهكذا قوله : ﴿ **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ فإن نفى الظمأ يستلزم حصول الرى ووجود المسكن الذى يدفع عنه مشقة الضحو ، يقال : ضحى الرجل يضحى ضحواً : إذا برز للشمس فأصابه حرّها ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكدّ فى تحصيله ، ولا ريب أن أصول المتاعب فى الدنيا هى تحصيل الشبع والرى والكسوة والسكن ، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها ، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله فى الجنة هذا كله ، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من

الجنة إلى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعرى والظمأ والضحو . فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا ، كما قاله كثير من المفسرين ، لا شقاء الأخرى . قال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصماً : « وأنك لتظمأ » بفتح أن ، وقرأ الباقون بكسرها على العطف على إن لك .

﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى الأعراف فى قوله : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ [الآية : ٢٠] أى أنهى إليه وسوسته ، وجملة ﴿ **قال يا آدم** ﴾ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال له فى وسوسته ؟ و﴿ **شجرة الخلد**﴾ هي الشجرة التى من أكل منها لم يمت أصلاً ﴿ **وملك لا يبلى** ﴾ أى لا يزول ولا ينقضى ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى الأعراف. قال الفراء: ومعنى طفقا فى العربية : أقبلا . وقيل : جعلا يلصقان عليهما من ورق التين ﴿**وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ أى عصاه بالأكل من الشجرة فغوى فضل عن الصواب أو عن مطلوبه ، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة . وقيل : فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا . وقيل : جهل موضع رشده . وقيل : بشم من كثرة الأكل . قال ابن قتيبة : أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها باستزلال إبليس وخدائعه إياه ، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ، ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة ، فنحن نقول : عصى آدم ربه فغوى . انتهى . قال القاضى أبو بكر بن العربى : لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم . قلت : لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله فى كتابه بأنه عصاه ، وكما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومما قلته فى هذا المعنى :

عصى أبو العالم وهو الذى ... من طينـــة صـــوره الله
وأسجـد الأملاك مـن أجـله ... وصيـر الجـنـة مـأواه
أغواه إبليس فمن ذا أنا المسـ ... ـكين إن إبليـس أغــواه

﴿ **ثم اجتباه ربه** ﴾ أى اصطفاه وقربه . قال ابن فورك : كانت المعصية من آدم قبل النبوة بدليل ما فى هذه الآية ، فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية ، وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿ **فتاب عليه وهدى** ﴾ أى تاب عليه من معصيته ، وهداه إلى الثبات على التوبة . قيل : وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٣]. وقد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**أو يحدث لهم**﴾ أى القرآن ﴿ **ذكرا** ﴾ قال : جداً وورعاً . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن** ﴾ يقول : لا تعجل حتى نبينه لك . وأخرج الفريابى وابن جرير

وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : لطم رجل امرأته ، فجاءت إلى النبى ﷺ تطلب قصاصاً ، فجعل النبى ﷺ بينهما القصاص ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن** ﴾ الآية ، فوقف النبى ﷺ حتى نزلت : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [النساء: ٣٤] (١). وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تعجل** ﴾ الآية قال : لا تتله على أحد حتى نتمه لك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،وابن منده فى التوحيد ، والطبرانى فى الصغير وصححه عن ابن عباس قال : إنما سمى الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فنسى . وأخرج عبد الغنى وابن سعد عن ابن عباس : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم** ﴾ ألا تقرب الشجرة ﴿ **فنسى** ﴾ فترك عهدى ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ قال : حفظاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً ﴿ **فنسى**﴾ فترك ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ يقول:لم نجعل له عزماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ **إنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾ قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حرّ . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهى شجرة الخلد » (٢) . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « حاج آدم موسى قال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك ، قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى ، أو قدره على قبل أن يخلقنى » ، قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » (٣) .

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾.

قوله : ﴿ **قال اهبطا** ﴾ قد مرّ تفسيره فى البقرة ، أى انزلا من الجنة إلى الأرض ، خصهما الله سبحانه بالهبوط ؛ لأنهما أصل البشر ، ثم عمم الخطاب لهما ولذريّتهما فقال : ﴿**بعضكم لبعض عدو** ﴾ والجملة فى محل نصب على الحال، ويجوز أن يقال : خاطبهما فى هذا وما بعده

(١) ابن جرير ٥/ ٣٨ . (٢) أحمد ٢/ ٤٥٥ .
(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٤٠٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٣ / ١٣) .

خطاب الجمع ؛ لأنهما منشأ الأولاد . ومعنى ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ : تعاديهم فى أمر المعاش ونحوه ، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى ﴾ أى عن دينى ، وتلاوة كتابى ، والعمل بما فيه ، ولم يتبع هداى ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ أى فإن له فى هذه الدنيا معيشة ضنكاً ، أى عيشاً ضيقاً . يقال: منزل ضنك وعيش ضنك ، مصدر يستوى فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث ، قال عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت   مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

وقرئ : « ضُنكى » بضم الضاد على فُعلى ، ومعنى الآية : أن الله عزّ وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش فى الدنيا عيشاً هنياً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة﴾ [النحل : ٩٧]. وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً وفى تعب ونصب ، ومع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب، فهو فى الأخرى أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً ، وذلك معنى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ أى مسلوب البصر . وقيل : المراد : العمى عن الحجة . وقيل : أعمى عن جهات الخير لا يهتدى إلى شىء منها . وقد قيل : إن المراد بالمعيشة الضنكى : عذاب القبر ، وسيأتى ما يرجح هذا ويقويه.

﴿ قال ربى لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ فى الدنيا ﴿ قال كذلك ﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسره بقوله : ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ أى مثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا تنسى ، أى تترك فى العمى والعذاب فى النار . قال الفراء : يقال : إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى فى حشره .

﴿ وكذلك نجزى من أسرف ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزيه . والإسراف : الانهماك فى الشهوات . وقيل : الشرك .﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ بل كذب بها ﴿ ولعذاب الآخرة أشد ﴾ أى أفظع من المعيشة الضنكى ﴿ وأبقى ﴾ أى أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع .

وقد أخرج ابن أبى شيبة والطبرانى، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ: « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة فى الدنيا ،ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله يقول : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ » (١) .

---

(١) ابن أبى شيبة فى فضائل القرآن (١٠٠٠٤) والطبرانى (١٢٤٣٧) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة ، ثم قرأ : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ قال : لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ، ومسدد فى مسنده ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً فى قوله :﴿ **معيشة ضنكا** ﴾ قال : عذاب القبر[1]. ولفظ عبد الرزاق قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه. ولفظ ابن أبى حاتم قال :ضمة القبر. وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وقد روى موقوفاً . قال ابن كثير : الموقوف أصح. وأخرج البزار وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ قال : « المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » . وأخرج ابن أبى الدنيا والحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه [2]. قال ابن كثير:رفعه منكر جداً[3] . وأخرج ابن أبى شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فإن له معيشة ضنكاً** ﴾ قال : «عذاب القبر» [4] . قال ابن كثير بعد إخراجه : إسناد جيد [5] . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ قال : عذاب القبر ، ومجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود ؛ أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ قال : عمى عليه كل شىء إلا جهنم ، وفى لفظ : لا يبصر إلا النار . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله : ﴿ **وكذلك نجزى من أسرف** ﴾ قال : من أشرك بالله .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ

(١) ابن جرير ١٦ / ١٦٤ وصححه الحاكم ٢/ ٣٨١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٢) أبو يعلى (٦٦٤٤) وابن جرير ١٦/ ١٦٥ . (٣) ابن كثير ٤/ ٥٤٤ .
(٤) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦٦٨٧) والحاكم ٢/ ٣٨١ كلاهما عن أبى سعيد الخدرى .
(٥) ابن كثير ٤/ ٥٤٥ .

النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **أفلم يهد لهم** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر ، كما مرّ غير مرّة ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها ، والمفعول محذوف ، وأنكر البصريون مثل هذا ؛ لأن الجمل لا تقع فاعلاً ، وجوزه غيرهم . قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم . قال النحاس: وهذا خطأ ؛ لأن «كم» استفهام ، فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى : أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى ، فالفاعل هو الهدى ،وقال: « كم » في موضع نصب بـ﴿ **أهلكنا**﴾. وقيل : إن فاعل ﴿ **يهد** ﴾ ضمير لله أو للرسول ، والجملة بعده تفسره ، ومعنى الآية على ما هو الظاهر: أفلم يتبين لأهل مكة خبر من ﴿ **أهلكنا قبلهم من القرون** ﴾ حال كون القرون ﴿**يمشون فى مساكنهم** ﴾ ويتقلبون فى ديارهم ، أو حال كون هؤلاء يمشون فى مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط ،فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم ، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك . وقرأ ابن عباس والسلمى : « نهد » بالنون ، والمعنى على هذه القراءة واضح ،وجملة: ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى مضمون ﴿ **كم أهلكنا** ﴾ إلى آخره . والنهى : جمع نهية ، وهى العقل ، أى لذوى العقول التى تنهى أربابها عن القبيح .

﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ أى ولولا الكلمة السابقة ، وهى وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿ **لكان** ﴾ عقاب ذنوبهم ﴿ **لزاما** ﴾ أى لازماً لهم ، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر . وقوله : ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ معطوف على ﴿ **كلمة** ﴾ قاله الزجاج وغيره ؛ والأجل المسمى هو : يوم القيامة ، أو يوم بدر . واللزام مصدر لازم . قيل : ويجوز عطف ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ على الضمير المستتر فى كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق ؛ تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد ، أى لكان الأخذ العاجل ﴿ **وأجل مسمى** ﴾ لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، وفيه تعسف ظاهر .

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر ، فقال : ﴿ **فاصبر**

على ما يقولون ﴾ من أنك ساحر كذاب ، ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة ، والمعنى : لا تحتفل بهم ، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر . وقيل : هذا منسوخ بآية القتال ﴿**وسبح بحمد ربك** ﴾ أى متلبساً بحمده . قال أكثر المفسرين : والمراد : الصلوات الخمس كما يفيد قوله : ﴿ **قبل طلوع الشمس** ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿ **ومن آناء الليل** ﴾ العتمة ، والمراد بالآناء : الساعات ، وهى جمع إنى بالكسر والقصر ، وهو الساعة ، ومعنى ﴿ **فسبح** ﴾: أى فصل ﴿ **وأطراف النهار** ﴾ : أى المغرب والظهر لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأوّل ، وأول طرف النهار الآخر . وقيل: إن الإشارة إلى صلاة الظهر هى بقوله : ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ لأنها هى وصلاة العصر قبل غروب الشمس . وقيل : المراد بالآية : صلاة التطوع . ولو قيل : ليس فى الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح فى هذه الأوقات ، أى قول القائل : سبحان الله ، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب . والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازى ، وجملة : ﴿ **لعلك ترضى** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **فسبح** ﴾ أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك ، هذا على قراءة الجمهور . وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم : « ترضى » بضم التاء مبنياً للمفعول ، أى يرتضيك ربك .

﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم** ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية فى الحجر . والمعنى : لا تطل نظرعينيك ، و ﴿ **أزواجا** ﴾ مفعول ﴿ **متعنا** ﴾ . و﴿ **زهرة** ﴾ منصوبة على الحال ، أو بفعل محذوف ، أى جعلنا أو أعطينا ، ذكر معنى هذا الزجاج . وقيل : هى بدل من الهاء فى : ﴿ **به** ﴾ باعتبار محله ، وهو النصب لا باعتبار لفظه ، فإنه مجرور كما تقول : مررت به أخاك . ورجح الفراء النصب على الحال ، ويجوز أن تكون بدلاً ، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله و﴿ **زهرة الحياة الدنيا** ﴾ : زينتها وبهجتها بالنبات وغيره . وقرأ عيسى بن عمر: « زهرة » بفتح الهاء ، وهى نور النبات ، واللام فى : ﴿**لنفتنهم فيه** ﴾ متعلق ﴿ **بمتعنا** ﴾ أى لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ، ابتلاءً منا لهم، كقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ [الكهف : ٩] وقيل : لنعذبنهم . وقيل : لنشدد عليهم فى التكليف ﴿ **ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ أى ثواب الله ، وما ادّخر لصالحى عباده فى الآخرة خير مما رزقهم فى الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع، وهذا ينقطع ، وهو معنى ﴿ **وأبقى** ﴾ . وقيل : المراد بهذا الرزق: ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأول أولى ؛ لأن الخيرية المحققة والدوام الذى لا ينقطع إنما يتحققان فى الرزق الأخروى لا الدنيوى ، وإن كان حلالاً طيباً : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ [النحل : ٩٦] .

﴿ **وأمر أهلك بالصلاة** ﴾ أمره الله سبحانه بأن يأمر أهله بالصلاة. والمراد بهم: أهل بيته. وقيل : جميع أمته ، ولم يذكر ها هنا الأمر من الله له بالصلاة ، بل قصر الأمر على

أهله ، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً ، أو لكون أمره بها قد تقدّم فى قوله : ﴿ **وسبح بحمد ربك** ﴾ إلى آخر الآية ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ، ولهذا قال: ﴿ **واصطبر عليها** ﴾ أى اصبر على الصلاة ، ولا تشغل عنها بشىء من أمور الدنيا ﴿ **لا نسألك رزقاً** ﴾ أى لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿ **نحن نرزقك** ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ أى العاقبة المحمودة ، وهى الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش . وفيه دليل على أن التقوى هى ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

﴿ **وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه** ﴾ أى قال كفار مكة : هلا يأتينا محمد بآية من آيات ربه كما كان يأتى بها من قبله من الأنبياء ؟ وذلك كالناقة والعصا ، أو هلا يأتينا بآية من الآيات التى قد اقترحناها عليه ؟ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ **أو لم يأتهم بينة ما فى الصحف الأولى** ﴾ يريد بالصحف الأولى : التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة ، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، وذلك يكفى ، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم . وقيل : المعنى : أولم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التى اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم . وقيل : المراد : أو لم تأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن ، فإنه برهان: لما فى سائر الكتب المنزلة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبى إسحاق وحفص : ﴿ **أو لم تأتهم** ﴾ بالتاء الفوقية، وقرأ الباقون بالتحتية ؛ لأن معنى البينة : البيان والبرهان ، فذكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة، واختار هذه القراءة ابن عبيد وأبو حاتم . قال الكسائى : ويجوز : « بينة » بالتنوين . قال النحاس: إذا نونت بينة ورفعت جعلت « ما » بدلاً منها، وإذا نصبت فعلى الحال . والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيناً ، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوى وإن لم تقع القراءة به .

﴿ **ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله** ﴾ أى من قبل بعثة محمد ﷺ ، أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿ **لقالوا** ﴾ يوم القيامة ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا** ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولاً فى الدنيا ﴿ **فنتبع آياتك**﴾ التى يأتى بها الرسول ﴿ **من قبل أن نذل** ﴾ بالعذاب فى الدنيا ﴿**ونخزى** ﴾ بدخول النار، وقرئ :«نذل ونخزى » على البناء للمفعول . وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ؛ ولهذا حكى الله عنهم أنهم : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ﴾ [الملك : ٩] .

﴿ **قل كل متربص فتربصوا** ﴾ أى قل لهم يا محمد : كل واحد منا ومنكم متربص ، أى منتظر لما يؤول إليه الأمر فتربصوا أنتم ﴿ **فستعلمون** ﴾ عن قريب ﴿ **من أصحاب الصراط السوى**﴾ أى فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم ﴿ **ومن اهتدى** ﴾

من الضلالة ونزع عن الغواية ، و« من » فى الموضعين فى محل رفع بالابتداء . قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿ **من أصحاب الصراط السوى** ﴾ : من لم يضل ، وإلى أن معنى ﴿ **من اهتدى** ﴾ : من ضل ثم اهتدى . وقيل : « من » فى الموضعين فى محل نصب ، وكذا قال الفراء . وحكى عن الزجاج أنه قال: هذا خطأ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . وقرأ أبو رافع : « فسوف تعلمون » وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى : « السوى » على فعلى ، وردت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ . وقيل : هى بمعنى الوسط والعدل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أفلم يهد لهم** ﴾ : ألم نبين لهم ﴿ **كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم** ﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم . وفى قوله : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى** ﴾ يقول : هذا من مقاديم الكلام ، يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : الأجل المسمى : الكلمة التى سبقت من ربك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **لكان لزاما** ﴾ قال : موتاً .

وأخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**وسبح بحمد ربك** ﴾ الآية قال : هى الصلاة المكتوبة . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس** ﴾ قال :«قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر » (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، وقرأ: ﴿ **فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾ (٢) . وفى صحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى عن عمارة بن رؤبة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والخرائطى وأبو نعيم عن أبى رافع قال : أضاف النبى ﷺ ضيفاً ، ولم يكن عند النبى ﷺ ما يصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من اليهود : أن بعنا أو سلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلا برهن ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فقال : « أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأديت إليه ، اذهب بدرعى الحديد » فلم

---

(١) الطبرانى (٢٢٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٠ : « فيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف » .

(٢) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٤) ومسلم فى المساجد (٦٣٣/ ٢١١) وأبو داود فى السنة (٤٧٢٩) والترمذى فى كتاب الجنة (٢٥٥٤) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) مسلم فى المساجد (٦٣٤/ ٢١٣) وأبو داود فى الصلاة (٤٢٧) والنسائى ١/ ٢٣٥ .

أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تمدن عينيك** ﴾ (١) كأنه يعزيه عن الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا » ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : « بركات الأرض » .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة** ﴾ كان النبى ﷺ يجىء إلى باب على صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول : الصلاة رحمكم الله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . وأخرج ابن مردويه عن أبى الحمراء نحوه . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ثابت قال : كان النبى ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى الشعب بإسناد ، قال السيوطى : صحيح ، عن عبد الله بن سلام قال: كان النبى ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة** ﴾ الآية (٢) .

(١) ابن جرير ١٦/ ١٦٩ .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات » وأبو نعيم فى الدلائل ٨/ ١٧٦ . وهو غريب من حديث معمر وابن المبارك .

تفسير سورة الأنبياء

وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وهى مائة واثنتا عشرة آية . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هن من العتاق الأول، وهنّ من تلادى (١) . وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية عن عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما فى العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر : لا حاجة لى فى قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)** ﴾.

يقال : قرب الشىء واقترب وقد اقترب الحساب ، أى قرب الوقت الذى يحاسبون فيه . قال الزجاج : المعنى: ﴿ **اقترب للناس** ﴾ وقت ﴿ **حسابهم**﴾ أى القيامة كما فى قوله : ﴿اقتربت الساعة ﴾ [القمر: ١] واللام فى ﴿ **للناس** ﴾ متعلقة بالفعل ، وتقديمها هى ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب وقت الحساب : دنوه منهم ، لأنه فى كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التى قبلها . وقيل : لأن كل ما هو آت قريب ، وموت كل إنسان قيام ساعته . والقيامة أيضًا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان فما بقى من الدنيا أقل مما مضى، والمراد بالناس : العموم . وقيل : المشركون مطلقًا. وقيل : كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل : المراد بالحساب : عذابهم يوم بدر ، وجملة : ﴿ **وهم فى غفلة معرضون** ﴾ فى محل نصب على

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨ ، ٤٧٣٩) .
(٢) أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٧٩ .

الحال ، أى هم فى غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله . والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه .

﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ : « من » لابتداء الغاية . وقد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثا على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو : القرآن . وأجيب بأنه: لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد فى النزول . فالمعنى محدث تنزيله ، وإنما النزاع فى الكلام النفسى .

وهذه المسألة ، أعنى قدم القرآن وحدوثه ، قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل فى الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية ، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعى ، وصارت فتنة عظيمة فى ذلك الوقت وما بعده .والقصة أشهر من أن تذكر . ومن أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبى . ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال : لفظ القرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف . وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب ، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسألة شيء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة فى ذلك ، فكان الامتناع من الإجابة إلى مادعوا إليه والتمسك بأذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه .

وقوله : ﴿ **إلا استمعوه** ﴾ استثناء مفرغ فى محل نصب على الحال . وجملة : ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ فى محل نصب على الحال أيضًا من فاعل استمعوه ،و﴿ **لاهية قلوبهم** ﴾ حال أيضًا ، والمعنى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا فى الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب ، وقرئ : « لاهية » بالرفع كما قرئ : « محدث » بالرفع ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا** ﴾ النجوى : اسم من التناجى ، والتناجى لا يكون إلا سراً، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة فى الإخفاء . وقد اختلف فى محل الموصول على أقوال ، فقيل : إنه فى محل رفع بدل من الواو فى ﴿ **أسروا** ﴾ قاله المبرد وغيره . وقيل : هو فى محل رفع على الذم . وقيل: هو فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : يقول الذين ظلموا، واختار هذا النحاس ، وقيل : فى محل نصب بتقدير أعنى. وقيل : فى محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد. وقيل: هو فى محل رفع على أنه فاعل ﴿ **أسروا** ﴾ على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين ، كقولهم : أكلونى البراغيث ، ذكر ذلك الأخفش ، ومثله ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾

[المائدة : ٧١] ومنه قول الشاعر :

فاهتدين النبـالُ للأغراض

وقول الآخر :

ولـكن ديـافيٌّ أبـوه وأمـه بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ، أى والذين ظلموا أسرّوا النجوى . قال أبو عبيدة : أسروا هنا من الأضداد؛ يحتمل أن يكون بمعنى : أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى : أظهروه وأعلنوه ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها ، أى قالوا : هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشىء؟ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من ﴿**النجوى**﴾، وهل بمعنى النفى ، أى وأسروا هذا الحديث ، والهمزة فى ﴿ **أفتأتون السحر** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وجملة : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى : إذا كان بشرًا مثلكم ، وكان الذى جاء به سحرًا ، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه .

فأطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به ، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض** ﴾ أى لا يخفى عليه شىء مما يقال فيهما ، وفى مصاحف أهل الكوفة : ﴿ **قال ربى** ﴾ أى قال محمد : ربى يعلم القول ، فهو عالم بما تناجيتم به . قيل القراءة الأولى أولى ، لأنهم أسرّوا هذا القول ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا . قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة آيتين ﴿ **وهو السميع** ﴾ لكل ما يسمع ﴿ **العليم** ﴾ بكل معلوم ، فيدخل فى ذلك ما أسروا دخولا أوليا .

﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ قال الزجاج : أى قالوا: الذى تأتى به أضغاث أحلام . قال القتيبى : أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة . وقال اليزيدى : الأضغاث ما لم يكن له تأويل ، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول . ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم : أضغاث أحلام ، قال : ﴿ **بل افتراه** ﴾ أى بل قالوا: افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل . ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ **بل هو شاعر** ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، وفى هذا الاضطراب منهم ، والتلوّن والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به ، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ؟ أو كانوا قد علموا أنه حق ، وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان . ثم بعد هذا كله ، قالوا : ﴿ **فليأتنا بآية** ﴾ وهذا جواب شرط محذوف ، أى إن لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية ﴿ **كما أرسل الأولون** ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجر صفة لآية ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفى ، ولو علم الله سبحانه أنهم

يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك، كما قال : ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : ٢٣] قال الزجاج : اقترحوا الآيات التى لا يقع معها إمهال ، فقال الله مجيباً لهم : ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية** ﴾ أى قبل مشركى مكة، ومعنى ﴿ **من قرية** ﴾ : من أهل قرية ، ووصف القرية بقوله : ﴿ **أهلكناها** ﴾ أى أهلكنا أهلها، أوأهلكناها بإهلاك أهلها . وفيه بيان سنة الله فى الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، و«من » فى ﴿ **من قرية** ﴾ مزيدة للتأكيد ، والمعنى : ما آمنت قرية من القرى التى أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ، فكيف نعطيهم ما يقترحون ،وهم أسوة من قبلهم ، والهمزة فى ﴿ **أفهم يؤمنون** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا ، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** ﴾ أى لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالا من البشر ، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا ﴾ [الإسراء : ٩٥] .وجملة :﴿ **نوحى إليهم** ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال ، ويجوز أن تكون صفة لـ ﴿ **رجالا** ﴾ أى متصفين بصفة الإيحاء إليهم . قرأ حفص وحمزة والكسائى : ﴿ **نوحى** ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : « يوحى » . ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ وأهل الذكر هم : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ومعنى ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ : إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر ، كذا قال أكثر المفسرين . وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه ، وتقدير الكلام : إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر . وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن الرأى البحت ، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته . وقد أوضحنا هذا فى رسالة بسيطة سميناها : « القول المفيد فى حكم التقليد ».

ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال : ﴿**وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ أى أن الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان . قال الزجاج : هو واحد ، يعنى الجسد ينبئ عن جماعة ، أى وما جعلناهم ذوى أجساد لا يأكلون الطعام فجملة : ﴿**لايأكلون الطعام** ﴾ صفة لـ ﴿ **جسدا** ﴾ أى وما جعلناهم جسدًا مستغنيا عن الأكل ، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿ **وما كانوا خالدين** ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

وجملة : ﴿ **ثم صدقناهم الوعد** ﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق ، والتقدير :

أوحينا إليهم ما أوحينا ﴿ **ثم صدقناهم الوعد** ﴾، أى أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **فأنجيناهم ومن نشاء** ﴾ من عبادنا المؤمنين ، والمراد: إنجاؤهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى ، والمراد بـ﴿ **المسرفين** ﴾ : المجاوزون للحدّ فى الكفر والمعاصى ، وهم المشركون .

وقد أخرج النسائى (١) عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وهم فى غفلة معرضون**﴾ قال :« فى الدنيا ». وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ فى الآية قال : « من أمر الدنيا » .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ أى فعل الأحلام إنما هى رؤيا رآها ﴿ **بل افتراه بل هو شاعر** ﴾ كل هذا قد كان منه ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها** ﴾ أى أن الرسل كانوا إذا جاؤوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبى ﷺ : إذا كان ما تقوله حقًا ويسرّك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبًا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا لم يُنظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : « بل أستأنى بقومى » ، فأنزل الله : ﴿ **ما آمنت قبلهم** ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ يقول : لم نجعلهم جسدًا ليس يأكلون الطعام ، إنما جعلناهم جسدًا يأكلون الطعام .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٥١) .
(٢) ابن جرير ١٤/ ٧٤، ٧٥ .

فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ صفة لـ﴿ **كتابا** ﴾ ، والمراد بالذكر هنا :الشرف ، أى فيه شرفكم كقوله :﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] وقيل : ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ أى ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب . وقيل : فيه حديثكم ، قاله مجاهد . وقيل : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم. وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم . قاله سهل بن عبد الله. وقيل : فيه موعظتكم ، والاستفهام فى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ للتوبيخ والتقريع ، أى أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أولا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر .

ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة ، فقال : ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة** ﴾ : « كم » فى محل نصب على أنها مفعول ﴿ **قصمنا** ﴾ وهى الخبرية المفيدة للتكثير . والقصم : كسر الشىء ودقه ، يقال : قصمت ظهر فلان : إذا كسرته ، وانقصمت سنه : إذا انكسرت ، والمعنى هنا : الإهلاك والعذاب .و أما الفصم بالفاء فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة ، وجملة :﴿ **كانت ظالمة** ﴾ فى محل جرّ صفة لقرية ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين ، أى كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم فى الأصل : وضع الشىء فى غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر فى موضع الإيمان ﴿ **وأنشأنا بعدها قوما آخرين** ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قومًا ليسوا منهم .

﴿ **فلما أحسوا بأسنا** ﴾ أى أدركوا أو رأوا عذابنا ، وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا ، أو البأس : العذاب الشديد ﴿ **إذا هم منها يركضون** ﴾ الركض : الفرار والهرب والانهزام ، وأصله من : ركض الرجل الدابة برجليه ، ويقال : ركض الفرس: إذا كدّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس إذا عدا ، ومنه : ﴿ اركض برجلك ﴾ [ص : ٤٢] والمعنى : أنهم يهربون منها راكضين دوابهم . فقيل لهم : ﴿ **لا تركضوا** ﴾ أى لا تهربوا . قيل : إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم . وقيل : إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ **وارجعوا إلى ما أترفتم فيه** ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم وكفركم،والمترف:المنعم ،يقال:أترف فلان،أى وسع عليه فى معاشه ﴿**ومساكنكم**﴾ أى وارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ **لعلكم تسألون**﴾ أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم . وقيل: المعنى : لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم . قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية : أهل حضور من اليمن ، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبيًا اسمه شعيب بن ذى

مهدم ، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له : ضنن ، وبينه وبين حضور نحو بريد ، قالوا : وليس هو شعيبا صاحب مدين . قلت : وآثار القبر بجبل ضين موجودة ، والعامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم .

﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى قالوا لما قالت لهم الملائكة ﴿ **لا تركضوا** ﴾ : ويلنا ، أى ياهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدّمنا . فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب. ﴿ **فما زالت تلك دعواهم** ﴾ أى ما زالت هذه الكلمة دعواهم ، أى دعوتهم ، والكلمة هى قولهم : ﴿ **يا ويلنا** ﴾ أى يدعون بها ويرددونها ﴿ **حتى جعلناهم حصيدا** ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود ، ومعنى ﴿ **خامدين** ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات : قد طفئ .

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ أى لم نخلقهما عبثًا ولا باطلاً ، بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرًا يجب امتثال أمره. وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم ، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها . ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ اللهو : ما يتلهى به . قيل : اللهو : الزوجة والولد . وقيل : الزوجة فقط . وقيل الولد فقط . قال الجوهرى : قد يكنى باللهو عن الجماع ، يدل على ماقاله قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى ... كبرت وألا يحسن اللهو أمثالى

ومنه قول الآخر :

وفيهنّ ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لقوله : ﴿ **لاتخذناه من لدنا** ﴾ أى من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم . قال المفسرون : أى من الحور العين ، وفى هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. وقيل : أراد الردّ على من قال : الأصنام أو الملائكة بنات الله . وقال ابن قتيبة : الآية ردٌّ على النصارى . ﴿ **إن كنا فاعلين** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : ما كنا فاعلين . قال الفراء والمبرد والزجاج: يجوز أن تكون «إن» للنفى كما ذكره المفسرون ، أى ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولدًا ؛ ويجوز أن تكون للشرط ، أى إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا . قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل** ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو ، أى دع ذلك الذى قالوا فإنه كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل ﴿ **فيدمغه** ﴾أى يقهره ،وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ،ومنه الدامغة. قال الزجاج : المعنى: نذهبه ذهاب الصغار

والإذلال ، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب . قيل : أراد بالحق : الحجة ، وبالباطل : شبههم . وقيل : الحق : المواعظ ، والباطل : المعاصى . وقيل :الباطل : الشيطان . وقيل : كذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿ **فإذا هو زاهق** ﴾ أى زائل ذاهب ، وقيل : هالك تالف ، والمعنى متقارب ، و« إذا » هى الفجائية ﴿ **ولكم الويل مما تصفون** ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه . وقيل : الويل : وادٍ فى جهنم ، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك ؛ ومن : هى التعليلية .

﴿ **وله من فى السموات والأرض** ﴾ عبيدًا وملكًا ، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ **ومن عنده** ﴾ يعنى الملائكة ، وفيه ردّ على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفى التعبير عنهم بكونهم ﴿ عنده ﴾ إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك،ثم وصفهم بقوله: ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ أى لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ﴿**ولا يستحسرون** ﴾ أى لا يعيون ، مأخوذ من الحسير ، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، يقال : حسر البعير يحسر حسورًا : أعيا وكلّ ، واستحسر وتحسر : مثله وحسرته أنا حسرًا ، يتعدى ولا يتعدى. قال ابن زيد: لا يكلون ، وقال ابن الأعرابى : لا يفشلون . قال الزجاج : معنى الآية: أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله، عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] وقيل : المعنى : لا ينقطعون عن عبادته . وهذه المعانى متقاربة .

﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ أى ينزهون الله سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون . وقيل : يصلون الليل والنهار . قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء ، فكذلك تسبيحهم دائم ، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أو فى محل نصب على الحال ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام : الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء ، و«أم»:هى المنقطعة ، والهمزة لإنكار الوقوع . قال المبرد : إن « أم » هنا بمعنى هل ، أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر «أم» مع الاستفهام ، فتكون « أم » المنقطعة ، فيصح المعنى، و﴿ **من الأرض**﴾ متعلق باتخذوا ، أو بمحذوف هو صفة لآلهة ، ومعنى ﴿ **هم ينشرون** ﴾ : هم يبعثون الموتى ، والجملة صفة لآلهة ، وهذه الجملة هى التى يدور عليها الإنكار والتجهيل ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع منهم لا محالة . والمعنى : بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى ، وليس الأمر كذلك ، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور: ﴿**ينشرون** ﴾ بضم الياء وكسر الشين من أنشره ، أى أحياه ، وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أى يحيون ولا يموتون .

ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدّد الآلهة ، فقال : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ أى لو كان فى السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا ، أى لبطلتا ، يعنى السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، قال الكسائى وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة : إن « إلا » هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذى بعدها وظهر فيه إعراب غير التى جاءت « إلا » بمعناها ، ومنه قول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك ، إلا الفرقدان

وقال الفراء : إن « إلا » هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرًا على الاستبداد بالتصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أى تنزّه عزّ وجلّ عما لا يليق به من ثبوت الشريك له ، وفيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عما لا يليق به. ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوّة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شىء من قضائه وقدره ﴿ **وهم** ﴾ أى العباد ﴿ **يسألون** ﴾ عما يفعلون، أى يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده . وقيل : إن المعنى : أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . قيل : والمراد بذلك: أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلها .

﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ أى بل اتخذوا ، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق ، إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، ولهذا قال : ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ على دعوى أنها آلهة ، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم إلى شىء من ذلك ، لا من عقل ولا نقل ، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله : ﴿ **هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** ﴾ أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى وذكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم . وقيل : المعنى : هذا القرآن وهذه الكتب التى أنزلت قبلى فانظروا : هل فى واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه . قال الزجاج : قيل : لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهًا غير الله ، فهل فى ذكر من معي وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟ وقيل معنى الكلام : الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرآ : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة . وقال الزجاج فى توجيه هذه القراءة : إن المعنى : هذا ذكر مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكر من قبلى. وقيل : ذكر كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى . ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق** ﴾ وهذا إضراب من جهته

سبحانه وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل . وقرأ ابن محيصن والحسن : «الحق» بالرفع على معنى هذا الحق ، أو هو الحق ، وجملة : ﴿ **فهم معرضون** ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون : أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون فى برهان ، ولا يتفكرون فى دليل .

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه** ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائى: ﴿ **نوحى**﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : أى نوحى إليه ﴿ **أنه لا إله إلا أنا** ﴾ وفى هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدّم من قوله : ﴿ **هذا ذكر من معى** ﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته ، فقال : ﴿**فاعبدون** ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم** ﴾ قال : شرفكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : فيه حديثكم . وفى رواية عنه قال : فيه دينكم . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : بعث الله نبيًا من حمير يقال له : شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شىء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ **وكم قصمنا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **خامدين** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبى فى قوله : ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ قال : هى حضور بنى أزد ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وارجعوا إلى ما أترفتم فيه** ﴾ قال : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فما زالت تلك دعواهم** ﴾ قال : هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم ، وفى قوله : ﴿ **جعلناهم حصيدا خامدين** ﴾ قال : بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال : حدثنى رجل من الجزريين قال : كان باليمن قريتان ، يقال لإحداهما: حضور، وللأخرى : قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبيًا فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يغزوهم ، فجهز لهم جيشًا ، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه ، فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأوّل ، فهزموهم أيضًا ؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه ، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا مناديًا يقول : ﴿ **لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم** ﴾ فرجعوا فسمعوا صوتًا مناديًا يقول : يالثارات النبىّ فقتلوا بالسيف، فهى التى قال الله : ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ إلى قوله : ﴿ **خامدين** ﴾. قلت : وقرى حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد فى جهة الغرب منها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى

قوله : ﴿ **حصيدا خامدين** ﴾ قال : كخمود النار إذا طفئت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ قال: اللهو: الولد. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ قال : النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يستحسرون** ﴾ يقول : لا يرجعون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**لا يسأل عما يفعل** ﴾ قال : بعباده ﴿ **وهم يسألون** ﴾ قال : عن أعمالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما فى الأرض قوم أبغض إلىّ من القدرية ، وما ذلك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله: ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾.

قوله : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة ، فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدًا . وقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله، وقالت طائفة من العرب : الملائكة بنات الله . ثم نزه عزّ وجلّ نفسه . فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزيها له عن ذلك ، وهو مقول على ألسنة العباد . ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أى ليسوا كما قالوا ، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقرّبون عنده . وقرئ : «مكرمون » بالتشديد، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى : بل اتخذ عبادًا ، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال : ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ أى لا يقولون شيئا حتى يقوله أو يأمرهم به . كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفى هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم . وقرئ : « لا

يسبقونه » بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿ **وهم بأمره يعملون** ﴾ أى هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم .

﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، أويعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة ، وما خلفهم وهو الدنيا ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدّموا وأخروا ، لم يعملوا عملا ولم يقولوا قولا إلا بأمره ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ أن يشفع الشافعون له ، وهو من رضى عنه ، وقيل : هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ أى من خشيتهم منه فالمصدر مضاف إلى المفعول ، والخشية : الخوف مع التعظيم ، والإشفاق : الخوف مع التوقع والحذر ، أى لا يأمنون مكر الله.

﴿ **ومن يقل منهم إنى إله من دونه** ﴾ أى من يقل من الملائكة إنى إله من دون الله. قال المفسرون: عنى بهذا إبليس ، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنى إله إلا إبليس. وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة (١) ﴿ **فذلك نجزيه جهنم** ﴾ أى فذلك القائل على سبيل الفرض ، والتقدير : نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذى قاله ، كما نجزى غيره من المجرمين ﴿ **كذلك نجزى الظالمين**﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين ، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم ، فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .

﴿ **أولم ير الذين كفروا** ﴾ الهمزة للإنكار ،والواو للعطف على مقدّر ، والرؤية هى القلبية، أى ألم يتفكروا أو لم يعلموا ﴿ **أن السموات والأرض كانتا رتقا** ﴾ قال الأخفش: إنما قال : ﴿ **كانتا** ﴾ لأنهما صنفان أى جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ [فاطر : ٤١]. وقال الزجاج: إنما قال : ﴿**كانتا** ﴾ لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد ، لأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . والرتق : السدّ ضد الفتق يقال : رتقت الفتق أرتقه فارتتق ، أى التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ، يعنى أنهما كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله بينهما ، وقال: ﴿ **رتقا** ﴾ ولم يقل : « رتقين » لأنه مصدر، والتقدير: كانتا ذواتى رتق ، ومعنى ﴿ **ففتقناهما** ﴾: ففصلناهما ، أى فصلنا بعضهما من بعض ، فرفعنا السماء ، وأبقينا الأرض مكانها ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾ أى أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شىء ، فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى : أن الماء سبب حياة كل شىء . وقيل : المراد بالماء هنا : النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية ، والهمزة فى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ للإنكار عليهم ، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية.

﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت ﴿ **أن تميد بهم** ﴾ الميد التحرّك والدوران ، أى لئلا تتحرك وتدور بهم ، أو كراهة ذلك ، وقد تقدّم تفسير ذلك فى النحل مستوفى

---

(١) فى المطبوعة : « الأنبياء » ، والتصويب من القرطبى.

﴿وجعلنا فيها﴾ أى فى الرواسى ، أوفى الأرض ﴿ فجاجا ﴾ قال أبو عبيدة: هى المسالك . وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج و﴿ سبلا ﴾ تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقا نافذًا مسلوكًا ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ إلى مصالح معاشهم ، وما تدعو إليه حاجاتهم ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ من أن يقع ويسقط على الأرض كقوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ [الحج : ٦٥] . وقال الفراء : محفوظًا بالنجوم من الشيطان كقوله : ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [الحجر: ١٧] . وقيل : محفوظًا : لا يحتاج إلى عماد، وقيل المراد بالمحفوظ هنا : المرفوع . وقيل : محفوظًا عن الشرك والمعاصى . وقيل : محفوظا عن الهدم والنقض﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها ، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما. ومعنى الإعراض : أنهم لا يتدبرون فيها، ولا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان .

﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم ، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه فى معايشهم ، وخلق الشمس والقمر أى جعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه فى سبحان ﴿ كل فى فلك يسبحون ﴾ أى كل واحد من الشمس والقمر والنجوم فى فلك يسبحون ، أى يجرون فى وسط الفلك ، ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء ، والجمع فى الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل ، وجعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهنّ ضمير العقلاء ،ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء . قال الكسائى : إنما قال : ﴿ يسبحون ﴾ لأنه رأس آية . والفلك : واحد أفلاك النجوم . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلكة المغزل لاستدارتها .

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا ﴿ أفإن مت ﴾ بأجلك المحتوم ﴿ فهم الخالدون ﴾ أى أفهم الخالدون ؟ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت . قال : ويجوز حذف الفاء وإضمارها، والمعنى : إن متّ فهم يموتون أيضًا ، فلا شماتة فى الموت . وقرئ : ﴿ مت ﴾ بكسر الميم وضمها لغتان ، وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور: ٣٠] . ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أى ذائقة مفارقة جسدها ، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان . ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أى نختبركم بالشدة والرخاء، لننظر كيف شكركم وصبركم. والمراد: أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، و﴿ فتنة ﴾ مصدر لـ ﴿ نبلوكم ﴾ من غير لفظه ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ لا إلى غيرنا فنجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرًا فشرّ .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود : إن الله عزّ وجلّ صاهر الجنّ فكانت بينهم الملائكة، فقال الله تكذيبًا لهم : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أى الملائكة

ليس كما قالوا ، بل عباد أكرمهم بعبادته. ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ يثنى عليهم ﴿ **ولا يشفعون**﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ **إلا لمن ارتضى** ﴾ قال: لأهل التوحيد لمن رضى عنه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال : قول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والبيهقى في البعث عن ابن عباس فى الآية قال : الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقى فى البعث عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى : ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ قال : « إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »[(١)] . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كانتا رتقا ففتقناهما** ﴾ قال: فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات. وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **كانتا رتقا** ﴾ قال : لايخرج منهما شيء، وذكر مثل ما تقدم . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضا من طريق أخرى . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **كانتا رتقا** ﴾ قال : ملتصقتين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى** ﴾ قال : نطفة الرجل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿**وجعلنا فيها فجاجا سبلا** ﴾ قال : بين الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل فى فلك** ﴾ قال : دوران ﴿**يسبحون** ﴾ قال : يجرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه: ﴿ **كل فى فلك** ﴾ قال : فلك كفلكة المغزل ﴿ **يسبحون** ﴾ قال : يدورون فى أبواب السماء ، كما تدور الفلكة فى المغزل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : هو فلك السماء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه ، ثم تلا : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ قال: نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة .

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾.

قوله : ﴿ **وإذا رآك الذين كفروا** ﴾ يعنى المستهزئين من المشركين ﴿ **إن يتخذونك إلا هزوا**﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءا بك ، والهزؤ : السخرية ،وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : ٩٥]، والمعنى : ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزؤا ﴿ **أهذا الذى يذكر آلهتكم** ﴾ هو على تقدير القول، أى يقولون: أهذا الذى ، فعلى هذا هو جواب إذا، ويكون قوله : ﴿ **إن يتخذونك إلا هزوا** ﴾ اعتراضًا بين الشرط وجوابه ، ومعنى يذكرها : يعيبها . قال الزجاج : يقال : فلان يذكر الناس، أى يغتابهم ، ويذكرهم بالعيوب، وفلان يذكر الله ، أى يصفه بالتعظيم ويثنى عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر فى كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، قيل : ومن هذا قول عنترة :

لا تذكرى مهرى وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى لا تعيبى مهرى ، وجملة ﴿ **وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهم بالقرآن كافرون ، أو هم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون ، والمعنى : أنهم يعيبون على النبى ﷺ أن يذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو القرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم ، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره ﴿ **كافرون** ﴾ و ﴿ **بذكر** ﴾ متعلق بالخبر ، والضمير الثانى تأكيد .

﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾ أى جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل . قال الفراء: كأنه يقول : بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة . وقال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر منه الشيء : خلقت منه كما تقول : أنت من لعب ، وخلقت من لعب ، تريد المبالغة فى وصفه بذلك . ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ [الإسراء:١١] . والمراد بالإنسان : الجنس . وقيل : المراد بالإنسان: آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقع ، فقيل : خلق الإنسان من عجل ، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدّى

والكلبي ومجاهد ، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : العجل : الطين بلغة حمير . وأنشدوا :

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل : إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث ،وهو القائل : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : ٣٢]. وقيل : نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب . وقال الأخفش : معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان . وقيل : إن هذه الآية من المقلوب ، أى خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبى عبيدة والنحاس ، والقول الأوّل أولى ﴿ **سأريكم آياتى** ﴾ أى سأريكم نقماتى منكم بعذاب النار ﴿ **فلا تستعجلون** ﴾ أى لاتستعجلونى بالإتيان به ، فإنه نازل بكم لامحالة : وقيل : المراد بالآيات : مادل على صدق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأول أولى ، ويدل عليه قولهم: ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ أى متى حصول هذا الوعد ، الذى تعدنا به من العذاب ، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية . وقيل : المراد بالوعد هنا : القيامة ، ومعنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ : إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين فى وعدكم، والخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

وجملة : ﴿ **لو يعلم الذين كفروا** ﴾ وما بعدها مقرّرة لما قبلها ،أى لو عرفوا ذلك الوقت، وجواب لو محذوف ، والتقدير: لو علموا الوقت الذى ﴿ **لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون**﴾ لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج فى تقدير الجواب : لعلموا صدق الوعد . وقيل : لو علموه ما أقاموا على الكفر. وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدلّ عليه قوله : ﴿ **بل تأتيهم بغتة** ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى الأمام والخلف لكونهما أشهر الجوانب فى استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل ، بحيث لايقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم ، ومحل ﴿**حين لا يكفون** ﴾ النصب على أنه مفعول العلم ، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه ، ومعنى ﴿ **ولاهم ينصرون** ﴾ : ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ، وجملة ﴿ **بل تأتيهم بغتة** ﴾ معطوف على ﴿ **يكفون** ﴾ : أى لا يكفونها بل تأتيهم العدّة أو النار أو الساعة بغتة ، أى فجأة ﴿ **فتبهتهم** ﴾ قال الجوهرى : بهته بهتًا أخذه بغتة ، وقال الفراء : فتبهتهم ، أى تحيرهم . وقيل : فتفجؤهم ﴿ **فلا يستطيعون ردها** ﴾ أى صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع إلى النار.وقيل : راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة . وقيل : راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ أى يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

وجملة ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك** ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ وتعزيته ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر

شأنهم ﴿ **فحاق بالذين سخروا منهم** ﴾ أى أحاط ودار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزؤا بهم ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ : « ما » موصولة ،أو مصدرية ، أى فأحاط بهم الأمر الذى كانوا يستهزئون به ، أو فأحاط بهم استهزاؤهم ، أى جزاؤه ، على وضع السبب موضع المسبب ، أو نفس الاستهزاء ، إن أريد به العذاب الأخروى . ﴿ **قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن** ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم. والكلاءة : الحراسة والحفظ ، يقال: كلأه الله كلاء بالكسر ، أى حفظه وحرسه . قال ابن هرمة :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشىء ما كان يرزؤها

أى قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ : من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذى تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم ؟ وقال الزجاج : معناه : من يحفظكم من بأس الرحمن . وقال الفراء : المعنى : من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . وحكى الكسائى والفراء : من يكلوكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿ **بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾ أى عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولا يخطر ببالهم ، بل يعرضون عنه ، أو عن القرآن، أو عن مواعظ الله ، أو عن معرفته .

﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا** ﴾ : « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه ، والدفع عنها. والمعنى : بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم . ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا أنها تنصرهم بما يدلّ على الضعف والعجز فقال : ﴿ **لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون** ﴾ أى هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ ، أى ولاهم يجارون من عذابنا . قال ابن قتيبة : أى لا يجيرهم منا أحد ، لأن المجير صاحب الجار ، والعرب تقول : صحبك الله ، أى حفظك وأجارك ، ومنه قول الشاعر :

ينادى بأعلى صوته متعوّذًا ليصحب منها والرماح دوانى

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى مجير منه . قال المازنى : هو من أصحبت الرجل : إذا منعته.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : مرّ النبىّ ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبىّ ، فسمعها النبى ﷺ ، فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : « ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عمك » ، وقال لأبى سفيان : « أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية :﴿ **وإذا رآك الذين كفروا** ﴾.

قلت : ينظر من الذى روى عنه السدّى ؟ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نفخ فى آدم الروح صار في رأسه فعطس فقال : الحمد لله ، فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور فى رجليه فوقع ، فقال الله: ﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾. وقد أخرج نحو هذا ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير(١) . وأخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد(٢). وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل من يكلؤكم** ﴾ قال : يحرسكم ، وفى قوله : ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ قال : لا ينصرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ قال : لا يجارون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية : قال لا يمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلا إلى بيان أن ماهم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله ، لا من مانع يمنعهم من الهلاك ، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال : ﴿ **بل متعنا هؤلاء وآباءهم** ﴾ يعنى أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿ **حتى طال عليهم العمر** ﴾ فاغترّوا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك ، فرد سبحانه عليهم قائلا : ﴿ **أفلا يرون** ﴾ أى أفلا ينظرون فيرون ﴿ **أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾

(١) ابن جرير ١٧/١٩ .
(٢) ابن جرير ١٧/ ٢٠ .

أى أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلدًا بعد بلد وأرضًا بعد أرض ، وقيل : ننقصها بالقتل والسبى ، وقد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفهم الغالبون** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، أى كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ وفى هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون .

﴿ **قل إنما أنذركم بالوحى** ﴾ أى أخوّفكم وأحذركم بالقرآن ، وذلك شأنى وما أمرنى الله به ، وقوله : ﴿ **ولا يسمع الصم الدعاء** ﴾ إما من تتمة الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم، أو من جهة الله تعالى . والمعنى: أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء . قرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السميفع : « ولا يسمع » بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ، أى إنك يامحمد لا تسمع هؤلاء . قال أبو على الفارسى : ولو كان كما قال ابن عامر لكان : إذا ما تنذرهم ، فيحسن نظم الكلام ، فأما ﴿**إذا ما ينذرون** ﴾ فحسن أن يتبع قراءة العامة . وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل . ﴿ **ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك** ﴾ المراد بالنفحة : القليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، ومنه قول الشاعر :

وعمرة من سروات النساء تنفَّحُ بالمسك أردانها

وقال المبرد : النفحة : الدفعة من الشىء التى دون معظمه ، يقال : نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة . وقيل: هى النصيب، وقيل : هى الطرف . والمعنى متقارب ، أى ولئن مسهم أقل شىء من العذاب ﴿ **ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى ليدعونّ على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ الموازين جمع ميزان ، وهو يدلّ على أن هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان واحد ، عبر عنه بلفظ الجمع ، وقد ورد فى السنة فى صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى فى الأعراف، وفى الكهف في هذا ما يغنى عن الإعادة . والقسط :صفة للموازين .قال الزجاج : قسط : مصدر يوصف به تقول: ميزان قسط وموازين قسط ، والمعنى : ذوات قسط ، والقسط : العدل . وقرئ : « القصط » بالصاد والطاء ، ومعنى ﴿ **ليوم القيامة** ﴾ لأهل يوم القيامة . وقيل : اللام بمعنى فى ، أى فى يوم القيامة ﴿ **فلا تظلم نفس شيئا** ﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل** ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة ، أى إن وقع أو وجد مثقال حبة . وقرأ الباقون بنصب المثقال على تقدير : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج. وقال أبو علىّ الفارسى : وإن كان الظلامة مثقال حبة . قال الواحدى : وهذا أحسن لتقدّم قوله : ﴿ **فلا تظلم نفس شيئا** ﴾ ، و مثقال الشىء ميزانه ،

أى وإن كان فى غاية الخفة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل فى الصغر ﴿ أتينا بها ﴾ قرأ الجمهور بالقصر ، أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ، و﴿ بها ﴾ أى بحبة الخردل . وقرأ مجاهد وعكرمة: « آتينا » بالمدّ على معنى : جازينا بها يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة جازى ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ أى كفى بنا محصين . والحسب فى الأصل معناه : العدّ ، وقيل : كفى بنا عالمين ، لأن من حسب شيئًا علمه وحفظه، وقيل : كفى بنا مجازين على ما قدموه من خير وشرّ .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله سابقًا بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ [الأنبياء : ٧] فقال: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ﴾ المراد بالفرقان هنا : التوراة ، لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام ، وقيل : الفرقان هنا هو : النصر على الأعداء كما فى قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال: ٤١] . قال الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، ومعنى ﴿ وضياء ﴾ أنهم استضاؤوا بها فى ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى ﴿ وذكرا ﴾ الموعظة ، أى أنهم يتعظون بما فيها ، وخصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك ، ووصفهم بقوله : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى . ويجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين أو بيانًا له، ومحل ﴿بالغيب﴾ النصب على الحال ، أى يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أوهم غائبون عنه لأنهم فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة . وقرأ ابن عباس وعكرمة: ﴿ ضياء ﴾ بغير واو. قال الفراء : حذف الواو والمجىء بها واحد ، واعترضه الزجاج بأن الواو تجىء لمعنى فلا تزاد ﴿ وهم من الساعة مشفقون﴾ أى وهم من القيامة خائفون وجلون ، والإشارة بقوله : ﴿ وهذا ذكر مبارك﴾ إلى القرآن . قال الزجاج المعنى : وهذا القرآن ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ، والمبارك كثير البركة والخير . وقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر ، والاستفهام فى قوله : ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار ، أى كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده .

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل ، ومعنى ﴿ من قبل ﴾ : أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهارون التوراة . وقال الفراء : المعنى : أعطيناه هداه من قبل النبوة ، أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وبالأوّل قال أقلهم ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أنه موضع لإيتاء الرشد، وأنه يصلح لذلك ، والظرف فى قوله:﴿ إذ قال لأبيه ﴾ متعلق بآتينا أوبمحذوف أى اذكر حين قال، وأبوه هو آزر ﴿ وقومه ﴾ نمروذ ومن اتبعه . والتماثيل : الأصنام . وأصل التمثال: الشىء المصنوع مشابها لشىء من مخلوقات الله سبحانه ، يقال : مثلت الشىء بالشىء : إذا جعلته مشابها له ، واسم ذلك الممثل تمثال ، أنكر عليهم عبادتها بقوله : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء ، واللام فى ﴿ لها ﴾

للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على، أى ما هذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وقيل : إن العكوف مضمن معنى العبادة .

﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهو التمسك بمجرّد تقليد الآباء ، أى وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيًا على طريقتهم، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية ، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا : هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين ، وجوابهم : هو ما أجاب به الخليل هاهنا ﴿ **قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين** ﴾ أى فى خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذى عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضرّ ولاتنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران ، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنّة رسوله كتابًا قد دوّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير فى البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار:

كـــأنه عـــــلم فى رأسه نــار

وقال : هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد   فمـــا آمن فى دينه كمخـــاطر

فقالوا كما قال الأوّل :

مـا أنـــا إلا مـــن غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشـد

وقد أحسن من قال :

يـــأبى الفتى إلا اتباع الـــهوى   ومنـــهج الحـــقّ لـــه واضـــح

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل قالوا :﴿ **أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ أى أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ قال مضربًا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد:﴿ **بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن** ﴾ أى خلقهن وأبدعهنّ ﴿ **وأنا على ذلكم** ﴾ الذى ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات والأرض دون ما عداه ﴿ **من الشاهدين** ﴾ أى العالمين به المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشىء هو من كان عالمًا به مبرهنا عليه مبينًا له .

وقد أخرج أحمد والترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عائشة ؛ أن رجلا قال : يارسول الله ، إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله

ﷺ: « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا عليك ولا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل » فجعل الرجل يبكى ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتاب الله : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ » فقال له الرجل : يا رسول الله ، ما أجد لى ولهم خيرًا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار(١). رواه أحمد هكذا : حدّثنا أبو نوح قراد ، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره ، وفى معناه أحاديث .

وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان** ﴾ قال: التوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : ﴿ **الفرقان** ﴾ : الحق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة: ﴿ **وهذا ذكر مبارك** ﴾ أى القرآن. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده** ﴾ قال : هديناه صغيرًا ، وفى قوله : ﴿ **ما هذه التماثيل**﴾ قال : الأصنام .

﴿ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)** ﴾.

قوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه . والكيد : المكر ، يقال : كاده يكيده كيدًا

(١) أحمد ٦/ ٢٨٠، ٢٨١ والترمذى فى التفسير (٣١٦٥) وقال : « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان» . والبيهقى فى الشعب (٨٥٨٦) . ط . دار الكتب العلمية .

ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام . قيل: إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرًا. وقيل : سمعه رجل منهم ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أى بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون : كان لهم عيد فى كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة . والفاء فى قوله : ﴿ فجعلهم جذاذا ﴾ فصيحة ، أى فولوا ، فجعلهم جذاذًا ، الجذّ : القطع والكسر ، يقال : جذذت الشيء قطعته وكسرته ، والواحد: جذاذة ، والجذاذ : ما كسر منه . قاله الجوهرى . قال الكسائى : ويقال لحجارة الذهب : الجذاذ ؛ لأنها تكسر . قرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن : « جِذاذًا» بكسر الجيم ، أى كسرًا وقطعًا ، جمع جذيذ ، وهو الهشيم ، مثل . خفيف وخفاف ، وظريف وظراف . قال الشاعر :

جذذ الأصنام فى محرابها ذاك فى الله العلىّ المقتدر

وقرأ الباقون بالضم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، أى الحطام والرفات ، فعال بمعنى مفعول ، وهذا هو الكيد الذى وعدهم به. وقرأ ابن عباس وأبو السمال : « جَذاذًا » بفتح الجيم ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ أى للأصنام ﴿ لعلهم إليه ﴾ أى إلى إبراهيم ﴿ يرجعون ﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم . وقيل : لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى المهمات ، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبرًا ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضررًا ، ولا تعلم بخير ولاشرّ ، ولا تخبر عن الذى ينوبها من الأمر ؛ وقيل : لعلهم إلى الله يرجعون ، وهو بعيد جدًا .

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ . وقيل : إن « من » ليست استفهامية ، بل هى مبتدأ وخبرها ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ أى فاعل هذا ظالم ، والأول أولى لقولهم :﴿ سمعنا فتى ﴾ إلخ ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيبًا للمستفهمين لهم ، وهذا القائل هو الذى سمع إبراهيم يقول : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ ومعنى ﴿ يذكرهم ﴾: يعيبهم ، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة ، وجملة : ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ صفة ثانية لفتى . قال الزجاج: وارتفع إبراهيم على معنى : يقال له هو إبراهيم ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ؛ وقيل : ارتفاعه على أنه مفعول مالم يسمّ فاعله ؛ وقيل : مرتفع على النداء . ومن غرائب التدقيقات النحوية ، وعجائب التوجيهات الإعرابية ، أن الأعلم الشنتمرى الإشبيلى قال : إنه مرتفع على الإهمال . قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شيء. والفتى : هو الشاب ، والفتاة : الشابة .

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتى به ظاهرًا بمرأى من الناس. قيل: إنه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا هذه المقالة ، ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به .

ومعنى ﴿ **لعلهم يشهدون** ﴾ : لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا . وقيل : لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم . وجملة : ﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وفى الكلام حذف تقديره : فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك ؟ لإقامة الحجة عليه فى زعمهم .

﴿ **قال بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ أى قال إبراهيم مقيمًا للحجة عليهم مبكتًا لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيرًا إلى الصنم الذى تركه ولم يكسره ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ أى إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه . أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح فى العقل أن يطلق عليه أنه إله . فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم إذا قالوا : إنهم لا ينطقون ، قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده فى المكان الذى هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته . وقيل : أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ، إرشادًا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها وخالقهم ، والأوّل أولى . وقرأ ابن السميفع : « بل فعله » بتشديد اللام على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم .

﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به مافعله إبراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقًا للعبادة ، ولهذا ﴿ **قالوا إنكم أنتم الظالمون** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم : إنه لمن الظالمين ﴿ **ثم نكسوا على رؤوسهم** ﴾ أى رجعوا إلى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه . وقيل : المعنى : أنهم طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم ، وهو ضعيف ؛ لأنه لم يقل : نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال : نكسوا على رؤوسهم، وقرئ : «نكسوا» بالتشديد ، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ أى قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام ، فقال إبراهيم مبكتًا لهم ومزريًا عليهم :﴿ **أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا** ﴾ من النفع ﴿ **ولا يضركم** ﴾ بنوع من أنواع الضرر . ثم تضجر عليه السلام منهم ، فقال: ﴿ **أف لكم ولما تعبدون من دون الله** ﴾

وفى هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم ، واللام فى ﴿ لكم ﴾ لبيان المتأفف به ، أى لكم ولآلهتكم ، والتأفف : صوت يدّل على التضجر ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى ليس لكم عقول تتفكرون بها ، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه .

﴿ قالوا حرقوه ﴾ أى قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع إبراهيم ، وعجزوا عن مجادلته ، وضاقت عليهم مسالك المناظرة ، حرّقوا إبراهيم . انصرافًا منهم إلى طريق الظلم والغشم ، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأى وجه كان ، وعلى أى أمر اتفق ، ولهذا قالوا : ﴿ وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ أى انصروها بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر . وقيل : هذا القائل هو نمروذ ؛ وقيل رجل من الأكراد . ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ فى الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار ، وذهبوا بإبراهيم إليها ، فعند ذلك قلنا : يا نار كونى ذات برد وسلام. وقيل : إن انتصاب ﴿ سلاما ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى وسلمنا سلامًا عليه ﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ أى مكرًا ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أى أخسر من كل خاسر ؛ ورددنا مكرهم عليهم؛ فجعلنا لهم عاقبة السوء ؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا : قال : إنى سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال : ﴿ تالله لأكيدنَ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فسمعه ناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله ، فأخذ طعامًا ثم انطلق إلى آلهتهم فقربّه إليهم ، فقال : ألا تأكلون ، فكسرها إلا كبيرهم ، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم فى يده الذى كسر به الأصنام ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿جذاذًا﴾ قال: حطامًا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : فتاتًا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ قال : عظيم آلهتهم . وأخرج أبو داود والترمذى [وابن المنذر] وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث كلهنّ فى الله: قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ ولم يكن سقيمًا ، وقوله لسارة : أختى ، وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا﴾»(١) . وهذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا (٢) . وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد (٣) .

---

(١) أبو داود فى الطلاق (٢٢١٢) والترمذى فى التفسير (٣١٦٦) .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧١ / ١٥٤) .

(٣) أبو يعلى (١٠٤٠) وإسناده ضعيف ؛ لضعف على بن زيد بن جدعان .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقى فى النار جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ **كونى بردا وسلاما** ﴾ فلم يبقَ فى الأرض نار إلا طفئت . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم »، فأمر رسول الله ﷺ بقتله(١) . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر عن ابن عمر ، قال : أوّل كلمة قالها إبراهيم حين ألقى فى النار : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ **يا نار كونى** ﴾ قال : كان جبريل هو الذى ناداها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ نحوه . وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار ، فقال : ياإبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أيامًا وليالى قط أطيب عيشًا إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾ .

قد تقدّم أن لوطًا هو ابن أخى إبراهيم ، فحكى الله سبحانه هاهنا أنه نجى إبراهيم ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . قال المفسرون : وهى أرض الشام ، وكانا بالعراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ،ولأنها معادن الأنبياء ؛وأصل البركة : ثبوت الخير ،ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقيل : الأرض المباركة: مكة. وقيل :

(١) أحمد ٦/١٠٩ وابن ماجة فى الصيد (٣٢٣١) وابن حبان (٥٦٠٢) وأبو يعلى (٤٣٥٧) .

بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضًا كثيرة الخصب، وقد تقدم تفسير العالمين. ثم قال سبحانه ممتنا على إبراهيم ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ النافلة: الزيادة، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولدًا ، فوهب له إسحاق ، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة : أى زيادة ؛ وقيل : المراد بالنافلة هنا: العطية ، قاله الزجاج . وقيل : النافلة هنا : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وانتصاب ﴿ **نافلة** ﴾ على الحال . قال الفراء : النافلة : يعقوب خاصة ، لأنه ولد الولد ﴿ **وكلا جعلنا صالحين** ﴾ أى وكل واحد من هؤلاء الأربعة : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحا عاملاً بطاعة الله تاركًا لمعاصيه . وقيل : المراد بالصلاح هنا : النبوة .

﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى ﴿ **بأمرنا** ﴾: بأمرنا لهم بذلك ، أى بما أنزلنا عليهم من الوحى ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات** ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . وقيل : المراد بالخيرات : شرائع النبوّات ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ أى كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين ، فاعلين لما نأمرهم به ، تاركين ما ننهاهم عنه . ﴿ **ولوطا آتيناه حكما وعلما** ﴾ انتصاب ﴿ **لوطا** ﴾ بفعل مضمر دلّ عليه قوله : ﴿**آتيناه**﴾ أى وآتينا لوطًا آتيناه . وقيل : بنفس الفعل المذكور بعده . وقيل : بمحذوف هو : اذكر ، والحكم: النبوّة . والعلم : المعرفة بأمر الدين . وقيل: الحكم : هو فصل الخصومات بالحق . وقيل: هو الفهم. ﴿ **ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** ﴾ القرية هى سدوم كما تقدّم ، ومعنى ﴿ **تعمل الخبائث** ﴾ : يعمل أهلها الخبائث ، فوصفت القرية بوصف أهلها ، والخبائث التى كانوا يعملونها هى اللواط والضراط وخذف الحصى كما سيأتى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ **إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . والفسوق : الخروج كما تقدّم .

﴿ **وأدخلناه فى رحمتنا** ﴾ بإنجائنا إياه من القوم المذكورين ، ومعنى ﴿ **فى رحمتنا** ﴾ : فى أهل رحمتنا . وقيل : فى النبوة : وقيل : فى الإسلام . وقيل : فى الجنة﴿ **إنه من الصالحين**﴾ الذيـن سبقت لهـم منا الحسنى . ﴿ **ونوحا إذ نادى** ﴾ أى واذكر نوحًا إذ نادى ربه﴿ **من قبل** ﴾ أى من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ دعاءه ﴿ **فنجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ أى من الغرق بالطوفان ، والكرب : الغمّ الشديد ، والمراد بأهله: المؤمنون منهم . ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى نصرناه نصرًا مستتبعًا للانتقام من القوم المذكورين . وقيل : المعنى : منعناه من القوم . وقال أبو عبيدة : من بمعنى على ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾ أى لم نترك منهم أحدًا، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى قوله : ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾ قال :الشام . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى مالك نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن

عباس قال : لوط كان ابن أخى إبراهيم. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ قال : ولدًا ﴿ **ويعقوب نافلة** ﴾ قال : ابن الابن . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ قال : أعطيناه ﴿ **ويعقوب نافلة** ﴾ قال : عطية .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾.

قوله : ﴿ **وداود** ﴾ معطوف على ﴿ **نوحا** ﴾ ومعمول لعامله المذكور ، أو المقدّر كما مرّ ﴿**وسليمان**﴾ معطوف على داود ، والظرف فى ﴿ **إذ يحكمان** ﴾ متعلق بما عمل فى داود ، أى واذكرهما وقت حكمهما . والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما . ومعنى ﴿ **فى الحرث** ﴾ : فى شأن الحرث . وقيل : كان زرعًا . وقيل : كرمًا، واسم الحرث يطلق عليهما ﴿ **إذ نفشت فيه** ﴾ أى تفرقت وانتشرت فيه ﴿ **غنم القوم** ﴾ قال ابن السكيت: النفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ أى لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشرى والرضىّ ، وتقدّمهما إلى القول به الفراء . وقيل: المراد : الحاكمان والمحكوم عليه ، ومعنى ﴿ **شاهدين** ﴾ : حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وجملة : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ معطوفة على ﴿ **إذ يحكمان** ﴾ لأنه فى حكم الماضى ، والضمير فى ﴿ **ففهمناها** ﴾، يعود إلى القضية المفهومة من الكلام ، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم . قال المفسرون : دخل رجلان على داود ، وعنده ابنه سليمان ، أحدهما :

صاحب حرث ، والآخر :صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئًا ، فقال : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أو غير ذلك ، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك . قال النحاس : إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريبًا منه ،وأما فى حكم سليمان فقد قيل:كانت قيمة ما نال من الغنم ، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء . قال جماعة من العلماء : إن داود حكم بوحى ، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحى . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد ، وكلام أهل العلم فى حكم اجتهاد الأنبياء معروف ، وهكذا ما ذكره أهل العلم فى اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ، أو الحق مع واحد ؟ وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب،ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيبًا ، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرّح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر [1] فسماه النبى ﷺ مخطئًا فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، وإلا لزم توقف حكمه عزّ وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله . وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ والحرمة حلالاً وحرامًا فى حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله . وأيضًا يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله . وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه فى المؤلف الذى سميناه « القول المفيد فى حكم التقليد » وفى « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فمن أحبّ الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما .

فإن قلت : فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود وسليمان فى هذه الشريعة المحمدية، والملة الإسلامية ؟ قلت : قد ثبت عن النبى ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار [2] ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عينًا أو قيمة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء ، وأدخلوا فسادها فى عموم قول النبى ﷺ: « جرح العجماء جبار » [3] قياسًا لجميع

---

(١) البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٧١٦/ ١٥) .
(٢) الموطأ فى الأقضية ٢ / ٧٤٧ .　　(٣) مسلم فى الحدود (١٧١٠ / ٤٥ ، ٤٦) .

أفعالها على جرحها . ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار ، لأنه فى مقابلة النص ، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار . ويجاب عنه بحديث البراء .

ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد. قوله : ﴿ **وكلا آتينا حكما وعلما** ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين ، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التى حكاها الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكمًا شرعيًا ، أى وكل واحد منهما أعطيناه حكما وعلمًا كثيرًا ، لا سليمان وحده . ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختص بكل واحد منهما ، فبدأ بداود فقال: ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن** ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأوّل جماعة وهو الظاهر . وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه. وقيل : إنها كانت تصلى معه إذا صلى ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبًا من عظيم خلقها وقدرة خالقها . وقيل : كانت الجبال تسير مع داود ، فكان من رآها سائرة معه سبح ﴿**والطير** ﴾ معطوف على الجبال ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أى والطير مسخرات ، ولا يصح العطف على الضمير فى ﴿ **يسبحن** ﴾ لعدم التأكيد والفصل ﴿ **وكنا فاعلين**﴾ يعنى ما ذكر من التفهيم ، وإيتاء الحكم والتسخير ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله درعًا كان أو جوشنا ، أو سيفًا ، أو رمحا . قال الهذلى :

وعندى لبوس فى اللباس كأنه . . . . . إلخ

والمراد فى الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ، كالركوب والحلوب ، والجار والمجرور أعنى لكم متعلق بعلمنا ﴿ **ليحصنكم من بأسكم** ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح ﴿ **لتحصنكم** ﴾ بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة ، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبى إسحاق « لنحصنكم » بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه . وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس ، أو إلى داود، أو إلى الله سبحانه . ومعنى ﴿ **من بأسكم** ﴾ : من حربكم ، أو من وقع السلاح فيكم ﴿ **فهل أنتم شاكرون** ﴾ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام فى معنى الأمر .

ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان . فقال: ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ أى وسخرنا له الريح ﴿**عاصفة** ﴾ أى شديدة الهبوب . يقال : عصفت الريح ، أى اشتدت ، فهى ريح عاصف

وعصوف ، وانتصاب ﴿ **الريح** ﴾ (١) على الحال . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمي وأبو بكر ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ برفع الريح على القطع مما قبله ، ويكون مبتدأ وخبره تجرى ، وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿ **تجرى بأمره** ﴾ النصب أيضًا على الحالية ، أوعلى البدلية ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾ وهى أرض الشام كما تقدم ﴿ **وكنا بكل شيء عالمين** ﴾ أى بتدبير كلّ شيء ﴿ **ومن الشياطين** ﴾ أى وسخرنا من الشياطين ﴿ **من يغوصون له** ﴾ فى البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم . وقيل : إن « من » مبتدأ وخبره ما قبله ، والغوص: النزول تحت الماء ، يقال غاص فى الماء ، والغواص : الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ ﴿ **ويعملون عملا دون ذلك** ﴾ قال الفراء : أى سوى ذلك ، وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿ **وكنا لهم حافظين** ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا ، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

﴿ **وأيوب إذ نادى ربه** ﴾ معطوف على ما قبله ، والعامل فيه : إما المذكور أو المقدّر كما مرّ ، والعامل فى الظرف وهو ﴿ **إذ نادى ربه** ﴾ هو العامل فى أيوب ﴿ **أنى مسنى الضر** ﴾ أى بأنى مسنى الضرّ . وقرئ بكسر « إنى » .

واختلف فى الضر الذى نزل به ماذا هو؟ فقيل إنه قام ليصلى فلم يقدر على النهوض . وقيل : إنه أقرّ بالعجز ، فلا يكون ذلك منافيا للصبر. وقيل : انقطع الوحى عنه أربعين يومًا. وقيل : إن دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردّها في موضعها فأكلت منه ، فصاح : مسنى الضرّ ؛ وقيل :كان الذود يتناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه . وقيل : إن ضرّه قول إبليس لزوجته: اسجدى لى ، فخاف ذهاب إيمانها ؛ وقيل : إنه تقذره قومه . وقيل : أراد بالضرّ الشماتة ، وقيل غير ذلك . ولما نادى ربه متضرّعًا إليه وصفه بغاية الرحمة فقال : ﴿**وأنت أرحم الراحمين** ﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه ، فقال : ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر** ﴾ أى شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قيل : تركهم الله عز وجلّ له ، وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعا إلا امرأته ، فأحياهم الله فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ، فيكون معنى الآية على هذا: آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم ، وانتصاب ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ على العلة: أى آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿ **وذكرى للعابدين** ﴾ أى وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر .واختلف فى مدّة إقامته على البلاء : فقيل :سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقيل : ثلاثين سنة . وقيل: ثمانى عشرة سنة .

---

(١) هكذا ، والصحيح « عاصفة » .

﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل** ﴾ أى واذكر هؤلاء ،وإدريس هو أخنوخ ، وذا الكفل : إلياس . وقيل :يوشع بن نون . وقيل :زكريا . والصحيح أنه رجل من بنى إسرائيل كان لا يتورع عن شيء من المعاصى ، فتاب فغفر الله له . وقيل : إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لى بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه ؟ فقال رجل: أنا ، فاستخلفه وسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع فى شيء من المهمات. وقيل غير ذلك . وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبىّ . وقال جماعة : هو نبىّ . ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال :﴿ **كل من الصابرين** ﴾ أى كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به . ﴿ **وأدخلناهم فى رحمتنا** ﴾ أى فى الجنة ، أو فى النبوّة، أو فى الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنهم من الصالحين** ﴾ أى الكاملين فى الصلاح .

﴿ **وذا النون** ﴾ أى واذكر ذا النون ، وهو يونس بن متى ، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له ، فإن النون من أسماء الحوت . وقيل : سمى ذا النون لأنه رأى صبيا مليحا فقال : دسموا نونته ، لئلا تصيبه العين . وحكى ثعلب عن ابن الأعرابى أن نونة الصبى هى النقبة التى تكون فى ذقن الصبىّ الصغير ، ومعنى دسموا سوّدوا ﴿ **إذ ذهب مغاضبا** ﴾ أى اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبًا ، أى مراغمًا . قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير : ذهب مغاضبًا لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبى والمهدوى . وحكى عن ابن مسعود : قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ،وهو قول صحيح .والمعنى: مغاضبا من أجل ربه ،كما تقول غضبت لك، أى من أجلك. وقال الضحاك : ذهب مغاضبًا لقومه، وحكى عن ابن عباس. وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبًا للملك الذى كان فى وقته واسمه حزقيا . وقيل : لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم ؛ ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر :

وأغضب أن تهجى تميم بعامر

أى آنف ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **نقدر** ﴾ بفتح النون وكسر الدال . واختلف فى معنى الآية على هذه القراءة . فقيل : معناها : أنه وقع فى ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته . وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فإن هذا الظنّ بالله كفر ، ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظنّ أن لن نضيق عليه ، كقوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الشورى : ١٢] أى يضيق ، ومنه قوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : ٧] .يقال : وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر ، أى ضيق . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ، أى فظنّ أن لن نقضى عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : هو من التقدير ليس من

القدرة ، يقال منه : قدَر الله لك الخير يقدره قدرًا ، وأنشد ثعلب :

فـليـت عشيات اللـوى برواجع لنـا أبـدا مـا أورق السـلم النـضر

ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما تقـدر يقعْ ولك الشـكر

أى ما تقدره وتقضى به ، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهرى : «فظنّ أن لن نقدّر » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس ، وقرأ ذلك أيضًا قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج: « أن لن يقدّر » بضم الياء والتشديد مبنيًا للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحاق والحسن : « يقدر » بضم الياء وفتح الدال مخففا مبنيا للمفعول . وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرًا قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ، ثم قال : فوالله لئن قدر الله علىّ. . . الحديث . كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية ، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا هاهنا مالا يحتاج معه الناظر إلى غيره . والفاء فى قوله : ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ أى كان ما كان من التقام الحوت له ، فنادى فى الظلمات ، والمراد بالظلمات: ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وكان نداؤه : هو قوله : ﴿ **أن لا إله إلا الله أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ أى بأن لا إله إلا أنت . . إلخ ، ومعنى ﴿ **سبحانك** ﴾ تنزيها لك من أن يعجزك شىء ، إنى كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم ؛ قال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته ، قال ذلك وهو فى بطن الحوت .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ دعاءه الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه ﴿ **ونجيناه من الغم** ﴾ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة ، وهذا هو معنى الآية الأخرى ، وهى قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : ١٤٣، ١٤٤] . قرأ الجمهور: ﴿**ننجى**﴾ بنونين . وقرأ ابن عامر: « نُجِّى » بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمارالمصدر ، أى وكذلك نُجى النجاءُ المؤمنين، كما تقول : ضُرب زيدًا ، أى ضُرب الضربُ زيدًا ، ومنه قول الشاعر :

ولو ولدت قُفَيرة جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفرّاء وأبوعبيد وثعلب ،وخطأها أبوحاتم والزجاج وقالا: هى لحن لأنه نصب اسم ما لم يسمّ فاعله ، وإنما يقال : نجى المؤمنون .ولأبى عبيده قول آخر، وهو أنه أدغم النون فى الجيم وبه قال القتيبى ، واعترضه النحاس فقال : هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ثم قال النحاس: لم أسمع فى هذا أحسن من شىء سمعته من علىّ بن سليمان الأخفش قال: الأصل : ننجى ،

فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى : ﴿ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] والأصل: ولا تتفرّقوا . قلت : وكذا الواحدى عن أبى علىّ الفارسى أنه قال : إن النون الثانية تخفى مع الجيم ، ولا يجوز تبيينها ، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام ، فظنّ أنه إدغام ، ويدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين . قلت : ولا نسلم قوله: إنه لا يجوز تبيينها فقد بينت فى قراءة الجمهور، وقرأ محمد بن السميفع وأبو العالية « وكذلك نجى المؤمنين » على البناء للفاعل ، أى نجى الله المؤمنين .

وقد أخرج ابن جرير عن مرّة فى قوله : ﴿ إذ يحكمان في الحرث ﴾ قال : كان الحرث نبتًا فنفشت فيه ليلاً فاختصموا فيه إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمرّوا على سليمان فذكروا ذلك له، فقال : لا ، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فإذا كان كما كان ردوا عليهم فنزلت :﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقد روى هذا عن مرّة عن ابن مسعود . وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم ، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبىّ الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مسروق نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، ولكنه لم يذكر الكرم . واخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿ نفشت ﴾ قال : رعت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محيصة: أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطًا فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها (١). وقد علل هذا الحديث ، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح المنتقى . وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه ، وزاد فى آخره ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وداود وسليمان ﴾ الآية. وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » (٢) ، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلا فيما حكته الآية من

(١) عبد الرزاق (١٨٤٣٧) وابن أبى شيبة فى الديات (٨٠٢٥) وأحمد ٥/ ٤٣٥ وأبو داود فى البيوع (٣٥٦٩، ٣٥٧٠) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٣٢) وابن جرير ١٧/ ٤٠ .

(٢) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم فى الأقضية (١٧٢٠ / ٢٠) .

حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة فى قوله : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ قال : يصلين مع داود إذا صلى ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ قال : كانت صفائح ، فأوّل من سردها وحلقها داود عليه السلام . وأخرج ابن أبى شيبة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسى ، ثم يجىء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجىء أشراف الجنّ فيجلسون مما يلى أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم فتسير مسيرة شهر فى الغداة الواحدة .

وأخرج ابن عساكر والديلمى وابن النجار عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله لأيوب : تدرى ما جرمك علىّ حتى ابتليتك ؟ قال : لا يارب ، قال : لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده فى كلمتين»[(١)] وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ، ولم يأمر بالمعروف ، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله . وفى إسناده جويبر. وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ،وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع من شىء قط مثله ، فقال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان ، وأنا أعلم مكان جائع فصدّقنى ؛ فصدّق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم ألبس قميصًا قط وأنا أعلم مكان عار فصدّقنى ، فصدّق من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجدًا وقال : اللهمّ بعزّتك لا أرفع رأسى حتى تكشف عنى ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه . وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال: قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك فى الجنة وعوضناك مثلهم ، قال: لا ، بل اتركهم لى فى الجنة ، قال : فتركوا له فى الجنة وعوّض مثلهم فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن الضحّاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية : ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال : أوتى أهلاً غير أهله ، فقال ابن مسعود : بل أوتى أهله بأعيانهم ومثلهم معهم . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والرويانى وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) انظر الفردوس (٤٤٦٨) .

«إن أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد . قال: وما ذاك؟قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب: لا أدرى ما يقول غير أن الله يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا فى حق ، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله المبتلى ووالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحا ؟ قال : فإنى أنا هو ، قال: وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض»(١).

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وذا الكفل ﴾ قال: رجل صالح غير نبىّ تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان في بنى إسرائيل قاض فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامى على أن لا يغضب ، فقال رجل : أنا ، فسمى : ذا الكفل ، فكان ليله جميعًا يصلى ، ثم يصبح صائمًا فيقضى بين الناس ، وذكر قصة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال : ما كان ذو الكفل نبيا ، ولكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كلّ يوم مائة صلاة فتوفى ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « كان الكفل من بنى إسرائيل لايتورّع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبى فهى لك ، وقال : والله لا أعصى الله بعدها أبدًا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه : إن الله قد غفر للكفل » (٢) . وأخرجه الترمذى وحسنه ، والحاكم وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة . وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر وقال : فيه ذو الكفل .

---

(١) أبو يعلى (٣٦١٧) وابن جرير ١٠٧/٢٣ وابن حبان (٢٨٨٧) ، وصححه الحاكم ٥٨١/٢ ، ٥٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٢) أحمد ٢٣/٢ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن حبان (٣٨٨) =

وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا** ﴾ يقول : غضب على قومه ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ يقول : أن لن نقضى عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه فى غضبه عليهم وفراره ، قال : وعقوبته أخذ النون إياه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ قال : ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذى أصابه . وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ قال : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر. وأخرج أحمد والترمذى والنسائى ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى في الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » [(١)] . وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس ابن متى » ، قلت : يارسول الله ، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قوله الله : ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » [(٢)] . وأخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه [(٣)] ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » [(٤)] . وروى أيضا فى الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود[(٥)]. وروى أيضًا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة [(٦)] .

﴿ **وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا** ...

= والحاكم ٤/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ وقال: «صحيح الإسناد » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧١٠٨ ، ٧١٠٩) ط. دار الكتب العلمية ، قال الإمام ابن كثير : « هذا حديث غريب وقد وقع فى هذه الرواية الكفل من غير إضافة ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث :« إن كان الكفل » ، ولم يقل: ذو الكفل فلعله رجل آخر ، والله أعلم » .

(١) أحمد ١/ ١٧٠ والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٩٢) وابن جرير ١٧/ ٦٥، وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦١١) .

(٢) ابن جرير ١٧/ ٦٥ .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٧/ ١٦٧) والترمذى فى الصلاة (١٨٣).

(٥) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٢) .

(٦) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٥ ، ٣٤١٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٧ / ١٦٦) .

خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قوله : ﴿ **وزكريا** ﴾ أى واذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال : ﴿ **رب لا تذرنى فردا** ﴾ أى منفردًا وحيدًا لا ولد لى . وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿ **وأنت خير الوارثين** ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت . فأنت حسبى إن لم ترزقنى ولدًا فإنى أعلم أنك لا تضيع دينك ، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ . ﴿**فاستجبنا له** ﴾ دعاءه ﴿ **ووهبنا له يحيى** ﴾ . وقد تقدّم مستوفى فى سورة مريم ﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾ . قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقرًا فجعلها الله ولودًا ، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه. وقيل : كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعًا ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولودًا بعد أن كانت عاقرًا ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية وجملة :﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات** ﴾ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فالضمير المذكور راجع إليهم . وقيل : هو راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى . ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه ﴿ **رغبا ورهبا** ﴾ أى يتضرّعون إليه فى حال الرّخاء وحال الشدّة ، وقيل الرغب : رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب : رفع ظهورها . وانتصاب ﴿ **رغبا** ﴾ و﴿**ورهبا**﴾ على المصدرية . أى يرغبون رغبًا ويرهبون رهبًا ، أو على العلة . أى للرغب والرهب ، أو على الحال ، أى راغبين وراهبين . وقرأ طلحة بن مصرّف « ويدعونا » بنون واحدة ، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده ، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، وقرأ الباقون بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما ﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾ أى متواضعين متضرّعين .

﴿ **والتى أحصنت فرجها** ﴾ أى واذكر خبرها ، وهى مريم ، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما فى ذكر قصتها من الآية الباهرة ﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه ، وهو للملك تشريفًا وتعظيمًا ، وهو يريد روح عيسى ﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ قال الزجاج: الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل. وقيل : إن التقدير على مذهب سيبويه :

وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه :﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢] والمعنى : أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما . وقيل : أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكل واحد منهما من آيات ، ومعنى : ﴿ **أحصنت** ﴾ عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها . وقيل : المراد بالفرج : جيب القميص ، أى أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء ومريم .

ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ والأمة : الدّين كما قال ابن قتيبة ، ومنه : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] أى على دين ، كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله . وقيل : المعنى : إن هذه الشريعة التى بينتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة. وقيل: المعنى : إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهى ملة الإسلام . وانتصاب ﴿ **أمة واحدة** ﴾ على الحال ، أى متفقة غير مختلفة، وقرئ : «إن هذه أمتكم» بنصب أمتكم على بدل من اسم إن والخبر أمة واحدة. وقرئ برفع ﴿ **أمتكم** ﴾ ورفع ﴿ **أمة** ﴾ على أنهما خبران . وقيل : على إضمار مبتدأ ، أى هى أمة واحدة . وقرأ الجمهور برفع ﴿ أمتكم ﴾ على أنه الخبر ونصب ﴿ **أمة** ﴾ على الحال كما قدمنا . وقال الفراء والزجاج :على القطع بسبب مجىء النكرة بعد تمام الكلام ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ خاصة ، لا تعبدوا غيرى كائنًا ما كان .

﴿ **وتقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ أى تفرقوا فرقًا فى الدين حتى صار كالقطع المتفرّقة . وقال الأخفش : اختلفوا فيه، وهو كالقول الأول . قال الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف فى ، والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله . وقيل : المراد : جميع الخلق ، وأنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعًا وتقسموه بينهم، فهذا موحد، وهذا يهودى ، وهذا نصرانى ، وهذا مجوسى ، وهذا عابد وثن . ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال : ﴿ **كل إلينا راجعون** ﴾ أى كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث ، لا إلى غيرنا .

﴿ **فمن يعمل من الصالحات** ﴾ أى من يعمل بعض الأعمال الصالحة ، لا كلها ، إذ لا يطيق ذلك أحد ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ **فلا كفران لسعيه** ﴾ أى لا جحود لعمله ، ولا تضييع لجزائه ، والكفر ضدّ الإيمان ،والكفر أيضًا جحود النعمة وهو ضدّ الشكر ، يقال: كفر كفورًا وكفرانًا ، وفى قراءة ابن مسعود: « فلا كفر لسعيه ».﴿ **وإنا له كاتبون** ﴾ أى لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

﴿ **وحرام على قرية أهلكناها** ﴾ . قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة ﴿ **وحرام** ﴾ وقرأ أهل الكوفة : « وحرم » وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبوحاتم ، ورويت القراءة الثانية عن

عليّ وابن مسعود وابن عباس : وهما لغتان مثل حلّ وحلال . وقرأ سعيد بن جبير « وحرم » بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم . وقرأ عكرمة وأبو العالية « حرم » بضم الراء وفتح الحاء والميم ، ومعنى ﴿ **أهلكناها** ﴾ : قدّرنا إهلاكها ، وجملة : ﴿ **أنهم لا يرجعون** ﴾ فى محلّ رفع على أنه مبتدأ وخبره ﴿**حرام** ﴾ أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره .والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء ؛ وقيل إن ﴿ **لا** ﴾ في ﴿ **لا يرجعون** ﴾ زائدة أى حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا واختار هـذا أبو عبيد . وقيل : أن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ، أى واجب على قرية ، ومنه قول الخنساء :

وإن حرامًا لا أرى الدهر باكيًا على شجوه إلا بكيت على صخر

وقيل : حرام : أى ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن لا زائدة . قال النحاس : والآية مشكلة ، ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال : واجب أنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون . قال الزجاج وأبو على الفارسى : إن في الكلام إضمارًا ، أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ،أو بالختم على قلوب أهلها ، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون .

﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج** ﴾ : « حتى » هذه هى التى يحكى بعدها الكلام ، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ الذى عليهم ، على حذف المضاف . وقيل إن حتى هذه هى التى للغاية. والمعنى : أن هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة ، وهى يوم فتح سد يأجوج ومأجوج ﴿ **وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ الضمير ليأجوج ومأجوج ،والحدب كلّ أكمة من أرض مرتفعة والجمع أحداب، مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ **ينسلون** ﴾ يسرعون . وقيل : يخرجون . قال الزجاج : والنسلان مشية الذئب إذا أسرع . يقال : نسل فلان فى العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا ، أى أن يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشى ويتفرقون فى الأرض ؛ وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **وهم** ﴾ لجميع الخلق ؛ والمعنى : أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض. وقرئ بضم السين . حكى ذلك المهدوى عن ابن مسعود . وحكى هذه القراءة أيضًا الثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء.

﴿ **واقترب الوعد** ﴾ عطف على ﴿ **فتحت** ﴾ والمراد ما بعد الفتح من الحساب . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : المراد بالوعد الحق : القيامة والواو زائدة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب إذا ، وأنشد الفراء :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى

أى انتحى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات: ١٠٣ ، ١٠٤]

وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿ فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ وقال البصريون : الجواب محذوف ، والتقدير : قالوا: ياويلنا . وبه قال الزجاج ، والضمير فى ﴿ فإذا هى ﴾ للقصة ، أو مبهم يفسره ما بعده ، وإذا للمفاجأة . وقيل : إن الكلام تمّ عند قوله: ﴿ هى ﴾، والتقدير : ﴿ فإذا هي ﴾ يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ ، أى أبصار الذين كفروا شاخصة. و﴿ يا ويلنا ﴾ على تقدير القول ﴿ قد كنا فى غفلة من هذا ﴾ أى من هذا الذى دهمنا من البعث والحساب ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أى لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كانت عاقرًا فجعلها الله ولودًا ووهب له منها يحيى ، وفي قوله: ﴿وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : أذلاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ يدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال : رغبًا في رحمة الله ورهبًا من عذاب الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه : ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال : « رغبًا هكذا ورهبًا هكذا » وبسط كفيه ، يعنى جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، والبيهقى في الشعب عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ قال : إن هذا دينكم دينا واحدا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ قال تقطعوا : اختلفوا فى الدين . وأخرج الفريابى وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى في الشعب عن ابن عباس فى قوله :﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ قال : وجب إهلاكها ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ قال :لا يتوبون .وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وحرم على قرية » قال : وجب على قرية ﴿ أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ كما قال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس: ٣١] . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد ا بن جبير مثله. وأخرج ابن جرير ،وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من

كل حدب ﴾ قال شرف ﴿ ينسلون ﴾ قال : يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾.

بين سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة ، والمراد بقوله : ﴿ وما تعبدون ﴾ : الأصنام التي كانوا يعبدون . قرأ الجمهور : ﴿حصب ﴾ بالصاد المهملة ، أى وقود جهنم وحطبها ، وكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهرى . قال أبو عبيدة : كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة : ٢٤] وقرأ علىّ بن أبى طالب وعائشة : « حطب جهنم » بالطاء ، وقرأ ابن عباس : « حضب » بالضاد المعجمة . قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل اليمن: الحطب . ووجه إلقاء الأصنام فى النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحسّ به : التبكيت لمن عبدها ، وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم . وقيل : إنها تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم ، وجملة : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ إما مستأنفة أو بدل من ﴿ حصب جهنم ﴾ والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبًا ، واللام في ﴿ لها ﴾ للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل . وقيل : هى بمعنى على ، والمراد بالورود هنا : الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ، لأن ﴿ ما ﴾ لمن لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال : ومن يعبدون. قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

﴿ **لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها** ﴾ أى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ، ما وردوها أى ماورد العابدون هم والمعبودون النار . وقيل : ما ورد العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ **وكل فيها خالدون** ﴾ أى كلّ العابدين والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿ **لهم فيها زفير** ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار ، والزفير صوت نفس المغموم ، والمراد هنا : الأنين والتنفس الشديد ، وقد تقدم بيان هذا فى هود. ﴿ **وهم فيها لا يسمعون** ﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدّة الهول. وقيل : لا يسمعون شيئًا ، لأنهم يحشرون صمًا كما قال سبحانه : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوهم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّح وتأنس ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوؤهم .

ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ أى الخصلة التي هى أحسن الخصال وهى السعادة . وقيل : التوفيق ، أو التبشير بالجنة ، أو نفس الجنة .﴿ **أولئك عنها مبعدون** ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿ **عنها** ﴾ أى عن جهنم ﴿ **مبعدون** ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة . ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ الحسّ والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء يمرّ قريبًا منك . والمعنى : لا يسمعون حركة النار وحركة أهلها ، وهذه الجملة بدل من ﴿ **مبعدون** ﴾ أو حال من ضميره ﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾ أى دائمون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين كما قال سبحانه : ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ [فصلت : ٣١]. ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قرأ أبو جعفر وابن محيصن : « لا يحزنهم » بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ الباقون ﴿ **لا يحزنهم** ﴾ بفتح الياء وضم الزاى. وقال اليزيدى : حزنه لغة قريش ،وأحزنه لغة تميم . والفزع الأكبر : أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿ **وتتلقاهم الملائكة** ﴾ أى تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿ **هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ أى توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح ، لا المسيح وعزير والملائكة، وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿ **إنكم وما تعبدون** ﴾ الآية أتى ابن الزبعرى إلى رسول الله ﷺ فقال :يا محمد، ألست تزعم أن عزيرًا رجل صالح ، وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : « بلى » فقال: فإن الملائكة وعيسى وعزيرا ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ وسيأتى بيان من أخرج هذا قريبًا إن شاء الله .

﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج والزهرى : «تطوى» بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء ، وقرأ مجاهد : « يطوى » بالتحتية المفتوحة مبنيًا للفاعل على معنى يطوى الله السماء ، وقرأ الباقون ﴿ **نطوى** ﴾ بنون العظمة

وانتصاب ﴿ **يوم** ﴾ بقوله : ﴿ **نعيده** ﴾ أى نعيده يوم نطوى السماء ، وقيل : هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون ، والتقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى . وقيل : بقوله : ﴿ **لا يحزنهم الفزع** ﴾ وقيل : بقوله :﴿ **تتلقاهم** ﴾. وقيل : متعلق بمحذوف ، وهو اذكر ، وهذا أظهر وأوضح ، والطىّ ضد النشر . وقيل : المحو، والمراد بالسماء : الجنس ، والسجل: الصحيفة ، أى طيًا كطىّ الطومار . وقيل : السجل : الصك ، وهو مشتق من المساجلة وهى المكاتبة ، وأصلها من السجل ، وهو الدلو ، يقال : ساجلت الرجل : إذا نزعت دلوًا ونزع دلوًا ، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام ، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجدًا ... يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير : « السجل » بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام ،والطىّ في هذه الآية يحتمل معنين : أحدهما : الطىّ الذي هو ضدّ النشر، ومنه قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ [الزمر:٦٧] والثانى : الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ويكدّر نجومها. وقيل : السجل اسم ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم . وقيل : هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ ، والأول أولى . وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : ﴿**للكتب**﴾ جمعًا ، وقرأ الباقون ﴿ **للكتاب** ﴾ وهو متعلق بمحذوف حال من السجل ، أى كطىّ السجل كائنًا للكتب أو صفة له ، أى الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها، فسجلها بعض أجزائها ، وبه يتعلق الطىّ حقيقة . وأما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر، واللام للتعليل ، أى كما يطوى الطومار للكتابة ، أى ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، وهذا على تقدير أن المراد بالطىّ المعنى الأوّل ، وهو ضد النشر ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرّلا كذلك نعيدهم يوم القيامة ، فأوّل خلق مفعول نعيد مقدرًا يفسره نعيده المذكور ، أو مفعول لبدأنا وما كافة أو موصولة ، والكاف متعلقة بمحذوف ، أى نعيد مثل الذى بدأناه نعيده ، على هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا، أو حال ، وإنما خص أوّل الخلق بالذكر تصويرًا للإيجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ للشمول الإمكانى الذاتى لهما وقيل معنى الآية : نهلك كل نفس كما كان أول مرة ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : ﴿ **يوم نطوى السماء** ﴾. وقيل : المعنى : نغير السماء ، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأول أولى ، وهو مثل قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة ﴾ [الأنعام : ٩٤]، ثم قال سبحانه: ﴿ **وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ انتصاب ﴿ **وعدا** ﴾ على أنه مصدر ، أى وعدنا وعدًا علينا إنجازه والوفاء به . وهو البعث والإعادة ، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إنا كنا فاعلين**﴾. قال الزجاج : معنى ﴿ **إنا كنا فاعلين** ﴾ : إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : إنا كنا فاعلين

ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ [المزمل : ١٨] .

﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور** ﴾ الزبر فى الأصل : الكتب ، يقال : زبرت ، أى كتبت وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور . وقيل : المراد به هنا : كتاب داود ، ومعنى ﴿ **من بعد الذكر** ﴾ أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو التوراة ، أى والله لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ ﴿ **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ . قال الزجاج : الزبور جميع الكتب : التوراة والإنجيل والقرآن ، لأن الزبور والكتاب فى معنى واحد ، يقال : زبرت وكتبت ، ويؤيد ماقاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى ، فإنه جمع زبر . وقد اختلف فى معنى ﴿ **يرثها عبادى الصالحون** ﴾ فقيل: المراد : أرض الجنة ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ [الزمر: ٧٤] . وقيل : هى الأرض المقدّسة . وقيل : هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها . وقيل : المراد بذلك : بنو إسرائيل ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين . وقرأ حمزة : « عبادى » بتسكين الياء ، وقرأ الباقون بتحريكها .

﴿ **إن في هذا لبلاغا** ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه ﴿ **لبلاغا** ﴾: لكفاية ، يقال: فى هذا الشىء بلاغ وبلغة وتبلغ ، أى كفاية . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ **إن في هذا** ﴾ إلى القرآن ﴿ **لقوم عابدين** ﴾ أى مشغولين بعبادة الله مهتمين بها . والعبادة هى : الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد ﷺ ، ورأس العبادة الصلاة . ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ أى وما أرسلناك يامحمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال والعلل ، أى ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين، قيل : ومعنى كونه رحمة للكفار : أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال. وقيل : المراد بالعالمين : المؤمنون خاصة ، والأوّل أولى بدليل قوله سبحانه : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال : ﴿ **قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ إن كانت « ما » موصولة فالمعنى : أن الذى يوحى إلىّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها ، وإن كانت « ما » كافة فالمعنى : أن الوحى إلىّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ، ووجه ذلك أن القصر أبدًا يكون لما يلى إنما ، فإنما الأولى لقصر الوصف علي الشىء كقولك : إنما يقوم زيد ، أى ما يقوم إلا زيد . والثانية لقصر الشىء على الحكم كقولك : إنما زيد قائم ، أى ليس به إلا صفة القيام ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه .

﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عن الإسلام ﴿ **فقل** ﴾ لهم ﴿ **آذنتكم على سواء** ﴾ أى أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء فى الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : ٥٨] أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضًا سوّيت بينهم فيه. وقال الزجاج : المعنى : أعلمتكم ما يوحى إلىّ على استواء في العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئًا كتمته على غيره ﴿ **وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون** ﴾ أى ما أدرى ما توعدون به قريب حصوله أم بعيد ، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله . وقيل : المراد بما توعدون : القيامة . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكن لا أدرى ما يؤذن لى فى محاربتكم ﴿ **إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون** ﴾ أى يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه ﴿**وإن أدرى لعله فتنة لكم** ﴾ أى ما أدرى لعلّ الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿**ومتاع إلى حين** ﴾ أى وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته.

ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **قال رب احكم بالحق** ﴾ أى احكم بينى وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن : « رب » بضم الباء قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم : رجل أقبل ، حتى يقول : يارجل . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب : « أحكم » بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أى قال محمد : ربى أحكم بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدرى : «أحكم» بصيغة الماضى ، أى أحكم الأمور بالحق . وقرئ : « قل » بصيغة الأمر ، أى قل يا محمد . قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير : ربّ احكم بحكمك الحق ، ﴿ **رب** ﴾ فى موضع نصب ، لأنه منادى مضاف إلى الضمير ، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين . ثم قال سبحانه متممًا لتلك الحكاية : ﴿ **وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ من الكفر والتكذيب ، فـ﴿ **ربنا** ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ **الرحمن** ﴾ أى هو كثير الرحمة لعباده ، ﴿**المستعان** ﴾ خبر آخر ، أى المستعان به فى الأمور التى من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : ٣] وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن ولدا ﴾ [مريم : ٨٨] وكثيرًا ما يستعمل الوصف فى كتاب الله بمعنى الكذب كقوله : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقوله:﴿سنجزيهم وصفهم ﴾ [الأنعام:١٣٩] وقرأ المفضل والسلمى: « على ما يصفون » بالياء التحتية. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد ، وأبو داود في ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : لما نزل : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله ، فنزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾

عيسى وعزير والملائكة (١) . وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه قال : جاء عبد الله ابن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جنهم أنتم لها واردون** ﴾ قال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون. وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾[الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] ثم نزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر والطبرانى من وجه آخر عنه أيضًا نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ قال : « عيسى وعزير والملائكة » .

وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **حصب جنهم** ﴾ قال : شجر جهنم ، وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿ **حصب جهنم** ﴾ وقودها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : هو حطب جهنم بالزنجية . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ في قوله : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ قال : « حيات على الصراط تقول : حس حس » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عثمان النهدى في قوله:﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ قال :حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قالوا: حس حس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن محمد بن حاطب قال : سئل عليّ عن هذه الآية: ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ قال : هو عثمان وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا يسمعون حسيسها**﴾ يقول : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قال : النفخة الآخرة ، وفى إسناده العوفى . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أمّ قومًا وهم به راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة ، وعبد أدّى حقّ الله وحقّ مواليه » (٢) . وأخرج عبد بن حميد عن عليّ في قوله : ﴿ **كطى السجل** ﴾ قال : ملك . وأخرج عبد بن حميد عن عطية مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : السجل : ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نورا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى جعفر الباقر قال : السجل : ملك. وأخرج أبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، وابن منده فى المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه

(١) ابن جرير ١٧/ ٧٧ والطبرانى (١٢٧٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٥ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٢٦ والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث سفيان الثورى عن أبى اليقظان ». وفى المطبوعة « وهم له راضون » و التصويب من أحمد والترمذى .

وصححه عن ابن عباس قال : السجل : كاتب للنبى ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن عدىّ وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى : السجل ، وهو قوله : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ قال : كما يطوى السجل الكتاب كذلك نطوى السماء . وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عمر قال: كان للنبى ﷺ كاتب يقال له : السجل ، فأنزل الله : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ .

قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث : وهذا منكر جدًا من حديث نافع عن ابن عمر ، لا يصح أصلا . قال: وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لا يصح أيضًا . وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزى ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءًا له علي حدة ، ولله الحمد . قال : وقد تصدّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردّه أتمّ رد ، وقال : ولا نعرف في الصحابة أحدًا اسمه سجلّ ، وكتاب النبى ﷺ كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل . وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث . وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم . قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجلّ هو الصحيفة ، قاله علىّ بن أبى طلحة والعوفي عنه . ونصّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتاب : أى علي الكتاب ، يعنى المكتوب كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : ١٠٣] أى على الجبين ، وله نظائر في اللغة والله أعلم . قلت : أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا ، فإن علىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ضعيفان، فالأولى التعويل على معنى اللغوى والمصير إليه. وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ **السجل** ﴾ هو الرجل ، زاد ابن مردويه : بلغة الحبشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية قال : كطىّ الصحيفة على الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ يقول : نهلك كل شىء كما كان أوّل مرّة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه في قوله : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر** ﴾ قال : القرآن ﴿ **أن الأرض** ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور** ﴾ قال : الكتب ﴿ **من بعد الذكر** ﴾ قال: التوراة. وفي إسناده العوفى . وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضًا ، قال : الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن . والذكر : الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى فى السماء . والأرض : أرض الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ قال : أرض الجنة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أخبر الله

سبحانه فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون ، وفى قوله: ﴿ **لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال: عالمين ، وفى إسناده علىّ بن أبى طلحة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة : ﴿ **إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال :الصلوات الخمس . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : فى قول الله : ﴿ **إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : « فى الصلوات الخمس شغلاً للعبادة » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ **لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ قال : من آمن تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : « إنى لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة » [(١)]. وأخرج الطيالسى وأحمد والطبرانى ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين »[(٢)]. وأخرج أحمد والطبرانى عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال : « أيما رجل من أمتى سببته سبة في غضبى أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمة للعالمين ، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة» [(٣)]. وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » [(٤)] وقد روى معنى هذا من طرق .

وأخرج ابن أبى خيثمة وابن عساكر عن الربيع بن أنس قال : لما أسرى بالنبىّ ﷺ رأى فلانًا ، وهو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ يقول : هذا الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم** ﴾ يقول : ما أخبركم به من العذاب والساعة ، لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**قل رب احكم بالحق** ﴾ قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه .

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٩٩ / ٨٧) .

(٢) أحمد ٥/ ٢٥٧ وهو جزء من حديث طويل والطبرانى (٧٨٠٣) وقال الهيثمى في المجمع ٥/ ٧٢ :« فيه على ابن زيد وهو ضعيف » وأبو نعيم فى الدلائل ص ٩ .

(٣) أحمد ٥/ ٤٣٧ والطبرانى (٦١٥٦) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ١/ ١٥٨ .

تفسير سورة الحج

وهى ثمانٍ وسبعون آية . اختلف أهل العلم : هل هى مكية أو مدنية ؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير مثله . وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى** ﴾ إلى : ﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ . وحكى القرطبى عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات وقيل : أربع آيات إلى قوله : ﴿ **عذاب الحريق** ﴾ . وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات . قال القرطبى وقال الجمهور : إن السورة مختلطة، منها مكى ، ومنها مدنى . قال : وهذا هو الصحيح . قال العزيزى : وهى من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، ناسخًا ومنسوخًا ، محكمًا ومتشابها .

وقد ورد فى فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عقبة بن عامر قال : قلت : يارسول الله ، أفضلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : « نعم ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[(١)] . قال الترمذى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى [(٢)]. وأخرج أبو داود فى المراسيل ، والبيهقى عن خالد بن معدان ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين » [(٣)]. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والإسماعيلى وابن مردويه والبيهقى عن عمر ؛ أنه كان يسجد سجدتين فى الحجّ وقال : إن هذه السورة فضلت على سائر القرآن بسجدتين .وقد روى عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين، وبه يقول ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق. وقال بعضهم : إن فيها سجدة واحدة ، وهو قول سفيان الثورى ، وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عباس وإبراهيم النخعى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

---

(١) أحمد ٤/ ١٥١ ، ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٢) والترمذى فى الصلاة (٥٧٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٠ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢/٣١٧ .

(٢) قال الحاكم : « هذا حديث لم يكتب مسندا إلا من هذا الوجه ، وعبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى أحد الأئمة ، إنما نقم عليه اختلاطه فى آخر عمره وقد صحت الرواية فيه من قول عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى وأبى الدرداء وعمار رضى الله عنهم» قال الشيخ أحمد شاكر : « الحديث صحيح ، وابن لهيعة ومشرح بن هاعان ثقتان » .

(٣) أبو داود فى المراسيل (٧٨) والبيهقى ٢/ ٣١٧ .

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾.

لما انجرّ الكلام فى خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها ، بدأ سبحانه فى هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها ، حثًا على التقوى التى هى أنفع زاد فقال : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ أى احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر فى موضعه ، وقد قدّمنا طرفًا من تحقيق ذلك فى سورة البقرة . وجملة : ﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى ، والزلزلة : شدة الحركة ، وأصلها من زلّ عن الموضع ، أى زال عنه وتحرّك ، وزلزل اللّه قدمه ، أى حركها ، وتكرير الحرف يدلّ على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، وهى على هذا، الزلزلة التى هى أحد أشراط الساعة التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور . وقيل : إنها تكون فى النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها . وقيل: إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف ، وهو الساعة ، إجراء له مجرى المفعول ، أو بتقدير « فى » كما فى قوله: ﴿ **بل مكر الليل والنهار** ﴾ [سبأ : ٣٣] . وهى المذكورة فى قوله : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ [الزلزلة:١] . قيل : وفى التعبير عنها بالشىء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها . ﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت** ﴾ انتصاب الظرف بما بعده ، والضمير يرجع إلى الزلزلة ، أى وقت رؤيتكم لها ، تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه . قال قطرب : تذهل : تشتغل ، وأنشد قول الشاعر :

ضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقيل : تنسى . وقيل : تلهو. وقيل : تسلو، وهذه معانيها متقاربة . قال المبرّد : إن «ما» فيما أرضعت بمعنى المصدر: أى تذهل عن الإرضاع ، قال : وهذا يدلّ على أن هذه

الزلزلة فى الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع ، إلا أن يقال : من ماتت حاملا فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال هذا مثل، كما يقال : ﴿ يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ [المزمل : ١٧]. وقيل : يكون مع النفخة الأولى ، قال : ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة ، كما فى قوله : ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ [البقرة : ٢١٤] ومعنى ﴿ **وتضع كل ذات حمل حملها** ﴾: أنها تلقى جنينها لغير تمام من شدّة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿ **وترى الناس سكارى** ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد ، أى يراهم الرائى كأنهم سكارى ﴿ **وماهم بسكارى** ﴾ حقيقة ، قرأ حمزة والكسائى : « سكرى » بغير ألف ، وقرأ الباقون بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذى لأجله شابهوا السكارى فقال : ﴿ **ولكن عذاب الله شديد** ﴾ فبسبب هذه الشدّة والهول العظيم طاشت عقولهم ، واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التميز وصحة الإدراك . وقرئ : « وترى » بضم التاء وفتح الراء مسندًا إلى المخاطب من أرأيتك ، أى تظنهم سكارى . قال الفراء : ولهذه القراءة وجه جيد فى العربية .

ثم لما أراد سبحانه أن يحتجّ على منكرى البعث قدّم قبل ذلك مقدّمة تشمل أهل الجدال كلهم فقال : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم** ﴾ وقد تقدّم إعراب مثل هذا التركيب فى قوله: ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة: ٨] ومعنى ﴿ **فى الله** ﴾: فى شأن الله وقدرته ، ومحل ﴿ **بغير علم** ﴾ النصب على الحال . والمعنى : أنه يخاصم فى قدرة اللّه ، فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه ، ولا حجة يدلى بها ﴿**ويتبع**﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه ﴿ **كل شيطان مريد** ﴾ أى متمرد على الله وهو العاتى ، سمى بذلك لخلوه عن كل خير ، والمراد : إبليس وجنوده ، أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر . وقال الواحدى : قال المفسرون : نزلت فى النضر بن الحارث وكان كثير الجدال ، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ **كتب عليه أنه من تولاه** ﴾ أى كتب على الشيطان ، وفاعل كتب : أنه من تولاه ، والضمير للشأن ، أى من اتخذه وليا ﴿ **فأنه يضله** ﴾ أى فشأن الشيطان أن يضله عن طريق الحقّ ، فقوله : ﴿ **أنه يضله** ﴾ جواب الشرط إن جعلت من شرطية ، أو خبر الموصول إن جعلت موصولة ، فقد وصف الشيطان بوصفين : الأوّل أنه مريد ، والثانى ما أفاده جملة كتب عليه إلخ ، وجملة : ﴿ **ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **يضله** ﴾ أى يحمله على مباشرة ما يصير به فى عذاب السعير .

ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدّمة ، فقال: ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث** ﴾ قرأ الحسن: « البعث » بفتح العين وهى لغة، وقرأ الجمهور بالسكون ، وشكهم يحتمل أن يكون فى وقوعه أو فى إمكانه . والمعنى :

إن كنتم فى شكّ من الإعادة فانظروا فى مبدأ خلقكم ، أى خلق أبيكم آدم ، ليزول عنكم الريب ، ويرتفع الشكّ وتدحض الشبهة الباطلة ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب** ﴾ فى ضمن خلق أبيكم آدم « ثم » خلقناكم ﴿ **من نطفة** ﴾ أى من منى . سمى نطفة لقلته ، والنطفة : القليل من الماء . وقد يقع على الكثير منه . والنطفة : القطرة ، يقال: نطف ينطف ، أى قطر . وليلة نطوف ، أى دائمة القطر ﴿ **ثم من علقة** ﴾ والعلقة : الدم الجامد. والعلق : الدم العبيط، أى الطرى أو المتجمد . وقيل : الشديد الحمرة . والمراد : الدم الجامد المتكون من المنى ﴿ **ثم من مضغة** ﴾ وهى القطعة من اللحم، قدر ما يمضغ الماضغ تتكوّن من العلقة ﴿ **مخلقة** ﴾ بالجرّ صفة لمضغة ، أى مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿ **وغير مخلقة** ﴾ أى لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها . قال ابن الأعرابى : مخلقة يريد : قد بدأ خلقه ، وغير مخلقة : لم تصوّر. قال الأكثر : ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه ؛ فهو المخلقة وهو الذى ولد لتمام ، وما سقط ؛كان غير مخلقة أى غير حيّ بإكمال خلقته بالروح . قال الفراء : مخلقة : تامّ الخلق ، وغير مخلقة: السقط ، ومنه قول الشاعر :

أفى غير المخلقة البكاء ... فأين الحزم ويحك والحياء ؟

والللام فى ﴿ **لنبين لكم** ﴾ متعلق بخلقنا ، أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ **ونقر فى الأرحام ما نشاء** ﴾ روى أبو حاتم عن أبى زيد عن المفضل عن عاصم أنه قرأ بنصب نقر عطفا على نبين ، وقرأ الجمهور : ﴿ **نقر** ﴾ بالرفع على الاستئناف ، أى ونحن نقرّ . قال الزجاج : نقر بالرفع لا غير ، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء . ومعنى الآية : ونثبت فى الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطًا ﴿**إلى أجل مسمى** ﴾ وهو وقت الولادة ، وقال : ما نشاء ، ولم يقل : من نشاء ، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقرئ . «ليبين » « ويقر » و « يخرجكم » بالتحتية فى الأفعال الثلاثة ، وقرأ ابن وثاب : « ما نشاء » بكسر النون ﴿ **ثم نخرجكم طفلا** ﴾ أى نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلا ، أى أطفالا ، وإنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد . قال الزجاج : طفلا فى معنى أطفالا ، ودلّ عليه ذكر الجماعة : يعنى فى : نخرجكم ، والعرب كثيرًا ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ، ومنه قول الشاعر :

يلحيننى من حبها ويلمننى ... إن العواذل لسن لى بأمير

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدرًا كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد والجمع ، قال الله سبحانه : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴾ [النور : ٣١] . قال ابن جرير : هو منصوب على التمييز كقوله : ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا ﴾ [النساء : ٤] وفيه بعد ، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور ، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ ﴿**ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾ قيل :هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له ، كأنه قيل : نخرجكم لتكبروا شيئًا فشيئًا ثم لتبلغوا إلى الأشد . وقيل : إن ثم زائدة والتقدير : لتبلغوا .

وقيل : إنه معطوف على نبين . والأشدّ هو : كمال العقل وكمال القوّة والتمييز . قيل : وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين . وقد تقدم الكلام فى هذا مستوفى فى الأنعام ﴿ **ومنكم من يتوفى**﴾ يعنى : قبل بلوغ الأشدّ، وقرئ : « يتوفى » مبنيا للفاعل . وقرأ الجمهور : ﴿ **يتوفى** ﴾ مبنيًا للمفعول ﴿ **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر** ﴾ أى أخسه وأدونه ، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **لكيلا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾ أى شيئًا من الأشياء ، أو شيئًا من العلم ، والمعنى : أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها ، لا علم له ولا فهم ، ومثله قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين: ٤، ٥] ، وقوله : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق ﴾ [يس : ٦٨] . ﴿ **وترى الأرض هامدة** ﴾ هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء ، على إحياء الأموات ، والهامدة : اليابسة التى لا تنبت شيئًا . قال ابن قتيبة : أى ميتة يابسة كالنار إذا طفئت . وقيل : دارسة ، والهمود : الدروس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ما لجسمك شاحبًا وأرى ثيابك باليات همودا

وقيل : هى التى ذهب عنها الندى . وقيل : هالكة ، ومعانى هذه الأقوال متقاربة ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾ المراد بالماء هنا : المطر ، ومعنى اهتزت: تحركت. والاهتزاز : شدّة الحركة ، يقال : هززت الشىء فاهتزّ ، أى حركته فتحرك ؛ والمعنى : تحركت بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة ، فسماه اهتزازًا مجازًا . وقال المبرد : المعنى : اهتز نباتها فحذف المضاف . واهتزازه شدة حركته ، والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ومعنى ربت : ارتفعت ، وقيل : انتفخت . والمعنى واحد ، وأصله : الزيادة ، يقال : ربا الشىء يربو ربوًا: إذا زاد ، ومنه الربا والربوة . وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس : « وربأت » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ، وهو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له: رابئ ورابئة وربيئة ﴿ **وأنبتت** ﴾ أى أخرجت ﴿ **من كل زوج بهيج**﴾ أى من كلّ صنف حسن ولون مستحسن ، والبهجة : الحسن .

وجملة: ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق**﴾ مستأنفة، لما ذكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره. قال بعد ذلك هذه المقالات، وهى إثبات أنه سبحانه الحق ، وأنه المتفرد بإحياء الموتى ، وأنه قادر على كل شىء من الأشياء ، والمعنى : أنه المتفرد بهذه الأمور، وأنها من شأنه لا يدّعى غيره أنه يقدر على كل منها ، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقى الغنى المطلق ؛ وأن وجود كل موجود مستفاد منه ، والحق هو الموجود الذى لا يتغير ولا يزول. وقيل: ذو الحقّ على عباده . وقيل : الحقّ فى أفعاله. قال الزجاج: ﴿**ذلك**﴾ فى موضع رفع ، أى الأمر ما وصفه لكم وبين بأن اللّه هو الحق . قال :ويجوز أن يكون ﴿**ذلك**﴾ نصبًا .

ثم أخبر سبحانه بأن ﴿ **الساعة آتية** ﴾ أى فى مستقبل الزمان ، قيل : لا بدّ من إضمار فعل ، أى ولتعلموا أن الساعة آتية ﴿ **لا ريب فيها** ﴾ أى لا شك فيها ولا تردّد ، وجملة : ﴿**لا**

ريب فيها ﴾ خبر ثان للساعة ، أو فى محل نصب على الحال . ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، إن خيرًا فخير وإن شرا فشرّ ، وأن ذلك كائن لا محالة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم،والحاكم وصححه،وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال : لما نزلت ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ أنزلت عليه هذه وهو فى سفر ، فقال : « أتدرون أىّ يوم ذلك ؟ » قالوا : اللهّ ورسوله أعلم قال : « ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال: يارِبّ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحدًا إلى الجنة » ، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ:« قاربوا وسدّدوا وأبشروا، فإنها لم تكن نبوّة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدّة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة ، أو كالشامة فى جنب البعير»، ثم قال : «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال: « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ، قال: ولا أدرى قال الثلثين أم لا (١). وأخرج الترمذى وصححه، وابن جرير وابن المنذر عن عمران ابن حصين مرفوعًا نحوه، وقال فى آخره: « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج، ومن مات من بنى آدم ومن بنى إبليس » ، فسرى عن القوم بعض الذى يجدون ، قال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير، أو كالرقمة فى ذراع الدابة » (٢). وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس مرفوعًا نحوه (٣). وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس مرفوعًا نحوه أيضًا. وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال النبى ﷺ فذكر نحوه(٤) ، وفى آخره فقال : « من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد ، وهل أنتم فى الأمم إلا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود » .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ كتب عليه ﴾ قال : كتب على الشيطان . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن

(١) أحمد ٤/ ٤٣٥ والترمذى فى التفسير (٣١٦٨) وقال :« هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٦٠) وابن جرير ١٧/ ٨٦ وصححه الحاكم ٢/ ٢٣٣، ٢٣٤ ووافقه الذهبى .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٦٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ١٧/ ٨٦ .

(٣) ابن جرير ١٧/ ٨٧ وابن حبان (٧٣١٠) وصححه الحاكم ١/ ٢٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٨) ومسلم فى الإيمان (٢٢٢/ ٣٧٩) والنسائى فى التفسير (٣٥٩) .

جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله : ﴿ **أنه من تولاه** ﴾ قال: اتبعه . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة،ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (١) . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدًا . وأخرج ابن أبى حاتم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **مخلقة وغير مخلقة** ﴾ قال : المخلقة : ما كان حيا ، وغير المخلقة : ما كان سقطًا . وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من كل زوج بهيج** ﴾ قال : حسن . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن معاذ بن جبل قال: من علم أن اللّه عزّ وجلّ حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن اللّه يبعث من فى القبور ؛ دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) ﴾.

قوله : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله** ﴾ أى فى شأن اللّه ، كقول من قال : إن الملائكة بنات اللّه ، والمسيح ابن اللّه ، وعزير ابن اللّه . قيل : نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل . وقيل : هى عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم ، وعلى كل حال فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ وإن كان السبب خاصًا. ومعنى اللفظ: ومن الناس فريق يجادل فى

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم فى القدر (٢٦٤٣/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٨) والترمذى فى القدر (٣١٣٧) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (٧٦) وأحمد ١/ ٣٨٢ ، ٤٣٠ .

اللّه، فيدخل فى ذلك كل مجادل فى ذات اللّه ، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، و﴿**بغير علم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كائنًا بغير علم . قيل : والمراد بالعلم هو : العلم الضرورى، وبالهدى هو: العلم النظرى الاستدلالى. والأولى حمل العلم على العموم، وحمل الهدى على معناه اللغوى،وهو الإرشاد. والمراد بالكتاب المنير هو: القرآن، والمنير:النير البين الحجة الواضح البرهان، وهو وإن دخل تحت قوله: ﴿ **بغير علم** ﴾ فإفراده بالذكركإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم . وأما من حمل العلم على الضرورى والهدى على الاستدلالى ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعى ، فتكون الآية متضمنة لنفى الدليل العقلى ضروريًا كان أو استدلاليا، ومتضمنة لنفى الدليل النقلى بأقسامه ، وما ذكرناه أولى . قيل : والمرادبهذا المجادل فى هذه الآية هو المجادل فى الآية الأولى ، أعنى قوله : ﴿ ومن الناس من يجادل فى اللّه بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : ٣] وبذلك قال كثير من المفسرين . والتكريرللمبالغة فى الذم كما تقول للرجل تذمه وتوبخه : أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا ؟ ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه فى كل آية بزيادة على ما وصفه به فى الآية الأخرى ، فكأنه قال : ومن الناس من يجادل فى اللّه ويتبع كلّ شيطان مريد بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ليضل عن سبيل الله . وقيل : الآية الأولى فى المقلدين اسم فاعل . والثانية فى المقلدين اسم مفعول . ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال : إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة فى كلّ إضلال وجدال .

وانتصاب ﴿ **ثانى عطفه** ﴾ على الحال من فاعل يجادل، والعطف:الجانب ، عطفا الرجل : جانباه من يمين وشمال، وفى تفسيره وجهان: الأوّل: أن المراد به من يلوى عنقه مرحًا وتكبرًا ، ذكر معناه الزجاج. قال: وهذا يوصف به المتكبر. والمعنى: ومن الناس من يجادل فى اللّه متكبراً. قال المبرد: العطف: ما انثنى من العنق. والوجه الثانى: أن المراد بقوله: ﴿**ثانى عطفه**﴾: الإعراض، أى معرضًا عن الذكر ، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى: ﴿ ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ﴾ [لقمان :٧]،وقوله: ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ [المنافقون: ٥]، وقوله: ﴿ أعرض ونأى بجانبه﴾[الإسراء : ٨٣]، واللام فى ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ متعلق بـ﴿ **يجادل**﴾ أى أن غرضه هو الإضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك. وقرئ: « ليضل » بفتح الياء على أن تكون اللام هى لام العاقبة كأنه جعل ضلاله غاية لجداله، وجملة: ﴿ **له فى الدنيا خزى** ﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة. والخزى: الذل، وذلك بما يناله من العقوبة فى الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس. وقيل: الخزى الدنيوى هو: القتل، كما وقع فى يوم بدر ﴿ **ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾ أى عذاب النار المحرقة .

والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ماتقدّم من العذاب الدنيوى والأخروى، وهو مبتدأ خبره : ﴿ **بما قدمت يداك** ﴾ ، والباء للسببية ، أى ذلك العذاب النازل بك بسبب ما قدّمته يداك من الكفر والمعاصى، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها فى الغالب ،

ومحل أن وما بعدها فى قوله : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب . وقد مرّ الكلام على هذه الآية فى آخر آل عمران فلا نعيده .

﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : الحرف: الشك ، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه ، مثل حرف الجبل والحائط ، فإن القائم عليه غير مستقرّ ، والذى يعبد اللّه على حرف قلق فى دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذى هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطرابا ويضعف قيامه فقيل للشاك فى دينه إنه يعبد الله على حرف ؛ لأنه على غير يقين من وعده ووعيده ، بخلاف المؤمن ؛ لأنه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف. وقيل: الحرف : الشرط ، أى ومن الناس من يعبد اللّه على شرط ، والشرط هو قوله : ﴿ **فإن أصابه خير اطمأن به** ﴾ أى خير دنيوى من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال ، ومعنى ﴿ **اطمأن به** ﴾: ثبت على دينه واستمرّ على عبادته ، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذى أصابه ﴿ **وإن أصابته فتنة** ﴾ أى شيء يفتتن به من مكروه يصيبه فى أهله أو ماله أو نفسه ﴿ **انقلب على وجهه** ﴾ أى ارتدّ ورجع إلى الوجه الذى كان عليه من الكفر ، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال : ﴿ **خسر الدنيا والآخرة** ﴾ أى ذهبا منه وفقدهما ، فلا حظ له فى الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن ، ولا فى الآخرة من الأجر وما أعدّه اللّه للصالحين من عباده . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبى إسحاق : «خاسرًا الدنيا والآخرة » على صيغة اسم الفاعل منصوبًا على الحال . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿ **هو الخسران المبين** ﴾ أى الواضح الظاهر الذى لا خسران مثله ﴿ **يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه** ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر ﴿**يدعو من دون الله**﴾: أى يعبد متجاوزاً عبادة اللّه إلى عبادة الأصنام ﴿ **ما لا يضره** ﴾ إن ترك عبادته ، ﴿ **ولا ينفعه** ﴾ إن عبده لكون ذلك المعبود جمادًا لا يقدر على ضرّ ولا نفع ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو، واسم الإشارة مبتدأ وخبره: ﴿ **هو الضلال البعيد** ﴾ أى عن الحق والرشد، مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيدًا عنها. قال الفراء: البعيد: الطويل .

﴿ **يدعو لمن ضره أقرب من نفعه** ﴾ يدعو بمعنى : يقول ، والجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالا بعيدا . والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال ، بل هى ضرر بحت لمن يعبدها ؛ لأنه دخل النار بسبب عبادتها . وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة فى تقبيح حال ذلك الداعى، أو ذلك من باب ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ [سبأ: ٢٤]. واللام هى: الموطئة للقسم ومن موصولة أو موصوفة ، و﴿ **ضره** ﴾ مبتدأ خبره أقرب ، والجملة صلة الموصول . وجملة : ﴿ **لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ جواب القسم . والمعنى : أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذى ضره أقرب من نفعه : لبئس المولى

ولبئس العشير. والمولى: الناصر ، والعشير : الصاحب ، ومثل ما فى هذه الآية قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم

وقال الزجاج : يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ، أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه وعلى هذا يوقف على ﴿ يدعو ﴾ ويكون قوله : ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ كلامًا مستأنفًا مرفوعًا بالابتداء ، وخبره : ﴿ لبئس المولى ﴾ . قال : وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أوّل الكلام . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء، أى يدعو ما لا يضرّه ولا ينفعه يدعو، مثل ضربت زيدًا ضربت . وقال الفراء والكسائى والزجاج : معنى الكلام القسم . واللام مقدّمة على موضعها ، والتقدير : يدعو من لضرّه أقرب من نفعه ، فمن فى موضع نصب بـ﴿يدعو﴾ ،واللام جواب القسم و ﴿ ضره ﴾ مبتدأ ، و ﴿ أقرب ﴾ خبره ، ومن التصرف فى اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر :

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

أى لخالى أنت . قال النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ، والمعنى : يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه إلها . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطًا عن محمد بن يزيد ، ولعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها . وقال الفراء أيضًا والقفال : اللام صلة ، أى زائدة ، والمعنى : يدعو من ضرّه أقرب من نفعه ، أى يعبده ، وهكذا فى قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام ، وتكون اللام فى : ﴿ لبئس المولى ﴾ وفى : ﴿ لبئس العشير ﴾ على هذا موطئة للقسم .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ لما فرغ من ذكر حال المشركين،ومن يعبد اللّه على حرف ذكر حال المؤمنين فى الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة،وقد تقدم الكلام فى جرى الأنهار من تحت الجنات،وبينا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها،فجريان الأنهار من تحتها ظاهر؛ وإن أريد بها الأرض فلابد من تقدير مضاف ، أى من تحت أشجارها ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها،أى يفعل ما يريده من الأفعال ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء .

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فى هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدًا ﷺ وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ ثم ليقطع ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تهيأ له ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ وحيلته ﴿ ما يغيظ ﴾ من نصر النبى ﷺ . وقيل : المعنى : من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدًا حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظًا ، ثم فسره بقوله : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أى فليشدد حبلا فى سقف بيته

﴿ **ثم ليقطع** ﴾ أى ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقًا ، والمعنى : فليختنق غيظًا حتى يموت ، فإن اللّٰه ناصره ومظهره ، ولا ينفعه غيظه ، ومعنى ﴿ **فلينظر هل يذهبن كيده** ﴾ أى صنيعه وحيلته ما يغيظ ، أى غيظه ، « وما » مصدرية . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ **ينصره** ﴾ يعود إلى من ، والمعنى : من كان يظن أن اللّٰه لا يرزقه فليقتل نفسه ، وبه قال أبو عبيدة . وقيل : إن الضمير يعود إلى الدين ، أى من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . وقرأ الكوفيون بإسكان اللام فى « ثم ليقطع » . قال النحاس : وهذه القراءة بعيدة من العربية .

﴿ **وكذلك أنزلناه آيات بينات** ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع ، أنزلناه آيات واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها ﴿ **وأن الله يهدى من يريد** ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهديا من قبل .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**ثانى عطفه** ﴾ قال : لاوى عنقه . وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس والسدّى وابن يزيد وابن جرير أنه المعرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿**ثانى عطفه** ﴾ قال : أنزلت فى النضر بن الحارث . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : هو رجل من بنى عبد الدار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿**ثانى عطفه** ﴾ قال : مستكبرًا فى نفسه .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ يسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن . قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل اللّٰه : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضًا نحوه (١) . وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن مردويه أيضًا من طريقه أيضًا عن أبى سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى أقلنى ، قال : « إن الإسلام لا يقال » ، فقال : لم أصب من دينى هذا خيرًا ، ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال : « يايهودىّ ، الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة » ، فنزلت ﴿ **ومن الناس من يعبد اللّٰه على حرف** ﴾ .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم

---

(١) ابن جرير ١٧ / ٩٣ .

وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله** ﴾ قال من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا فى الدنيا والآخرة ﴿ **فليمدد بسبب** ﴾ قال : فليربط بحبل ﴿ **إلى السماء** ﴾ قال : إلى سماء بيته السقف ﴿ **ثم ليقطع** ﴾ قال : ثم يختنق به حتى يموت. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره** ﴾ يقول : أن لن يرزقه الله ﴿ **فليمدد بسبب إلى السماء** ﴾ فليأخذ حبلا فليربطه فى سماء بيته فليختنق به ﴿ **فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ** ﴾ قال : فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾.

قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى بالله وبرسوله ، أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿ **والذين هادوا** ﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿ **والصابئين** ﴾ قوم يعبدون النجوم . وقيل : هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء. ﴿ **والنصارى** ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى﴿ **والمجوس** ﴾ هم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن للعالم أصلين : النور والظلمة . وقيل : هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل : هم قوم يستعملون النجاسات . وقيل: هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح . وقيل : إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿ **والذين أشركوا** ﴾ الذين يعبدون الأصنام، وقد مضى تحقيق هذا فى البقرة ، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين ، وأخرهم عنهم هنا. فقيل : وجه تقديم النصارى هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديم الصابئين هنا أن زمنهم متقدّم على زمن النصارى ، وجملة : ﴿ **إن الله يفصل بينهم يوم القيامة** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر لإنّ المتقدّمة . ومعنى الفصل : أنه سبحانه يقضى بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة والكافرين منهم النار . وقيل الفصل هو أن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما ، وجملة : ﴿ **إن الله على كل شىء شهيد** ﴾ تعليل

لما قبلها ، أى أنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شيء منها . وأنكر الفراء أن تكون جملة ﴿ **إن الله يفصل بينهم** ﴾ خبرًا لإن المتقدّمة. وقال لا يجوز فى الكلام : إن زيداً إن أخاه منطلق ، وردّ الزجاج ما قاله الفراء، وأنكره وأنكر ما جعله مماثلا للآية ، ولا شك فى جواز قولك: إن زيدًا إن الخير عنده ،وإن زيدًا إنه منطلق ، ونحو ذلك .

﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية ، أى ألم تعلم . والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو : الانقياد الكامل ، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء ، أو عامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف ﴿ **الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب** ﴾ على من ، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من ، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعدًا فى العادة ، وارتفاع ﴿ **كثير من الناس** ﴾ بفعل مضمر يدل عليه المذكور ، أى ويسجد له كثير من الناس. وقيل: مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره : وكثير من الناس يستحق الثواب ، والأوّل أظهر . وإنما لم يرتفع بالعطف على من ، لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدّم هو : الانقياد ، فلو ارتفع بالعطف على من لكان فى ذلك جمع بين معنيين مختلفين فى لفظ واحد . وأنت خبير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه على العطف لا بأس به ، وإن أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه ، وأما قوله : ﴿ **وكثير حق عليه العذاب** ﴾ فقال الكسائى والفراء : إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده . وقيل : هو معطوف على كثير الأوّل ، ويكون المعنى : وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك . وقيل : المعنى : وكثير من الناس فى الجنة ، وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنبارى ﴿ **ومن يهن الله فماله من مكرم** ﴾ أى من أهانه اللّه بأن جعله كافرًا شقيا ، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيدا عزيزا . وحكى الأخفش والكسائى والفراء أن المعنى : ومن يهن الله فما له من مكرم ، أى إكرام ﴿ **إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما تقدّم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة .

﴿ **هذان خصمان** ﴾ الخصمان أحدهما : أنجس الفرق : اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر : المسلمون ، فهما فريقان مختصمان . قاله الفراء وغيره . وقيل : المراد بالخصمين : الجنة والنار . قالت الجنة: خلقنى لرحمته ، وقالت النار : خلقنى لعقوبته . وقيل : المراد بالخصمين : هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين : حمزة وعلىّ وعبيدة ، ومن الكافرين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . وقد كان أبو ذرّ رضى

اللّه عنه يقسم أن هذه الآية نزلت فى هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه فى الصحيح (١) ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة ، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول . وقد ثبت فى الصحيح أيضًا عن على أنه قال : فينا نزلت هذه الآية (٢) . وقرأ ابن كثير « هذانّ » بتشديد النون ، وقال سبحانه : ﴿ **اختصموا** ﴾ ولم يقل : اختصما . قال الفراء : لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، ومعنى ﴿ **فى ربهم** ﴾ فى شأن ربهم ، أى فى دينه ، أو فى ذاته ، أو فى صفاته ، أو فى شريعته لعباده ، أو فى جميع ذلك .

ثم فصل سبحانه ما أجمله فى قوله : ﴿ **يفصل بينهم** ﴾ فقال : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار** ﴾ قال الأزهرى : أى سوّيت وجعلت لبوسًا لهم ، شبهت النار بالثياب ؛ لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب . وعبر بالماضى عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه . وقيل: إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار ، وهى السرابيل المذكورة فى آية أخرى. وقيل : المعنى فى الآية : أحاطت النار بهم . وقرئ : « قطعت » بالتخفيف ، ثم قال سبحانه : ﴿ **يصب من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ والحميم هو : الماء الحار المغلى بنار جهنم ، والجملة مستأنفة أو هى خبر ثانٍ للموصول ﴿ **يصهر به ما فى بطونهم** ﴾ الصهر : الإذابة ، والصهارة : ما ذاب منه ، يقال : صهرت الشيء فانصهر ،أى أذبته فذاب فهو صهير، والمعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء ﴿ **والجلود** ﴾ معطوفة على ما ، أى ويصهر به الجلود والجملة فى محل نصب على الحال. وقيل : إن الجلود لا تذاب ، بل تحرق ، فيقدّر فعل يناسب ذلك ، ويقال : وتحرق به الجلود كما فى قول الشاعر :

علفتها تبنًا وماءً باردًا

أى وسقيتها ماء ، ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا ، فإن الحميم إذا كان يذيب ما فى البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى. ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾: المقامع جمع مقمعة ومقمع ، قمعته: ضربته بالمقمعة ، وهى قطعة من حديد . والمعنى : لهم مقامع من حديد يضربون بها ، أى للكفرة ، وسميت المقامع مقامع ؛ لأنها تقمع المضروب ، أى تذلله . قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عنى إقماعًا : إذا اطلع عليك فرددته عنك ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها** ﴾ أى من النار ﴿ **أعيدوا فيها** ﴾ أى فى النار بالضرب بالمقامع ، و ﴿ **من غم** ﴾ بدل من الضمير فى منها بإعادة الجارّ أو مفعول له ، أى لأجل غمّ شديد من غموم النار ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ هو بتقدير القول ، أى أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، أى العذاب المحرق ، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق ، تحرّق الشيء بالنار واحترق حرقة واحتراقًا ، والذوق مماسة يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به إدراك الألم . قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين . وقال فى الخصم الآخر وهم المؤمنون : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا**

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٤٣) .

(٢) المرجع السابق (٤٧٤٤) .

الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ فبين سبحانه حال المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين .

ثم بين اللّه سبحانه بعض ما أعدّه لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال : ﴿ **يحلون فيها**﴾ قرأ الجمهور ﴿ **يحلون** ﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرئ مخففًا ، أى يحليهم اللّه أو الملائكة بأمره . و « من » فى قوله :﴿ **من أساور** ﴾ للتبعيض، أى يحلون بعض أساور ، أو للبيان ، أو زائدة ، و « من » فى ﴿ **من ذهب** ﴾ للبيان ، والأساور : جمع أسورة والأسورة: جمع سوار. وفى السوار لغتان: كسر السين وضمها ،وفيه لغة ثالثة ،وهى «إسوار ». قرأ نافع وابن كثير وعاصم وشيبة ﴿ **ولؤلؤا** ﴾ بالنصب عطف على محل ﴿ **أساور** ﴾ أى ويحلون لؤلؤا ، أو بفعل مقدّر ينصبه،وهكذا قرأ بالنصب يعقوب والجحدرى وعيسى بن عمر ، وهذه القراءة هى الموافقة لرسم المصحف فإن هذا الحرف مكتوب فيه بالألف، وقرأ الباقون بالجرّ عطفًا على ﴿ **أساور** ﴾ أى يحلون من أساور ومن لؤلؤ ، واللؤلؤ : ما يستخرج من البحر من جوف الصدف . قال القشيرى : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب ﴿ **ولباسهم فيها حرير**﴾ أى جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذى كان محرّمًا عليهم فى الدنيا حلال لهم فى الآخرة ، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها ، ففيها ما تشتهيه الأنفس ، وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه وينال ما يريده .

﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ أى أرشدوا إليه ، قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : الحمد لله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من اللّه سبحانه من البشارات . وقد ورد فى القرآن ما يدلّ على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه:﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ [الزمر : ٧٤] ، ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ [فاطر : ٣٤] . ومعنى ﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ : أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط اللّه الذى هو دينه القويم ، وهو الإسلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**والصابئين** ﴾ قال : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون القبلة ، ويقرؤون الزبور ﴿ **والمجوس**﴾ عبدة الشمس والقمر والنيران،﴿ **والذين أشركوا** ﴾ عبدة الأوثان ﴿ **إن الله يفصل بينهم** ﴾ قال : الأديان ستة ؛ فخمسة للشيطان ، ودين للّه عزّ وجل . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال : فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذين هادوا: اليهود ، والصابئون : ليس لهم كتاب ، والمجوس : أصحاب الأصنام ، والمشركون : نصارى العرب .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ ، أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية : ﴿**هذان خصمان** ﴾ الآية نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر ، وهم حمزة بن عبد المطلب

وعبيدة بن الحارث وعليّ بن أبى طالب ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة [١] ، قال عليّ : وأنا أوّل من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى الله يوم القيامة . وأخرجه البخارى وغيره من حديث على[٢] . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه، وهكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **قطعت لهم ثياب من نار** ﴾ قال : من نحاس ، وليس من الآنية شيء إذا حمِى أشدّ حرّا منه ، وفى قوله : ﴿ **يصب من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ قال : النحاس يذاب على رؤوسهم ، وقوله : ﴿ **يصهر به ما فى بطونهم** ﴾ قال : تسيل أمعاؤهم ﴿ **والجلود** ﴾ قال : تتناثر جلودهم . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبونعيم فى الحلية ، وابن مردويه عن أبى هريرة ؛ أنه تلا هذه الآية : ﴿ **يصب من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان » [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يصهر به مافى بطونهم** ﴾ قال : يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم . وفى قوله : ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾ قال : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل والثبور . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : يسقون ماء إذا دخل فى بطونهم أذابها والجلود مع البطون . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن مقمعًا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان» [٤] .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضىء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها** ﴾ . وفى الصحيحين وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » [٥]. وفى الباب أحاديث [٦] .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٤٣) ومسلم فى التفسير (٣٠٣٣ / ٣٤) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٤٤) .

(٣) الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وابن جرير ١٧/ ١٠٠ وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٧، ووافقه الذهبىّ ، وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ١٨٢ .

(٤) أحمد ٣/ ٢٩ وأبو يعلى (١٣٨٨) وإسناده ضعيف ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٩١ : « فيه ضعفاء قد وثقوا » وصححه الحاكم ٤/ ٦٠٠ وسكت عنه الذهبى .

(٥) البخارى فى اللباس (٥٨٣٠) ومسلم فى اللباس (٢٠٦٩/ ١١) وأحمد ١/ ٢٠ .

(٦) أخرج الترمذى عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى وأحل لإناثهم ».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ قال : ألهموا. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هدوا إلى الطيب من القول في الخصومة إذ قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد في الآية قال : القرآن ﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ قال: الإسلام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : الإسلام . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله الذي قال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [فاطر : ١٠] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾.

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله** ﴾ عطف المضارع على الماضي ؛ لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصدّ ، ومثل هذا قوله : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ [محمد : ١] ، أو المراد بالصدّ هاهنا: الاستمرار لا مجرّد الاستقبال ، فصح بذلك عطفه على الماضي ، ويجوز أن تكون الواو في : ﴿ **ويصدون** ﴾ واو الحال ، أي كفروا والحال أنهم يصدون. وقيل : الواو زائدة والمضارع خبر إن ،والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله:﴿ **والباد** ﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا . وقال الزجاج : إن الخبر ﴿ **نذقه من عذاب أليم** ﴾ وردّ بأنه لو كان خبرًا لإن لم يجزم وأيضًا لو كان خبرًا لإن لبقي الشرط وهو ﴿ **ومن يرد** ﴾ بغير جواب ، فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا . والمراد بالصدّ : المنع وبسبيل الله : دينه ، أي يمنعون من أراد الدخول في دين الله و ﴿ **المسجد الحرام** ﴾ معطوف على ﴿ **سبيل الله** ﴾ قيل : المراد به : المسجد نفسه، كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني . وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية . وقيل : المراد به : مكة بدليل قوله : ﴿ **الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد** ﴾ أي جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويًا فيه العاكف وهو المقيم فيه الملازم له ، والباد أي الواصل من البادية ، والمراد به : الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم . وانتصاب ﴿ **سواء** ﴾ على أنه المفعول الثاني لجعلناه ، وهو بمعنى مستويًا ، و ﴿ **العاكف** ﴾ مرتفع به ، ووصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادّين عنه ، ويحتمل أن يكون انتصاب ﴿ **سواء** ﴾ على

الحال . وهذا على قراءة النصب ، وبها قرأ حفص عن عاصم ، وهى قراءة الأعمش ، وقرأ الجمهور برفع ﴿ **سواء** ﴾ على أنه مبتدأ وخبره ﴿ **العاكف** ﴾ أوعلى أنه خبر مقدم ، والمبتدأ ﴿**العاكف**﴾ أى العاكف فيه والبادى سواء ، وقرئ بنصب ﴿ **سواء** ﴾ وجر﴿ **العاكف** ﴾على أنه صفة للناس ، أى جعلناه للناس، العاكف والبادى سواء ، وأثبت الياء فى البادى ابن كثير وصلا ووقفا ، وحذفها أبو عمرو فى الوقف ،وحذفها نافع فى الوصل والوقف. قال القرطبى : وأجمع الناس على الاستواء فى المسجد الحرام نفسه .

واختلفوا فى مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوى فيها المقيم والطارئ . وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى . وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها . والحاصل أن الكلام فى هذا راجع إلى أصلين :الأصل الأول : ما فى هذه الآية : هل المراد بالمسجد الحرام: المسجد نفسه . أو جميع الحرم ، أو مكة على الخصوص ؟ والثانى : هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبى ﷺ فى يد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ؟ وقد أوضحنا هذا فى شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة .

﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ مفعول يرد ، محذوف لقصد التعميم ، والتقدير : ومن يرد فيه مرادًا، أىّ مراد بإلحاد ، أى بعدول عن القصد . والإلحاد فى اللغة: الميل ، إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم . وقد اختلف فى هذا الظلم ماذا هو ؟ فقيل : هو الشرك . وقيل : الشرك والقتل ، وقيل : صيد حيواناته وقطع أشجاره، وقيل : هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة ، وقيل : المراد : المعاصى فيه على العموم . وقيل : المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية فى ذلك المكان . وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحّاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا : لو هم الرجل فى الحرم بقتل رجل بعدن لعذّبه اللّه . والحاصل : أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذاً بمجرد الإرادة للظلم ، فهى مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ، إلا أن يقال : إن الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس ، وبالجملة فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الإشكال يطول جدّا ، ومثل هذه الآية حديث : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قيل : يا رسول اللّه ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال: « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» (١) فدخل النار هنا بسبب مجرّد حرصه على قتل صاحبه . وقد أفردنا هذا البحث برسالة مستقلة ، والباء فى قوله : ﴿ **بإلحاد** ﴾ إن كان مفعول ﴿ **يرد** ﴾ محذوفًا كما ذكرنا فليست بزائدة . وقيل : إنها زائدة هنا كقول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ... نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

(١) البخارى فى الإيمان (٣١) .

أى نرجو الفرج ، ومثله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى   بما لاقت لبون بنى زياد

أى ما لاقت . ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش ؛ والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم . وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى : بأن يلحد ، والباء مع أن تدخل وتحذف ، ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس بإلحاد. وقيل : إن ﴿**يرد**﴾ مضمن معنى : يهمّ ، والمعنى : ومن يهمّ فيه بإلحاد . وأما الباء فى قوله : ﴿ **بظلم** ﴾ فهى للسببية والمعنى : ومن يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم ، ويجوز أن يكون ﴿ **بظلم** ﴾ بدلا من ﴿ **بإلحاد** ﴾ بإعادة الجارّ، ويجوز أن يكون حالين مترادفين .

﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت** ﴾ أى واذكر وقت ذلك ، يقال: بوأته منزلا وبوأت له، كما يقال: مكنتك ومكنت لك . قال الزجاج: معناه: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم ، ومعنى ﴿ **بوأنا** ﴾ : بينا له مكان البيت ، ومثله قول الشاعر :

كم من أخ لى ماجد   بوأته بيدى لحدًا

وقال الفراء : إن اللام زائدة ومكان ظرف ، أى أنزلناه فيه ﴿ **ألا تشرك بى شيئا** ﴾ قيل : إن هذه هى مفسدة لبوأنا ، لتضمنه معنى : تعبدنا ؛ لأن التبوئة هى للعبادة . وقال أبو حاتم : هى مصدرية ، أى لأن لا تشرك بى. وقيل: هى المخففة من الثقيلة. وقيل هى زائدة . وقيل : معنى الآية : وأوحينا إليه أن لا تعبد غيرى . قال المبرد : كأنه قيل له : وحدنى فى هذا البيت ، لأنى معنى لا تشرك بى : وحدنى ﴿ **وطهر بيتى** ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان . وفى الآية طعن على ما أشرك من قطان البيت ، أى هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم ، فلم تفوا بل أشركتم . وقالت فرقة: الخطاب بقوله : ﴿ **ألا تشرك** ﴾ لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جدًا . ومعنى ﴿ **وطهر بيتى** ﴾: تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات ، وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهما والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت وقد مرّ فى سورة براءة ما فيه كفاية فى هذا المعنى . والمراد بالقائمين هنا هم : المصلون وذكر ﴿**الركع السجود**﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا فى البيت فالطواف عنده والصلاة إليه .

﴿ **وأذن فى الناس بالحج** ﴾ قرأ الحسن وابن محيصن : « وآذن » بتخفيف الذال والمد . وقرأ الباقون بتشديد الذال . والأذان :الإعلام ، وقد تقدّم فى براءة . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذّن فى الناس بالحج ، فقال : يارب ، من يبلغ صوتى ؟ فقال اللّه سبحانه : أذن وعلىّ البلاغ ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال ، فأدخل أصبعيه فى أذنيه ، وأقبل بوجهه يمينًا وشمالا وشرقًا وغربًا وقال : يأيها الناس ، كتب عليكم الحجّ إلى البيت فأجيبوا ربكم ، فأجابه من كان فى

أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك . وقيل : إن الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، والمعنى : أعلمهم يامحمد بوجوب الحجّ عليهم ،وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله : ﴿ **والركع السجود** ﴾ . وقيل : إن خطابه انقضى عند قوله ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت** ﴾ وأن قوله ﴿ **أن لا تشرك بى** ﴾ وما بعده خطاب لنبينا محمد ﷺ ، وقرأ الجمهور ﴿ **بالحج** ﴾ بفتح الحاء ، وقرأ ابن أبى إسحاق فى كلّ القرآن بكسرها ﴿ **يأتوك رجالا** ﴾ هذا جواب الأمر ، وعده اللّه إجابة الناس له إلى حجّ البيت ما بين راجل وراكب، فمعنى ﴿ **رجالا** ﴾ : مشاة ، جمع راجل . وقيل :جمع رجل. وقرأ ابن أبى إسحاق « رجالا » بضم الراء وتخفيف الجيم . وقرأ مجاهد : « رجالى » على وزن فعالى مثل كسالى . وقدّم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبهم فى المشى ، وقال : ﴿ **يأتوك** ﴾ وإن كانوا يأتون البيت ، لأن من أتى الكعبة حاجًا فقد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه ﴿ **وعلى كل ضامر** ﴾ عطف على ﴿ **رجالا** ﴾ أى وركبانا على كل بعير . والضامر : البعير المهزول الذى أتعبه السفر ، يقال : ضمر يضمر ضمورًا، ووصف الضامر بقوله : ﴿ **يأتين** ﴾ باعتبار المعنى ؛ لأن ضامر فى معنى ضوامر ، وقرأ أصحاب ابن مسعود وابن أبى عبلة والضحّاك « يأتون » على أنه صفة لـ ﴿ **رجالا** ﴾: والفجّ : الطريق الواسع ، الجمع فجاج ، والعميق : البعيد .

واللام فى ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **يأتوك** ﴾.وقيل :بقوله: ﴿ **وأذن** ﴾ والشهود : الحضور ، والمنافع هى تعمّ منافع الدنيا والآخرة . وقيل :المراد بها : المناسك . وقيل : المغفرة . وقيل : التجارة كما فى قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ [البقرة : ١٩٨] . ﴿ **ويذكروا اسم اللّه فى أيام معلومات** ﴾ أى يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم اللّه . وقيل : إن هذا الذكر كناية عن الذبح ؛ لأنه لا ينفك عنه . والأيام المعلومات هى : أيام النحر ، كما يفيد ذلك قوله: ﴿ **على ما رزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾. وقيل: عشر ذى الحجة . وقد تقدّم الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات فى البقرة فلا نعيده ، والكلام فى وقت ذبح الأضحية معروف فى كتب الفقه وشروح الحديث . ومعنى ﴿ **على ما رزقهم** ﴾ : على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وهى الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هى الأنعام ،فالإضافة فى هذا كالإضافة فى قولهم: مسجد الجامع وصلاة الأولى ﴿ **فكلوا منها**﴾ الأمر هنا للندب عند الجمهور ، وذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ **وأطعموا البائس الفقير** ﴾ البائس:ذو البؤس وهو شدة الفقر ، فذكر الفقير بعده؛ لمزيد الإيضاح . والأمر هنا للوجوب . وقيل : للندب .

﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ المراد بالقضاء هنا هو : التأدية ، أى ليؤدوا إزالة وسخهم ؛ لأن التفث هو : الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون ، كما حكاه النيسابورى ، على هذا . قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث . وقال أبو عبيدة : لم يأت فى الشرع ما يحتجّ به فى معنى التفث . وقال المبرّد : أصل التفث فى اللغة : كل قاذورة

تلحق الإنسان . وقيل : قضاؤه ادّهانه ؛ لأن الحاجّ مغبرّ شعث لم يدهن ولم يستحد ، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه ، فهذا هو قضاء التفث . قال الزجاج : كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال ﴿ **وليوفوا نذورهم** ﴾ أى ما ينذرون به من البرّ فى حجهم، والأمر للوجوب . وقيل : المراد بالنذور هنا أعمال الحج ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ هذا الطواف هو طواف الإفاضة . قال ابن جرير : لا خلاف فى ذلك بين المتأوّلين . والعتيق : القديم ، كما يفيده قوله سبحانه: ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] . وقد سمى العتيق لأن اللّه أعتقه من أن يتسلط عليه جبار. وقيل : لأن اللّه يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : لأنه أعتق من غرق الطوفان . وقيل : العتيق : الكريم .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ قال : الحرم كله ، وهو المسجد الحرام ﴿ **سواء العاكف فيه والباد** ﴾ قال : خلق اللّه فيه سواء . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم فى منازل مكة سواء ، فينبغى لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم . وقال : البادى وأهل مكة سواء ، يعنى فى المنزل والحرم . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد اللّه بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل فى بطونه نارًا . وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب أن رجلا قال له عند المروة : يا أمير المؤمنين ، أقطعنى مكانًا لى ولعقبى ، فأعرض عنه عمر وقال : هو حرم اللّه ، سواء العاكف فيه والبادِ . وأخرج ابن أبى شيبة عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبوابا حتى ينزل الحاجّ فى عرصات الدور . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ فى قول اللّه : ﴿ **سواء العاكف فيه والباد** ﴾ قال : «سواء المقيم والذى يدخل»[(١)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال : توفى رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ،من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن [(٢)] . رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبى حفرة عن عثمان بن أبى سليمان عن علقمة فذكره . وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعًا : «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارًا » [(٣)] .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن راهويه وأحمد وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى

---

(١) الطبرانى (١٢٤٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٣ : « فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف » .

(٢) ابن ماجة فى المناسك (٣١٠٧) وفى الزوائد : « إسناده صحيح على شرط مسلم . وليس لعلقمة بن نضلة عن ابن ماجة سوى هذا الحديث وليس له شىء فى بقية الكتب ، وقال الدميرى : علقمة بن نضلة لا يصح له صحبة وليس له فى الكتب شىء سواه » .

(٣) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٣٠٠ .

وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود رفعه فى قوله : ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : « لو أن رجلا هم فيه بإلحاد وهو بعدن أبين لأذاقه اللّه عذابًا أليمًا » (١) . قال ابن كثير : هذا الإسناد صحيح على شرط البخارى ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه . وأخرج سعيد بن منصور والطبرانى عن ابن مسعود فى الآية قال : من همّ بخطيئة فلم يعملها فى سوى البيت ، لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت ؛ لم يمته اللّه من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى عبد اللّه بن أنيس: أن رسول اللّه ﷺ بعثه مع رجلين ، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا فى الأنساب ، فغضب عبد اللّه بن أنيس ، فقتل الأنصارى ، ثم ارتدّ عن الإسلام وهرب إلى مكة، فنزلت فيه : ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ يعنى : من لجأ إلى الحرم بإلحاد ، يعنى بميل عن الإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : بشرك . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول اللّه ﷺ قال : « احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه » . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى تاريخه ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : بيع الطعام بمكة إلحاد . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «احتكار الطعام بمكة إلحاد» (٢) .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عن علىّ قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر ، فلما قدم مكة رأى على رابية فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس ، فكلمه فقال : يا إبراهيم ، ابْنِ على ظلى أو على قدرى ولا تزد ولا تنقص ، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر ، وذلك حين يقول اللّه: ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت**﴾ الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء ﴿**والقائمين** ﴾ قال : المصلين عنده . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة معناه . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : ربّ ، قد فرغت ، فقال : ﴿ **أذن فى الناس بالحج** ﴾ قال : ربّ ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذن وعلىّ البلاغ ، قال :

---

(١) أحمد ١/ ٤٢٨ وأبو يعلى (٥٣٨٤) وابن جرير ١٧/ ١٠٤ والطبرانى (٩٠٧٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٧، ٣٨٨ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٣ : « رواه الطبرانى وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك » وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٤/ ٦٣٠ ثم ذكره ثم قال : « ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به ؛ قلت : هذا الإسناد صحيح على شرط البخارى » .

(٢) البيهقى فى الشعب (١١٢٢١) .ط . الكتب العلمية .

ربّ، كيف أقول ؟ قال : قل : يأيها الناس ، كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق . فسمعه من فى السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيؤون من أقصى الأرض يلبون . وفى الباب آثار عن جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ قال: أسواقًا كانت لهم ، ما ذكر الله منافع إلا الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة ، فأما منافع الآخرة فرضوان الله ، وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات . وأخرج أبو بكر المروزى فى كتاب العيدين عنه أيضًا قال : الأيام المعلومات : أيام العشر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا قال : أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضًا فى الأيام المعلومات قال : قبل يوم التروية بيوم ، ويوم التروية ويوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا قال : البائس : الزمن .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : التفث : المناسك كلها . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونتف الإبط وحلق العانة والوقوف بعرفة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار وقصّ الأظفار وقصّ الشارب والذبح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ هو طواف الزيارة يوم النحر ، وورد فى وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا . وورد فى فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)** ﴾.

محل ﴿ **ذلك** ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره

محذوف ، أو فى محل نصب بفعل محذوف ، أى افعلوا ذلك . والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحجّ ، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفى كلام واحد . والحرمات جمع حرمة . قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وهى فى هذه الآية ما نهى عنها، ومنع من الوقوع فيها . والظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحجّ وغيره كما يفيده اللفظ وإن كان السبب خاصا ، وتعظيمها ترك ملابستها ﴿ **فهو خير له** ﴾ أى فالتعظيم خير له ﴿ **عند ربه** ﴾ يعنى فى الآخرة من التهاون بشىء منها . وقيل إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناه الحقيقى ، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به ، فهى عدة بخير ﴿ **وأحلت لكم الأنعام** ﴾ وهى الإبل والبقر والغنم ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ﴾ أى فى الكتاب العزيز من المحرّمات ، وهى الميتة وما ذكر معها فى سورة المائدة . وقيل : فى قوله : ﴿ إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : ١] .

﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾ الرجس : القذر ، والوثن : التمثال ، وأصله من وثن الشىء ، أى أقام فى مقامه ، وسمى الصليب وثنًا ؛ لأنه ينصب ويركز فى مقامه ، فلا يبرح عنه . والمراد : اجتناب عبادة الأوثان ، وسماها رجسًا ؛ لأنها سبب الرجس وهو العذاب . وقيل : جعلها سبحانه رجسًا حكمًا ، والرجس : النجس وليست النجاسة وصفًا ذاتيًا لها ولكنها وصف شرعى ، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء . قال الزجاج : « من » هنا لتخليص جنس من أجناس ، أى فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن ﴿**واجتنبوا قول الزور** ﴾ الذى هو الباطل ، وسمى زورًا ؛ لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تزاور عن كهفهم ﴾ [الكهف : ١٧] . وقولهم : مدينة زوراء ، أى مائلة، والمراد هنا قول الزور على العموم ، وأعظمه الشرك بالله بأى لفظ كان . وقال الزجاج المراد بقول الزور ها هنا : تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ [النحل: ١١٦] . وقيل : المراد به : شهادة الزور.

وانتصاب ﴿ **حنفاء** ﴾ على الحال ، أى مستقيمين على الحق ، أو مائلين إلى الحق . ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل . وقيل : معناه : حجاجًا ، ولا وجه لهذا . ﴿ **غير مشركين به** ﴾ هو حال كالأول ، أى غير مشركين به شيئًا من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم ، وجملة : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء** ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب . ومعنى خرّ من السماء : سقط إلى الأرض ، أى انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ **فتخطفه الطير** ﴾ يقال : خطفه : إذا سلبه ، ومنه قوله : ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . أى تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها . قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء ، وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما ﴿ **أو تهوى به الريح** ﴾ أى تقذفه وترمى به ﴿ **فى مكان سحيق** ﴾ أى بعيد ، يقال : سحق يسحق سحقًا فهو سحيق : إذا بعد . قال الزجاج : أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحقّ ، كبعد ما خرّ من

السماء ، فتذهب به الطير أو هوت به الريح فى مكان بعيد.

﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله** ﴾ الكلام فى هذه الإشارة قد تقدّم قريبًا ، والشعائر :جمع الشعيرة ، وهى كل شىء فيه للّه تعالى شعار ، ومنه شعار القوم فى الحرب ، وهو علامتهم التى يتعارفون بها ، ومنه إشعار البدن ، وهو الطعن فى جانبها الأيمن ، فشعائر اللّه : أعلام دينه ، وتدخل الهدايا فى الحجّ دخولا أوليا ، والضمير فى قوله : ﴿ **فإنها من تقوى القلوب** ﴾ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف ، أى فإن تعظيمها من تقوى القلوب ، أى من أفعال القلوب التى هى من التقوى ، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى . ﴿ **لكم فيها منافع** ﴾ أى فى الشعائر على العموم ، أو على الخصوص ، وهى البدن كما يدل عليه السياق . ومن منافعها : الركوب والدّر والنسل والصوف وغير ذلك ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ وهو وقت نحرها ﴿ **ثم محلها إلى البيت العتيق** ﴾ أى حيث يحلّ نحرها ،والمعنى: أنها تنتهى إلى البيت وما يليه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية. وقيل : إن محلها ها هنا مأخوذ من إحلال الحرام ، والمعنى : أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفه ورمى الجمار والسعى تنتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت ، فالبيت على هذا مراد بنفسه .

﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا** ﴾ المنسك ها هنا المصدر من نسك ينسك : إذا ذبح القربان ، والذبيحة : نسيكة ، وجمعها نسك . وقال الأزهرى : إن المراد بالمنسك فى الآية : موضع النحر ، ويقال : منسك بكسر السين وفتحها لغتان ، قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصما وقرأ الباقون بالفتح . وقال الفرّاء : المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد فى خير أو شرّ ، وقال ابن عرفة: ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا** ﴾ أى مذهبًا من طاعة اللّه. وروى عن الفراء أن المنسك : العيد . وقيل : الحجّ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **ليذكروا اسم الله** ﴾ إلى آخره ، والأمة : الجماعة المجتمعة على مذهب واحد ، والمعنى:وجعلنا لكل أهل دين من الأديان ذبحًا يذبحونه، ودما يريقونه ، أو متعبدًا أو طاعة أوعيدا أو حجا يحجونه ، ليذكروا اسم اللّه وحده ، ويجعلوا نسكهم خاصًا به ﴿ **على مارزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾ أى على ذبح ما رزقهم منها . وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها . وفى الآية دليل على أن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم اللّه عليه . ثم أخبرهم سبحانه بتفرّده بالإلهية وأنه لا شريك له ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالإسلام له ، والانقياد لطاعته وعبادته ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر ، والفاء هنا كالفاء التى قبلها ، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر ﴿ **المخبتين** ﴾ من عباده ، أى المتواضعين الخاشعين المخلصين ، وهو مأخوذ من الخبيت، وهو المنخفض من الأرض ، والمعنى : بشرهم يا محمد بما أعدّ اللّه لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه . وقيل : إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم ، وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله: ﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته ، وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوّة

إيمانهم ، ووصفهم بالصبر ﴿ **على ما أصابهم** ﴾ من البلايا والمحن فى طاعة اللّه ثم وصفهم بإقامة ﴿ **الصلاة** ﴾ أى الإتيان بها فى أوقاتها على وجه الكمال . قرأ الجمهور . والمقيمى الصلاة بالجرّ على ما هو الظاهر ، وقرأ أبو عَمْرو بالنصب على توهم بقاء النون ، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر :

الحافظ عورة العشيرة

البيت . بنصب عورة . وقيل : لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو ، وقرأ ابن محيصن : «والمقيمين » بإثبات النون على الأصل ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود ، ثم وصفهم سبحانه بقوله : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى يتصدقون به وينفقونه فى وجوه البرّ ، ويضعونه فى مواضع الخير ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حرمات الله** ﴾ قال : الحرمة مكة والحجّ والعمرة وما نهى اللّه عنه من معاصيه كلها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾ يقول : اجتنبوا طاعة الشيطان فى عبادة الأوثان ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾ يعنى : الافتراء على اللّه والتكذيب به. وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أيمن بن خريم قال : قام رسول اللّه ﷺ خطيبًا فقال: « يأيها الناس ، عدلت شهادة الزور شركًا باللّه » ثلاثًا ، ثم قرأ : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ (١) ، قال أحمد : غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد . وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعًا من النبى ﷺ. وقد أخرجه أحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ،والبيهقى فى الشعب من حديث خريم (٢). وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بكرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثًا ، قلنا : بلى يارسول اللّه ، قال : «الإشراك باللّه ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئًا ، فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » ، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت (٣) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **حنفاء لله غير مشركين به** ﴾

---

(١) أحمد ٤/ ١٧٨ ، ٢٣٣ والترمذى فى الشهادات (٢٢٩٩) وقال « هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعًا من النبى ﷺ » وابن جرير ١٧/ ٢١٢ وفى المطبوعة : « أيمن بن حريم » بالمهملة والصحيح خريم بالمعجمة كما فى مراجع التخريج والمخطوطة .

(٢) أحمد ٤/ ١٧٨ ، ٢٣٣ وأبو داود فى الأقضية (٣٥٩٩) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٧٢) وابن جرير ١٧/ ١١٢ والطبرانى (٤١٦٢) والبيهقى فى الشعب (٤٥١٩) .

(٣) البخارى فى الشهادات (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٨٧/ ١٤٣) وأحمد ٥/ ٣٨.

قال : حجاجا لله غير مشركين به ، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الإسلام ، قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصدّيق نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ومن يعظم شعائر الله** ﴾ قال : البدن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**ومن يعظم شعائر الله** ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، وفى قوله : ﴿ **لكم فيها منافع إلى أجل مسمى** ﴾ قال: إلى أن تسمى بدنًا. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه ، وفيه قال : ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، فى ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هديًا ، فإذا سميت هديًا ذهبت المنافع ﴿ **ثم محلها** ﴾ يقول : حين تسمى ﴿ **إلى البيت العتيق** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا** ﴾ قال : عيدًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : إهراق الدماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ذبحًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية قال : مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكًا غيرها . وقد وردت أحاديث فى الأضحية ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وبشر المخبتين** ﴾ قال : المطمئنين . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى ذمّ الغضب ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن أوس قال : المخبتون فى الآية الذين لا يظلمون الناس ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾.

قرأ ابن أبى إسحاق : « والبدن » بضم الباء والدال ، وقرأ الباقون بإسكان الدال وهما لغتان ، وهذا الاسم خاص بالإبل. وسميت بدنة ؛ لأنها تبدن ، والبدانة : السمن . وقال أبوحنيفة ومالك : إنه يطلق على غير الإبل ، والأوّل أولى لما سيأتى من الأوصاف التى هى ظاهرة فى الإبل ، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل . وقال ابن كثير فى تفسيره : واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين : أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعًا كما صح فى الحديث ﴿**جعلناها لكم** ﴾ وهى ما تقدّم بيانه قريبًا ﴿ **لكم فيها خير** ﴾

أى منافع دينية ودنيوية كما تقدّم ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها** ﴾ أى على نحرها ومعنى ﴿**صواف**﴾ أنها قائمة قد صفت قوائمها ،لأنها تنحر قائمة معقولة. وأصل هذا الوصف فى الخيل ، يقال : صفن الفرس فهو صافن : إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة . وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعرى : « صوافى » أى خوالص للّه لا تشركون به فى التسمية على نحرها أحدًا ، وواحد صوافّ صافة، وهى قراءة الجمهور . وواحد صوافى صافية ، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر ومحمد بن على : «صوافن » بالنون جمع صافنة . والصافنة هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : ٣١] ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيـل عاكفـة عليـه ... مقلدة أعنتـها صـفـونا

وقال الآخر :

ألف الصفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسير

﴿ **فإذا وجبت جنوبها** ﴾ الوجوب : السقوط ، أى فإذا سقطت بعد نحرها ، وذلك عند خروج روحها ﴿ **فكلوا منها** ﴾ ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب ﴿ **وأطعموا القانع والمعتر** ﴾ هذا الأمر قيل : هو للندب كالأوّل ، وبه قال مجاهد والنخعى وابن جرير وابن سريج . وقال الشافعى وجماعة : هو للوجوب .

واختلف فى القانع من هو ؟ فقيل : هو السائل ، يقال : قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها إذا سأل ، ومنه قول الشماخ :

لمـال المرء يصلـحه فيغـنى ... مفاقره ؛ أعفّ من القنوع

أى السؤال ، وقيل : هو المتعفف عن السؤال المستغنى ببلغة ، ذكر معناه الخليل . قال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة . وبالأوّل قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ، وروى عن ابن عباس . وبالثانى قال عكرمة وقتادة . وأما المعترّ ، فقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد وإبراهيم والكلبى والحسن: أنه الذى يتعرّض من غير سؤال . وقيل : هو الذى يعتريك ويسألك . وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع : الفقير ، والمعترّ : الزائر . وروى عن ابن عباس : أن كليهما الذى لا يسأل ، ولكن القانع الذى يرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعترّ الذى يتعرّض لك ولا يسألك . وقرأ الحسن : « والمعترى » ومعناه كمعنى المعترّ ومنه قول زهير :

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعراه : إذا تعرّض لما عنده أو طلبه ، ذكر النحاس ﴿ **كذلك سخرناها لكم** ﴾ أى مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم ، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع

نحرها فتنحرونها ، وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ هذه النعمة التى أنعم الله بها عليكم .

﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها** ﴾ أى لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التى تتصدّقون بها ولا دماؤها التى تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء ﴿ **ولكن يناله** ﴾ أى يبلغ إليه تقوى قلوبكم ، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه ، فإن ذلك هو الذى يقبله الله ويجازى عليه. وقيل : المراد : أصحاب اللحوم والدماء ، أى لن يرضى المضحون والمتقرّبون إلى ربهم باللحوم والدماء ، ولكن بالتقوى . قال الزجاج : أعلم اللّه أن الذى يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به ، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول ، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال : قد ناله ووصل إليه ، فخاطب الله الخلق كعادته فى مخاطبتهم ﴿ **كذلك سخرها لكم** ﴾ كرّر هذا للتذكير ، ومعنى ﴿ **لتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ هو قول الناحر : الله أكبر عند النحر ، فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها . وذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير . وقيل : المراد بالتكبير : وصفه سبحانه بما يدّل على الكبرياء ، ومعنى ﴿ **على ما هداكم** ﴾ : على ما أرشدكم إليه من عملكم بكيفية التقرّب بها ، « وما » مصدرية ، أو موصولة ﴿ **وبشر المحسنين** ﴾ قيل : المراد بهم : المخلصون . وقيل : الموحدون . والظاهر أن المراد بهم : كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : البدن : ذات الجوف . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : ليس البدن إلا من الإبل . وأخرجوا عن الحكم نحوه . وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرباحى عن أبيه قال : أوصى إلىّ رجل ، وأوصى ببدنة ، فأتيت ابن عباس فقلت له : إن رجلاً أوصى إلى وأوصى ببدنة، فهل تجزئ عنى بقرة ؟ قال : نعم ، ثم قال : ممن صاحبكم ؟ فقلت : من بنى رباح ، فقال : ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الإبل ؟ وهم صاحبكم ، إنما البقر لأسد وعبد القيس . وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى الأضاحى ، وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن أبى ظبيان قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صواف** ﴾ قال : إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ، ثم قل : بسم الله والله أكبر . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **صواف** ﴾ قال : قيامًا معقولة ، وفى الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قيامًا مقيدة سنة محمد ﷺ . وأخرج أبو

عبيدة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : فى قراءة ابن مسعود: «صوافن » يعنى : قيامًا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فإذا وجبت** ﴾ قال : سقطت على جنبها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : نحرت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : ﴿**القانع** ﴾ : المتعفف ﴿ **والمعتر** ﴾ : السائل . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : القانع الذى يقنع بما آتيته . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : القانع : الذى يقنع بما أوتى، والمعترّ : الذى يعترض . وأخرج عنه أيضًا قال : القانع الذى يجلس فى بيته . وأخرج عبد بن حميد ، والبيهقى فى سننه عنه ، أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : أما القانع : فالقانع بما أرسلت إليه فى بيته ، والمعترّ : الذى يعتريك . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا قال : القانع : الذى يسأل ، والمعترّ : الذى يتعرض ، ولا يسأل . وقد روى عن التابعين فى تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوى ، لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم فى تفسير ذلك . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله: ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج نحوه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

قرأ أبو عمرو وابن كثير : « يدفع » وقرأ الباقون : ﴿ **يدافع** ﴾ وصيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلى ، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى . وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلى كثيرًا مثل : عاقبت اللصّ ونحو ذلك ، وقد قدمنا تحقيقه . وقيل : إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة . وقيل للدلالة على تكرر الواقع . والمعنى : يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين . وقيل : يعلى حجتهم . وقيل : يوفقهم . والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من ربّ العالمين ، وأنه المتولى للمدافعة عنهم ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾ مقررة لمضمون الجملة الأولى ، فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بأنهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له . قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرّب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور ، وإيراد صيغتى المبالغة للدلالة على

على أنهم كذلك فى الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم ، أو كفر دون كفرهم .

﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ قرئ : « أذن » مبنيا للفاعل ومبنيًا للمفعول وكذلك «يقاتلون » ، قرئ مبنيًا للفاعل ومبنيا للمفعول ، وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال ، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم . قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألسنتهم وأيديهم ، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم : « اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر » فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة(١) ، وهى أول آية نزلت فى القتال . وهذه الآية مقرّرة أيضًا لمضمون قوله : ﴿ **إن الله يدافع** ﴾ فإن إباحة القتال لهم هى من جملة دفع الله عنهم ، والباء فى : ﴿ **بأنهم ظلموا** ﴾ للسببية ، أى بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد . ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين ، فقال : ﴿ **وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ وفيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضًا .

ثم وصف ولاء المؤمنين بقوله : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق** ﴾ ويجوز أن يكون بدلا من الذين يقاتلون ، أو فى محل نصب على المدح ، أو محل رفع بإضمار مبتدأ ، والمراد بالديار : مكة ﴿ **إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ قال سيبويه: هو استثناء منقطع ، أى لكن لقولهم : ربنا الله أى أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم : ربنا الله . وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل ، والتقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا : ربنا الله ، فيكون مثل قوله سبحانه: ﴿ هل تنقمون (٢) منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة : ٥٩]. وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ **ولولا دفع الله الناس** ﴾ قرأ نافع : « ولولا دفاع » وقرأ الباقون : ﴿ **ولولا دفع** ﴾ والمعنى : لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك ، وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، ومعنى ﴿ **لهدمت** ﴾ : لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل . فالصوامع : هى صوامع الرهبان .وقيل : صوامع الصابئين . والبيع : جمع بيعة ، وهى كنيسة النصارى ، والصلوات : هى كنائس اليهود ، واسمها بالعبرانية صلوثا بالمثلثة فعربت ، والمساجد هى مساجد المسلمين . وقيل : المعنى : لولا هذا الدفع لهدّمت فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ،وفى زمن محمد المساجد . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وقيل : المعنى : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة. وقيل : لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار. وقيل غير ذلك . والصوامع : جمع صومعة ،

---

(١) القرطبى بمعناه ٧/ ٤٤٦٠ .

(٢) فى المخطوطة : « وما تنقمون » ، وقد سقط من المطبوعة لفظ الجلالة .

وهى بناء مرتفع،يقال : صمع الثريدة : إذا رفع رأسها ، ورجل أصمع القلب ، أى حاد الفطنة ، والأصمع من الرجال : الحديد القول . وقيل : الصغير الأذن. ثم استعمل فى المواضع التى يؤذن عليها فى الإسلام ، وقد ذكر ابن عطية فى ﴿ **صلوات** ﴾ تسع قراءات ، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء وأسبق وجودًا. والظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقى كما ذكره الزجاج وغيره . وقيل : المراد به المعنى المجازى ، وهو تعطلها من العبادة ، وقرئ : ﴿ **لهدمت** ﴾ بالتشديد ، وانتصاب ﴿**كثيرا**﴾ فى قوله : ﴿ **يذكر فيها اسم الله كثيرا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى ذكرًا كثيرًا ، أو وقتا كثيرًا ، والجملة صفة للمساجد . وقيل : لجميع المذكورات .

﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾ اللام هى جواب لقسم محذوف ، أى والله لينصر الله من ينصره ، والمراد بمن ينصر الله : من ينصر دينه وأولياءه . والقوىّ : القادر على الشىء ، والعزيز : الجليل الشريف قاله الزجاج . وقيل : الممتنع الذى لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ، والموصول فى قوله : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض** ﴾ فى موضع نصب صفة لمن فى قوله : ﴿**من ينصره** ﴾ قاله الزجاج . وقال غيره : هو فى موضع جرّ صفة لقوله : ﴿ **للذين يقاتلون**﴾. وقيل : المراد بهم : المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان . وقيل : أهل الصلوات الخمس . وقيل: ولاة العدل . وقيل غير ذلك ، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على من مكنه الله فى الأرض وأقدره على القيام بذلك ، وقد تقدّم تفسير الآية ، ومعنى ﴿ **ولله عاقبة الأمور** ﴾ : أن مرجعها إلى حكمه وتدبيره دون غيره .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن ماجة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما أخرج النبىّ ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا للّه وإنا إليه راجعون ، ليهلكن القوم ، فنزلت : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ الآية (١) . قال ابن عباس : وهى أوّل آية نزلت فى القتال . قال الترمذى : حسن ، وقد رواه غير واحد عن الثورى ، وليس فيه ابن عباس . انتهى . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم** ﴾ أى من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعنى محمدًا ﷺ وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية : ﴿**الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق** ﴾ والآية بعدها ،أخرجنا من ديارنا بغير حق ، ثم مكنا فى الأرض فأقمنا (٢) الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهى لى

(١) أحمد ٢١٦/١ والترمذى فى التفسير (١٣٧١) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٣٦٥) وإسناده صحيح ، وابن جرير ١٢٣/٧ وابن حبان (٤٦٩٠) والطبرانى (١٢٣٣٦) وصححه الحاكم ٦٦/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥٧٩/٢ .

(٢) فى المخطوطة : « ثم مكناهم فى أرض أقمنا الصلاة » ، والصحيح ما أثبتناه حتى يستقيم المعنى .

ولأصحابى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عليّ بن أبى طالب قال : إنما أنزلت هذه الآية فى أصحاب محمد : ﴿ **ولولا دفع الله الناس** ﴾ الآية . قال : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدّمت صوامع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لهدمت صوامع** ﴾ الآية قال: الصوامع: التى تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود ، وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين. وأخرجا عنه قال: البيع: بيع النصارى ، وصلوات : كنائس اليهود . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض** ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ **أقاموا الصلاة** ﴾ قال : المكتوبة ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ قال: المفروضة ﴿ **وأمروا بالمعروف** ﴾ قال : بلا إله إلا الله ﴿ **ونهوا عن المنكر** ﴾ قال: عن الشرك بالله ﴿ **ولله عاقبة الأمور** ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

قوله : ﴿ **وإن يكذبوك** ﴾ إلخ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله . وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء فى ذلك ، وقد تقدم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم . وإنما غير النظم فى قوله : ﴿ **وكذب موسى** ﴾ فجاء بالفعل مبنيًا للمفعول ؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما كذبه غيرهم من القبط ﴿ **فأمليت للكافرين** ﴾ أى أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب ﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ أى أخذت كلّ فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدّة الإمهال ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ هذا

الاستفهام للتقرير ، أى فانظر كيف كان إنكارى عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير : اسم من المنكر . قال الزجاج : أى ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار . قال الجوهرى : النكير والإنكار : تغيير المنكر .

ثم ذكر سبحانه كيف عذّب أهل القرى المكذبة فقال : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها** ﴾ أى أهلكنا أهلها ، وقد تقدّم الكلام على هذا التركيب فى آل عمران ، وقرئ : « أهلكتها » ، وجملة : ﴿ **وهى ظالمة** ﴾ حالية ، وجملة : ﴿ **فهى خاوية** ﴾ عطف على ﴿ **أهلكناها** ﴾ ، لا على ﴿ **ظالمة** ﴾ لأنها حالية ، والعذاب ليس فى حال الظلم ، والمراد بنسبة الظلم إليها نسبته إلى أهلها . والخواء : بمعنى السقوط فهى ساقطة ﴿ **على عروشها** ﴾ أى على سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدّمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى البقرة ﴿ **وبئر معطلة** ﴾ معطوف على قرية ، والمعنى: وكم من أهل قرية ، ومن أهل بئر معطلة ، هكذا قال الزجاج . وقال الفراء : إنه معطوف على عروشها . والمراد بالمعطلة : المتروكة . وقيل : الخالية عن أهلها لهلاكهم . وقيل الغائرة . وقيل : معطلة من الدلاء والأرشية . والقصر المشيد هو: المرفوع البنيان ، كذا قال قتادة والضحّاك ، يدلّ عليه قول عدى ابن زيد :

شاده مرمرًا وجلله كلسا فـللطير فى ذراه وكـور

شاده : أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : المراد بالمشيد : المجصص ، مأخوذ من الشيد ، وهو الجص ، ومنه قول الراجز :

لا تحسبني وإن كنت امرأ غمرًا كحية الماء بين الطين والشيد

وقيل : المشيد : الحصين ، قاله الكلبىّ . قال الجوهرى : المشيد : المعمول بالشيد ، والشيد ، بالكسر : كلّ شيء طليت به الحائط من جصّ أو بلاط ، وبالفتح المصدر ، تقول : شاده يشيده جصصه ، والمشيد بالتشديد : المطوّل ، قال الكسائى : للواحد من قوله تعالى : ﴿فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] والمعنى المعنىّ كم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة ومعنى التعطيل فى القصر هو : أنه معطل من أهله ، أو من آلاته ، أو نحو ذلك . قال القرطبى فى تفسيره : ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال، والبئر فى سفحه لا تقرّ الريح شيئًا سقط فيها إلا أخرجته ، وأصحاب القصر ملوك الحضر ، وأصحاب البئر ملوك البدو . حكى الثعلبى وغيره : أن البئر كان بعدن من اليمن فى بلد يقال لها : حضوراء ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح ، فسمى المكان حضر موت ؛ لأن صالحًا لما حضره مات فبنوا حضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً ، ثم ذكر قصة طويلة ، وقال بعد ذلك : وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم ين فى الأرض مثله فيما ذكروا

وزعموا ، وحاله أيضًا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحدًا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عزيف الجنّ والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك ، وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه فى هذه الآية موعظة وعبرة . قال : وقيل : إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدّم فى سورة الأنبياء فى قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ [الأنبياء : ١١] . فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم . انتهى .

ثم أنكر سبحانه على أهل مكة اعتبارهم بهذه الآثار قائلا : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ حثا لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا ، فلهذا أنكر عليهم ، كما فى قوله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] . ومعنى ﴿ **فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾: أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل . كما أن الآذان محل السمع . وقيل : إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك ، فإن القلب هو الذى يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجًا عنه . وقد اختلف علماء المعقول فى محل العقل وماهيته اختلافًا كثيرًا لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿ **أو آذان يسمعون بها** ﴾ أى ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام الله ، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار** ﴾ قال الفراء : الهاء عماد يجوز أن يقال : فإنه ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ، أى فإن الأبصار لا تعمى ، أوفإن القصة لا تعمى الأبصار ، أى أبصار العيون ﴿ **ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ أى ليس الخلل فى مشاعرهم، وإنما هو فى عقولهم أى لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار . قال الفراء والزجاج : إن قوله: ﴿ **التى فى الصدور** ﴾ من التوكيد الذى تزيده العرب فى الكلام كقوله : ﴿عشرة كاملة ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [المائدة : ٤١] ، ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال : ﴿**ويستعجلونك بالعذاب** ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشدّ إنكار ، فاستعجالهم له ، هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عزّ وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال: ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ قال الفراء : فى هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة . وذكر الزجاج وجهًا آخر فقال : اعلم أن الله لا يفوته شىء، وإن يومًا عنده وألف سنة فى قدرته واحد ، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره فى القدرة ، إلا أن الله تفضل بالإمهال . انتهى . ومحل جملة : ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ النصب على الحال ، أى والحال أنه لا يخلف وعده أبدا ،

وقد سبق الوعد فلابد من مجيئه حتما ، أو هى اعتراضية مبينة لما قبلها ، وعلى الأول تكون جملة : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ مستأنفة ، وعلى الثانى تكون معطوفة على الجملة التى قبلها مسوقة لبيان حالهم فى الاستعجال ، وخطابهم فى ذلك ببيان كمال حلمه ، لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما فى قوله: ﴿ إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا﴾ [المعارج : ٦ ، ٧] . قال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة ، أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة كألف سنة . وقيل : المعنى : وإن يومًا من الخوف والشدّة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياسًا . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى : « مما يعدون » بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله :﴿ ويستعجلونك ﴾ وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختارها أبو حاتم .

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ : هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قومًا بعد الإملاء والتأخير . قيل : وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد ،وليس بتكرار فى الحقيقة ؛ لأن الأول : سيق لبيان الإهلاك مناسبًا لقوله: ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ولهذا عطف بالفاء بدلا عن ذلك ؛ والثانى : سيق لبيان الإملاء مناسبًا لقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة ﴾ فكأنه قيل : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حينًا، ثم أخذتهم بالعذاب ، ومرجع الكل إلى حكمى . فجملة : ﴿ وإلى المصير ﴾ تذييل لتقرير ما قبلها .ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدى الساعة مبين لهم ما نزل إليهم ، فمن آمن وعمل صالحًا فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة ، ومن كان على خلاف ذلك فهو فى النار ، وهم ﴿ الذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ يقال : عاجزه : سابقه ، لأن كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش . وقيل : معنى ﴿ معاجزين ﴾ ظانين ومقدّرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج . وقيل : معاندين ، قاله الفرّاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ فهى خاوية على عروشها ﴾ قال : خربة ليس فيها أحد ﴿ وبئر معطلة ﴾ : عطلها أهلها وتركوها ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وبئر معطلة ﴾ قال : التى تركت لا أهل لها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : هو المجصص . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء نحوه . أيضًا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال فى الآية : هو يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، فقد مضى منها ستة آلاف . وأخرج

ابن عدىّ والديلمى عن أنس مرفوعًا نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **معاجزين**﴾ قال : مراغمين . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : مشاقين .

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)** ﴾.

قوله : ﴿ **من رسول ولا نبى** ﴾ قيل : الرسول : الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانًا ومحاورته شفاها ، والنبىّ : الذى تكون [نبوته] (١) إلهامًا أو منامًا . وقيل : الرسول : من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبىّ : من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل عليه كتاب ، ولا بدّ لهما جميعًا من المعجزة الظاهرة ﴿ **إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته**﴾ معنى تمنى : تشهى وهيأ فى نفسه ما يهواه . قال الواحدى : وقال المفسرون : معنى تمنى : تلا . قال جماعة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية : أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنى فى نفسه أن لا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالسًا فى ناد من أنديتهم وقد نزل عليه سورة : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] . وكان ذلك التمنى فى نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه : تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى . فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين والمشركين ، فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فأتاه جبريل فقال : ما صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفًا شديدًا، فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا (٢) .

ولم يصح شىء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال الله : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه

---

(١) اللفظ بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من القرطبى ٧/ ٤٤٧٢ ، وهو ما يستقيم به المعنى .
(٢) القرطبى ٧/ ٤٤٧٢ .

باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٦] وقوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : ٣] وقوله : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون . قال البزار : هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل . وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة . قال القاضي عياض في الشفاء : إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا . قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح (١) .

وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿ تمنى ﴾ : قرأ وتلا ، كما قدّمنا من حكاية الواحدي لذلك عن المفسرين . وكذا قال البغوي : إن أكثرالمفسرين قالوا معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : تلا وقرأ كتاب الله ، ومعنى ﴿ **ألقى الشيطان في أمنيته** ﴾ أي في تلاوته وقراءته . قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدّم في تفسير قوله : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ [البقرة : ٧٨] . وقيل : معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : حدّث ، ومعنى ﴿ **ألقى الشيطان في أمنيته**﴾ : في حديثه ، وروى هذا عن ابن عباس . وقيل معنى ﴿ **تمنى** ﴾ : قال . فحاصل معنى الآية : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ، أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء،وعلى تقدير أن معنى ﴿ **تمنى**﴾: حدّث نفسه ، كما حكاه الفرّاء والكسائي ، فإنهما قالا : تمنى إذا حدّث نفسه ، فالمعنى : أنه إذا حدّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه . قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة . وقد قيل في تأويل الآية : إن المراد بالغرانيق : الملائكة ، ويردّ بقوله : ﴿**فينسخ الله ما يلقى الشيطان** ﴾ أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . وقيل : إن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهوًا ونسيانًا وهما مجوّزان على الأنبياء ، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر في مواطنه ، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان به فقال : ﴿ **فينسخ الله ما يلقى الشيطان** ﴾ أي يبطله ويجعله ذاهبًا غير ثابت ﴿**ثم يحكم الله آياته**﴾ أي يثبتها ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أو كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله.

---

(١) ابن كثير ٤ / ٦٥٥ .

وجملة : ﴿ **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة** ﴾ للتعليل ، أى ذلك الإلقاء الذى يلقيه الشيطان فتنة ، أى ضلالة ﴿ **للذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شكّ ونفاق ﴿ **والقاسية قلوبهم** ﴾ : هم المشركون ، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبدًا ولا ترجع إلى الصواب بحال ، ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين : وهما : من فى قلبه مرض ، ومن فى قلبه قسوة ، بأنهم ظالمون فقال : ﴿ **وإن الظالمين لفى شقاق بعيد** ﴾ أى عداوة شديدة ، ووصف الشقاق بالبعد مبالغة ، والموصوف به فى الحقيقة من قام به .

ولما بين سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة فى حقّ أهل النفاق والشكّ والشرك بين أنه فى حقّ المؤمنين العالمين باللّه العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حقّ وصدق فقال : ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك** ﴾ أى الحقّ النازل من عنده . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **أنه** ﴾ راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء ، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ، ولكنه يردّ هذا قوله : ﴿ **فيؤمنوا به** ﴾ فإن المراد : الإيمان بالقرآن ، أى يثبتوا على الإيمان به ﴿**فتخبت له قلوبهم** ﴾ أى تخشع وتسكن وتنقاد ، فإن الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿ **وإن الله لهاد الذين آمنوا** ﴾ فى أمور دينهم ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ أى طريق صحيح لا عوج به . وقرأ أبو حيوة : « وإن الله لهاد الذين آمنوا » بالتنوين .

﴿ **ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه** ﴾ أى فى شكّ من القرآن . وقيل : فى الدين الذى يدل عليه ذكر الصراط المستقيم . وقيل : فى إلقاء الشيطان ، فيقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك ؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى: « فى مرية » بضم الميم ﴿ **حتى تأتيهم الساعة** ﴾ أى القيامة ﴿ **بغتة** ﴾ أى فجأة ﴿ **أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** ﴾ وهو يوم القيامة ؛ لأنه لا يوم بعده ، فكان بهذا الاعتبار عقيمًا ، والعقيم فى اللغة : من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم ، وصف بالعقم . وقيل : يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر. وقيل : إن اليوم وصف بالعقم ، لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة ، فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [الذاريات: ٤١] أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر .

﴿ **الملك يومئذ لله** ﴾ أى السلطان القاهر والاستيلاء التامّ : يوم القيامة للّه سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ، وجملة : ﴿ **يحكم بينهم** ﴾ مستأنفة جوابًا عن سؤال مقدّر ، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه : ﴿ **فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم** ﴾ أى كائنون فيها مستقرّون فى أرضها منغمسون فى نعيمها ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ أى جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿ **فأولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أى عذاب متصف بأنه مهين للمعذبين بالغ منهم المبلغ العظيم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى فى المصاحف ، عن عمرو بن دينار قال : كان ابن

عباس يقرأ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث » . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله ، وزاد: فنسخت محدّث ، قال : والمحدّثون : صاحب يس و لقمان ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب موسى . وأخرج البزار والطبرانى وابن مردويه ، والضياء فى المختارة ، قال السيوطى : بسند رجاله ثقات ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ قرأ : « أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنّ لترتجى ». ففرح المشركون بذلك وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاءه جبريل فقال : اقرأ عليّ ما جئت به ، فقرأ : « أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى » ، فقال : ما أتيتك بهذا ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى** ﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن سعيد بن جبير ، قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فذكر نحوه [(٢)] ، ولم يذكر ابن عباس . وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية والسدّى عن سعيد مرسلاً . ورواه عبد بن حميد عن السدّى عن أبى صالح مرسلاً . ورواه ابن أبى حاتم عن ابن شهاب مرسلا . وأخرج ابن جرير عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلاً أيضًا . والحاصل : أن جميع الروايات فى هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشىء منها . وقد أسلفنا عن الحفاظ فى أوّل هذا البحث ما فيه كفاية ، وفى الباب روايات من أحبّ الوقوف على جميعها فلينظرها فى الدّر المنثور للسيوطى ، ولا يأتى التطويل بذكرها هنا بفائدة ، فقد عرفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **حتى إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته** ﴾ يقول : إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : يعنى بالتمنى التلاوة والقراءة ، ألقى الشيطان فى أمنيته : فى تلاوته ﴿**فينسخ الله** ﴾ فينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبيّ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **إذا تمنى** ﴾ قال : تكلم ﴿ **فى أمنيته** ﴾ قال : كلامه. وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله:﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ قال : يوم بدر . وأخرج ابن مردويه عن أبيّ بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن ابى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ ، قال :يوم بدر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : يوم القيامة لا ليلة له . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله .

---

(١) الطبرانى (١٢٤٥٠) .

(٢) ابن جرير ١٧ / ١٣٣ .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾.

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصًا لهم بمزيد الشرف ، فقال : ﴿ **والذين هاجروا فى سبيل الله** ﴾ قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة . وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان فى سرية أوعسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكل من سبيل الله ﴿ **ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ أى فى حال المهاجرة ، واللام فى﴿ **ليرزقنهم الله رزقا حسنا** ﴾ جواب قسم محذوف ، والجملة خبر الموصول بتقدير القول ، وانتصاب ﴿**رزقًا** ﴾ على أنه مفعول ثان ، أى مرزوقًا حسنًا ، أو على أنه مصدر مؤكدة ، والرزق الحسن : هو نعيم الجنة الذى لا ينقطع . وقيل : هو الغنيمة لأنه حلال . وقيل : هو العلم والفهم كقول شعيب : ﴿ ورزقنى منه رزقا حسنا ﴾ [هود : ٨٨] . قرأ ابن عامر وأهل الشام : « ثم قتلوا » بالتشديد على التكثير ، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿**وإن الله لهو خير الرازقين** ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب، وكل رزق يجرى على يد العباد لبعضهم البعض ، فهو منه سبحانه ، لا رازق سواه ولا معطى غيره ، والجملة تذييل مقرّرة لما قبلها .

وجملة : ﴿ **ليدخلنهم مدخلا يرضونه** ﴾ مستأنفة ، أو بدل من جملة: ﴿ **ليرزقنهم الله** ﴾. قرأ أهل المدينة: «مدخلا » بفتح الميم ، وقرأ الباقون بضمها ، وهو اسم مكان أريد به الجنة ، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمى مؤكد للفعل المذكور ، وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة سبحان . وفى هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره ، فإن المدخل الذى يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم ، على أنهم يرون فى الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذى يرضونه وفوق الرضا ﴿**وإن الله لعليم** ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿ **حليم** ﴾ عن تفريط المفرطين منهم لا

يعاجلهم بالعقوبة .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم . قال الزجاج أى الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ، ومعنى ﴿**ومن عاقب بمثل ما عوقب به** ﴾: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه . وسمى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقوله تعالى : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : ١٩٤] . والعقوبة فى الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه . والمراد بالمثلية : أنه اقتصر على المقدار الذى ظلم به ولم يزد عليه ، ومعنى ﴿ **ثم بغى عليه** ﴾ : أن الظالم له فى الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى . قيل: المراد بهذا البغى : هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به ، واللام فى ﴿ **ينصرنه الله** ﴾ جواب قسم محذوف ، أى لينصرن الله المبغىّ عليه على الباغى ﴿ **إن الله لعفوٌ غفور** ﴾ أي كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب . وقيل : العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو. وقيل : إن معنى ﴿ **ثم بغى عليه** ﴾ أى ثم كان المجازى مبغيًا عليه، أى مظلومًا ، ومعنى ثم : تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل فى أمثال العرب : البادى أظلم . وقيل : إن هذه الآية مدنية ،وهى فى القصاص والجراحات .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار** ﴾ إلى ما تقدّم من نصر الله سبحانه للمبغىّ عليه ، وهو مبتدأ وخبره جملة : ﴿ **بأن الله يولج** ﴾ والباء للسببية ، أى ذلك بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وعبر عن الزيادة بالإيلاج ، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر ، والمراد تحصيل أحد العرضين فى محل الآخر . وقد مضى فى آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿ **وأن الله سميع** ﴾ يسمع كلّ مسموع ﴿**بصير** ﴾ يبصر كلّ مبصر ، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

والإشارة بقوله :﴿ **ذلك بأن الله هو الحق** ﴾ إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام، أى هو سبحانه ذو الحق ، دينه حقّ ، وعبادته حقّ ؛ ونصره لأوليائه على أعدائه حقّ ، ووعده حقّ ، فهو عزّ وجلّ فى نفسه وأفعاله وصفاته حقّ ﴿ **وأن ما تدعون من دونه هو الباطل** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة « تدعون » بالفوقية على الخطاب للمشركين ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة . والمعنى: إن الذين تدعونه إلهًا ، وهى الأصنام ، هو الباطل الذى لا ثبوت له ولا لكونه إلهًا ﴿ **وأن الله هو العلى** ﴾ أى العالى على كل شىء بقدرته المتقدّس على الأشباه والأنداد المتنزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿ **الكبير** ﴾ أى ذو الكبرياء ، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفرّده بالإلهية .

ثم ذكر سبحانه دليلا بينًا على كمال قدرته ، فقال : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ الاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على ﴿ **أنزل** ﴾ وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه . قال الخليل : المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا ، كما قال الشاعر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق ... وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

معناه : قد سألته فنطق . قال الفراء : ﴿ **ألم تر** ﴾ خبر ، كما تقول فى الكلام : إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، أى ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة ، أى ذوات بقل وسباع ، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة ، وصيغة الاستقبال ، لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره ، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين ؛ لأنه لو نصب لا نعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفى الاخضرار ، والمقصود إثباته . قال ابن عطية : هذا لا يكون ، يعنى الاخضرار فى صباح ليلة المطر ، إلا بمكة وتهامة . والظاهر أن المراد بالإخضرار اخضرار الأرض فى نفسها لا باعتبار النبات فيها كما فى قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ [الحج: ٥] . والمراد بقوله : ﴿ **إن الله لطيف** ﴾ أنه يصل علمه إلى كل دقيق وجليل . وقيل : لطيف بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج النبات، ومعنى ﴿ **خبير** ﴾ أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم . وقيل: خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر . وقيل : خبير بحاجتهم وفاقتهم .

﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ خلقًا وملكًا وتصرّفًا وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿**وإن الله لهو الغنى** ﴾ فلا يحتاج إلى شىء ﴿ **الحميد** ﴾ المستوجب للحمد فى كل حال . ﴿**ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض** ﴾ هذه نعمة أخرى ذكرها الله سبحانه ، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم ﴿ **والفلك** ﴾ عطف على ما ،أو على اسم أن، أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها فى البحر، وقرأ عبد الرحمن الأعرج: « والفلك » بالرفع على الابتداء وما بعده خبره ، وقرأ الباقون بالنصب . ومعنى ﴿**تجرى فى البحر بأمره** ﴾ أى بتقديره ، والجملة فى محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض** ﴾ أى كراهة أن تقع ، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك ، والجملة معطوفة على تجرى ﴿ **إلا بإذنه** ﴾ أى بإرادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة ﴿ **إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ أى كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيأ لهم أسباب المعاش ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه على عباده وإنعامًا عليهم .

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال : ﴿ **وهو الذى أحياكم** ﴾ بعد أن كنتم جماداً ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ **ثم يحييكم** ﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿ **إن الإنسان**

لكفور ﴾ أى كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ، ولا ينافى هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ؛ لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسى : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من مات مرابطًا ، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ إلى قوله : ﴿**حليم** ﴾» . وإسناد ابن أبى حاتم هكذا : حدّثنا المسيب بن واضح . حدّثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن عبد الكريم بن الحرث عن أبى عقبة ،يعنى أبا عبيدة بن عقبة قال : قال شرحبيل ابن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمرّ بى سلمان : يعنى الفارسى قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن فضالة ابن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان برودس ، فمرّوا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى ، فمال الناس عن القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل فى سبيل الله ، فقال : والله ما أبالى من أىّ حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿**والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ الآية . وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدّثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر أخبرنى ضمام ؛ أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المغافرى يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ فذكره . قلت : ويؤيد هذا قول الله سبحانه : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ [النساء: ١٠٠] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله :﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به** ﴾ قال : إن النبىّ ﷺ بعث سرية فى ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين ، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام، وإن أصحاب محمد ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم ؛ فإنهم لا يستحلون القتال فى الشهر الحرام إلا من بادأهم ، وإن المشركين بدؤوا فقاتلوهم ، فاستحلّ الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم . وهو مرسل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله :﴿ **ومن عاقب**﴾ الآية. قال: تعاون المشركون على النبى ﷺ وأصحابه فأخرجوه، فوعده الله أن ينصره، وهو فى القصاص أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **وإن ما تدعون من دونه هو الباطل** ﴾ قال : الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: ﴿ **إن الإنسان لكفور** ﴾ قال : يعدّ المصيبات وينسى النعم .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾.

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصرى رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته فقال: ﴿ **لكل أمةجعلنا منسكا** ﴾ أى لكلّ قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى ، وجملة : ﴿ **هم ناسكوه** ﴾ صفة لـ ﴿ **منسكا** ﴾ والضمير لكل أمة ، أى تلك الأمة هى العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ، والإنجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ . والقرآن منسك المسلمين ، والمنسك : مصدر ، لا اسم مكان كما يدّل عليه : ﴿ **هم ناسكوه** ﴾ ولم يقل: ناسكون فيه . وقيل : المنسك : موضع أداء الطاعة . وقيل: هو : الذبائح ، ولا وجه للتخصيص ، ولا اعتبار بخصوص السبب ، والفاء فى قوله : ﴿ **فلا ينازعنك فى الأمر** ﴾ لترتيب النهى على ما قبله ، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم ، أى قد عينا لكل أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية ، وذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم اياه فى أمر الدين والنهى إما على حقيقته ، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له . قال الزجاج : إنه نهى له ﷺ عن منازعتهم ، أى لا تنازعهم أنت ؛ كما تقول لا يخاصمك فلان ، أى لا تخاصمه ، وكما تقول: لا يضاربنك فلان ، أى لا تضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضى العكس ضمنًا ، ولا يجوز : لا يضربنك فلان وأنت تريد : لا تضربه . وحكى عن الزجاج أنه قال فى معنى الآية : فلا ينازعنك ، أى فلا يجادلنك . قال: ودلّ على هذا ﴿ **وإن جادلوك** ﴾ وقرأ أبو مجلز: « فلا ينزعنك فى الأمر » أى لايستخفنك ولا يغلبنك على دينك . وقرأ الباقون : ﴿ **ينازعنك** ﴾ من المنازعة ﴿ **وادع إلى ربك** ﴾ أى وادع هؤلاء المنازعين ، أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿ **إنك لعلى هدى مستقيم** ﴾ أى طريق مستقيم لا اعوجاج فيه .

﴿ **وإن جادلوك** ﴾ أى وإن أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿ **فقل الله أعلم بما تعملون** ﴾ أى فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿ **الله يحكم بينكم** ﴾ أى بين المسلمين والكافرين ﴿ **يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل . وفى هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغى لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل . وقيل : إنها منسوخة بآية السيف .

وجملة : ﴿ **ألم تعلم** ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها . والاستفهام للتقرير ، أى قد علمت يامحمد وتيقنت ﴿ **أن الله يعلم ما فى السموات والأرض** ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون ﴿ **إن ذلك** ﴾ الذى فى السماء والأرض من معلوماته ﴿ **فى كتاب** ﴾ أى مكتوب عنده فى أمّ الكتاب ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أى إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير ، أو إن إحاطة علمه بما فى السماء والأرض يسير عليه.

﴿ **ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا** ﴾ هذا حكاية لبعض فضائحهم ، أى إنهم يعبدون أصنامًا لم يتمسكوا فى عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿ **وما ليس لهم به علم** ﴾ من دليل عقل يدّل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿ **وما للظالمين من نصير** ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية فى آل عمران ، وجملة: ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ معطوفة على يعبدون ، وانتصاب ﴿ **بينات** ﴾على الحال ، أى حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿ **تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر** ﴾ أى الأمر الذى ينكر ، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها ، أو المراد بالمنكر: الإنكار ، أى تعرف فى وجوههم إنكارها . وقيل : هو التجبر والترفع ، وجملة : ﴿ **يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل: ما ذلك المنكر الذى يعرف فى وجوههم ؟ فقيل : يكادون يسطون ، أى يبطشون ، والسطوة :شدة البطش ، يقال:سطا به يسطو إذا بطش به بضرب ، أو شتم ، أو أخذ باليد ، وأصل السطو: القهر .

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز ، أو من السنة الصحيحة مخالفًا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت فى وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين ، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع مالا يحيط به الوصف ،والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم ،المبينين للناس ما نزل إليهم ،وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم أمر رسوله أن يردّ عليهم . فقال : ﴿ **قل أفأنبئكم** ﴾ أى أخبركم ﴿ **بشر من ذلكم** ﴾ الذى فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم ، وهو النار التى أعدّها الله لكم ، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : ما هذا الأمر الذى هو شرّ مما نكابده ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا ؟ فقال : هو : ﴿**النار وعدها الله الذين كفروا** ﴾ وقيل : إن ﴿ **النار** ﴾ مبتدأ وخبره جملة: ﴿ **وعدها الله الذين كفروا** ﴾ وقيل : المعنى : أفأخبركم بشرّ مما يلحق تالى القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم ؟ وقرئ « النار » بالنصب على تقدير : أعنى . وقرئ بالجرّ بدلا من شر ﴿**وبئس المصير** ﴾ أى الموضع الذى تصيرون إليه ، وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هم ناسكوه** ﴾ قال : يعنى : هم ذابحوه ﴿ **فلا ينازعنك فى الأمر** ﴾ يعنى : فى أمر الذبح . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة

نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه أيضًا. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ﴿ **فلا ينازعنك فى الأمر**﴾ قول أهل الشرك : أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلوه ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، قال: ما أكتب ؟ قال : علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله للنبى ﷺ :﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض** ﴾ يعنى : ما فى السموات السبع والأراضين السبع . ﴿ **إن ذلك** ﴾ العلم ﴿ **فى كتاب** ﴾ يعنى : فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأراضين ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ يعنى : هين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **يكادون يسطون** ﴾: يبطشون .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

قوله : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل ﴾ هذا متصل بقوله :﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ﴾[الحج : ٧١] قال الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى : ضربوا لى مثلاً ﴿**فاستمعوا** ﴾ قولهم ، يعنى : أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره ، فكأنه قال : جعلوا لى شبهًا فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه . وقال القتيبى : إن المعنى : يأيها الناس، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابًا ، وإن سلبها شيئًا لم تستطع أن تستنقذه منه . قال النحاس: المعنى :ضرب الله عزّ وجلّ لما يعبدونه من دونه مثلاً . قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه، أى بين الله لكم شبهًا ولمعبودكم . وأصل المثل : جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول ، مسيرة فى الناس مستغربة عندهم ، وجعلوا مضربها مثلا لموردها ، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها فى الغرابة كهذه القصة المذكورة ، فى هذه الآية . والمراد بما يدعونه من دون الله : الأصنام التى كانت حول الكعبة وغيرها . وقيل :

المراد بهم : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحلّ والعقد فيهم . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأوّل أوفق بالمقام وأظهر فى التمثيل ، والذباب : اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى ، وجمع القلة أذبة ، والكثرة ذبان مثل غراب وأغربة وغربان . وقال الجوهرى : الذباب معروف ، الواحد ذبابة . والمعنى : لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات ، وجملة: ﴿ **ولو اجتمعوا له** ﴾ معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة ، أى لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له ، والجواب محذوف والتقدير: لن يخلقوه ، وهما فى محل نصب على الحال ، أى لن يخلقوه على كلّ حال .

ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه** ﴾ أى إذا أخذ منهم الذباب شيئًا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والإنقاذ : التخلص ، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه عليهم ؛ فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرمًا وأشدّ منه قوّة؛ أعجز وأضعف ، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب ، فقال : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه ، والمطلوب : الذباب . وقيل : الطالب : عابد الصنم ، والمطلوب : الصنم. وقيل : الطالب : الذباب ، والمطلوب : الآلهة .

ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون آلله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية فى العجز، ما عرفوا الله حقّ معرفته فقال: ﴿ **ما قدروا الله حق قدره** ﴾ أى ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد تقدّم فى الأنعام ﴿ **إن الله لقوى** ﴾ على خلق كل شىء ﴿ **عزيز** ﴾ غالب لا يغلبه أحد ، بخلاف آلهة المشركين ، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضرّ ولا تقدر على شىء .

ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه فى النبوّات والإلهيات فقال : ﴿ **الله يصطفى من الملائكة رسلا** ﴾ كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل ، ويصطفى أيضًا رسلا﴿ **من الناس** ﴾ وهم الأنبياء ، فيرسل الملك إلى النبى ، والنبىّ إلى الناس ، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أو لتحصيل ما ينفعهم (١) أو لإنزال العذاب عليهم ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لأقوال عباده ﴿ **بصير** ﴾ بمن يختاره من خلقه ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أى ما قدّموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشرّ كقوله تعالى : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ [يس : ١٢] . ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ لا إلى غيره.

ولما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه ، الزجر لعباده عن معاصيه ، والحضّ لهم على طاعاته ؛ صرح بالمقصود فقال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا** ﴾ أى صلوا الصلاة

(١) فى المخطوطة : « ينفعكم » ، والصحيح ما أثبتناه بضمير الغائب ليستقيم المعنى .

التى شرعها الله لكم ، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات ، ثم عمم فقال : ﴿ **واعبدوا ربكم** ﴾ أى افعلوا جميع أنواع العبادة التى أمركم الله بها ﴿ **وافعلوا الخير** ﴾ أى ما هو خير ، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة . وقيل : المراد بالخير هنا : المندوبات . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح . وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعى ومن وافقه ، لا عند أبى حنيفة ومن قال بقوله ، وقد تقدّم أن هذه السورة فضلت بسجدتين ، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية .

ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله ، فقال : ﴿ **وجاهدوا فى الله** ﴾ أى فى ذاته ومن أجله ، والمراد به الجهاد الأكبر ، وهو الغزو للكفار ومدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين . وقيل : المراد بالجهاد هنا : امتثال ما أمرهم الله به فى الآية المتقدّمة ، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم ، ومعنى ﴿ **حق جهاده** ﴾ : المبالغة فى الأمر بهذا الجهاد ؛ لأنه أضاف الحق إلى الجهاد ، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق ، أى جهادًا خالصًا للّه ، فعكس ذلك لقصد المبالغة ، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعًا ، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله . وقيل : المراد ﴿ **بحق جهاده** ﴾ : هو أن لا تخافوا فى الله لومة لائم . وقيل : المراد به استفراغ ما فى وسعهم فى إحياء دين الله . وقال مقاتل والكلبى : إن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : ١٠٢] منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ . ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله : ﴿ **هو اجتباكم** ﴾ أى اختاركم لدينه ، وفيه تشريف لهم عظيم . ثم لما كان فى التكليف مشقة على النفس فى بعض الحالات قال : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ أى من ضيق وشدّة .

وقد اختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه الله ، فقيل : هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين. وقيل : المراد : قصر الصلاة ، والإفطار للمسافر ، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره ، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ فى تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة ، وكذا فى الفطر والأضحى . وقيل : المعنى : أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجًا بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التى فيها حرج ، فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بنى إسرائيل . وقيل : المراد بذلك : أنه جعل لهم من الذنب مخرجًا بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش ، أوالقصاص فى الجنايات ، وردّ المال أو مثله أو قيمته فى الغضب ونحوه . والظاهر أن الآية أعمّ من هذا كله فقد حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده : إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه ،أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذى شرعه الله، وما أنفع هذه الآية وأجلّ موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله ما

استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وقوله : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وفى الحديث الصحيح أنه سبحانه قال :« قد فعلت» كما سبق بيانه فى تفسير هذه الآية ، والأحاديث فى هذا كثيرة .

وانتصاب ملة فى ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ على المصدرية بفعل دلّ عليه ما قبله أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم . وقال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم . وقال الفراء : انتصب على تقدير حذف الكاف ، أى كملة. وقيل : التقدير : وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم ، فأقام الملة مقام الفعل. وقيل: على الإغراء . وقيل : على الاختصاص ، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنبيهم ﷺ : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أى فى الكتب المتقدّمة ﴿ وفى هذا ﴾ أى القرآن ، والضمير لله سبحانه . وقيل : راجع إلى إبراهيم . والمعنى : هو ، أى إبراهيم، سماكم المسلمين من قبل النبى ﷺ ، وفى هذا ، أى فى حكمه ، أن من اتبع محمدًا فهو مسلم . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة . ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ ليكون الرسول شهيدا عليكم ﴾ أى بتبليغه إليكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون ، والتجؤوا إليه فى جميع أموركم ، ولا تطلبوا ذلك إلا منه ﴿ هو مولاكم ﴾ أى ناصركم ومتولى أموركم دقيقها وجليلها ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ أى لا مماثل له فى الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم . وقيل : المراد بقوله : ﴿ اعتصموا بالله ﴾ : تمسكوا بدين الله . وقيل : ثقوا به تعالى .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل ﴾ قال : نزلت فى صنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ قال : الطالب آلهتهم ، والمطلوب الذباب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ قال : لا تستنقذ الأصنام ذلك الشىء من الذباب. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة»[(١)] . وأخرج أيضًا عن أنس وصححه أن النبىّ ﷺ قال : « موسى بن عمران صفى الله » [(٢)] .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لى عمر : ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ : وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوّله ؟ قلت بلى : فمتى

(١) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٥ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٦ على شرط مسلم ولم يذكره الذهبى .

هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء ، وبنو المغيرة الوزراء . أخرجه البيهقي فى الدلائل عن المسور بن مخرمة قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره . وأخرج الترمذى وصححه وابن حبان وابن مردويه والعسكرى فى الأمثال عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله » [(١)] . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ قال : الضيق[(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد قال : قال أبو هريرة لابن عباس : أما علينا فى الدين من حرج فى أن نسرق أو نزنى ؟ قال : بلى ، قال : فما جعل عليكم فى الدين من حرج ، قال : الإصر الذى كان على بنى إسرائيل وضع عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول : وما جعل عليكم فى الدين من حرج توسعة الإسلام ، ما جعل الله من التوبة والكفارات . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس : ﴿ **ما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ قال : هذا فى هلال رمضان إذا شكّ فيه الناس ، وفى الحج إذا شكوا فى الأضحى ، وفى الفطر وأشباهه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ادع لى رجلاً من هذيل ، فجاءه فقال : مما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر التى ليس فيها مخرج ، فقال ابن عباس : الذى ليس له مخرج . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه من طريق عبيد الله بن أبى يزيد ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ها هنا أحد من هذيل ؟ قال رجل: أنا ، فقال : ما تعدّون الحرجة فيكم ؟ قال : الشىء الضيق ، قال : هو ذاك . وأخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال : قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ ثم قال لى : ادع لى رجلا من بنى مدلج ، قال عمر : ما الحرج فيكم ؟ قال: الضيق .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله :﴿ **ملة أبيكم** ﴾ قال : دين أبيكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سماكم المسلمين من قبل** ﴾ قال الله عزّ وجلّ : سماكم . وروى نحوه عن جماعة من التابعين . وأخرج الطيالسى وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وصححه ، والنسائى وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والبغوى والباوردى وابن قانع والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب

---

(١) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٢١) وقال : « وحديث فضالة حديث حسن صحيح » وابن حبان فى الجهاد (٤٦٨٦) .

(٢) ابن جرير ١٧/١٤٣ والحاكم ٢/٣٩١ وقال : « صحيح الإسناد » ، وقال الذهبى : « بل الحكم تركوه ، من أهل أيلة » .

الإيمان عن الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثى جهنم » ، قال رجل : يارسول الله ، وإن صام وصلى : قال : « نعم ، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله» (١).

---

(١) الطيالسى (١١٦٢) وأحمد ٤/ ١٣٠ والترمذى فى الأمثال (٢٨٦٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٣٦٩) وأبو يعلى (١٥٧١) وابن خزيمة (١٨٩٥) والطبرانى (٣٤٣٠ ، ٣٤٣١) وصححه الحاكم ١/ ٤٢١ ، ٤٢٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٤٩٤) ط . الكتب العلمية .

تفسير سورة « المؤمنون »

هى مكية بلا خلاف . قال القرطبى : كلها مكية فى قول الجميع ، وآياتها مائة وتسع عشرة آية . وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال : صلى النبى ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين ، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع (١) . وأخرج البيهقى من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » (٢) . وأخرجه أيضاً ابن عدى والحاكم (٣) . وأخرج الطبرانى فى السنة وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله (٤) . وقد ورد فى فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتى قريباً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪ ﴾.

قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال الفراء : « قد » ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضى من الحال ؛ لأن قد تقرّب الماضى من الحال حتى تلحقه بحكمه ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيامها ، ويكون المعنى فى الآية: وأن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه فى الحال . والفلاح : الظفر بالمراد ، والنجاة من المكروه . وقيل : البقاء فى الخير ، وأفلح إذا دخل فى الفلاح ، ويقال : أفلحه : إذا أصاره إلى الفلاح ، وقد تقدّم بيان معنى الفلاح فى أوّل البقرة . وقرأ طلحة بن مصرف: « قد أفلح » بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول. وروى عنه أنه قرأ :« أفلحوا المؤمنون» على الإبهام والتفسير، أو على لغة أكلونى البراغيث .

---

(١) أحمد ٤ / ٤١١ ومسلم فى الصلاة (٤٥٥/١٦٣) وأبو داود فى الصلاة (٦٤٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٢٠) وليس الحديث فى الترمذى .

(٢) عزاه ابن كثير ٥ / ٧ لابن أبى الدنيا .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ وقال الذهبى : « ضعيف » .

(٤) قال ابن كثير ٥ / ٦ : « رواه أبو القاسم الطبرانى عن بقية ، وهو ضعيف » .

ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ وما عطف عليه . والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو فى اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل ، وقد اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ؟ على قولين : قيل : الصحيح الأول ، وقيل : الثانى . وادّعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته ، حكاه النيسابورى فى تفسيره . قال : ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [محمد : ٢٤] . والتدبر لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ [طه:١٤] . والغفلة تضادّ الذكر ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ [الأعراف:٢٠٥] . وقوله : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء:٤٣] نهى للسكران والمستغرق فى هموم الدنيا بمنزلته . واللغو ، قال الزجاج: هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل ، وقد تقدّم تفسيره فى البقرة . قال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك ، وقال الحسن : إنه المعاصى كلها . ومعنى إعراضهم عنه : تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو فى كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة فى ذلك دخولا أوّلياً كما تفيده الجملة الاسمية ، وبناء الحكم على الضمير. ومعنى فعلهم للزكاة : تأديتهم لها ، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل ، والمراد بالزكاة هنا : المصدر ؛ لأنه الصادر عن الفاعل ، وقيل : يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف ، أى والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون .

﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ : الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، ومعنى حفظهم لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحلّ لهم . وقيل : المراد هنا : الرجال خاصة دون النساء ، بدليل قوله : ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم**﴾ للإجماع على أنه لا يحلّ للمرأة أن يطأها من تملكه . قال الفراء : إن « على » فى قوله : ﴿ **إلا على أزواجهم** ﴾ بمعنى «من » . وقال الزجاج : المعنى : أنهم يلامون فى إطلاق ما حظر عليهم فأمروا بحفظه إلا على أزواجهم ودلّ على المحذوف ذكر اللوم فى آخر الآية . والجملة فى محل نصب على الحال. وقيل : إن الاستثناء من نفى الإرسال المفهوم من الحفظ ، أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم . وقيل : المعنى : إلا والين على أزواجهم وقوّامين عليهم ومن قولهم : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان . والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال إلا فى حال تزوّجهم أو تسرّيهم ، وجملة : ﴿ **أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ فى محل جرّ عطفاً على أزواجهم ، و« ما » مصدرية . والمراد بذلك : الإماء . وعبر عنهن بـ « ما » التى لغير العقلاء ؛ ولأنه اجتمع فيهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهنّ كسائر السلع ، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، وجملة : ﴿ **فإنهم غير ملومين** ﴾ تعليل لما تقدّم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه .

﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين . ومعنى العادون : المجاوزون إلى ما لا يحل لهم ، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحلّ عادياً . ووراء هنا بمعنى : سوى ، وهو مفعول ابتغى . قال الزجاج : أى فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف . و ﴿ وراء ﴾ ظرف . وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة ، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر ، وقد جمعنا فى ذلك رسالة سميناها « بلوغ المنى فى حكم الاستمنا » ، وذكرنا فيها أدلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما .

﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لأماناتهم** ﴾ بالجمع . وقرأ ابن كثير بالإفراد . والأمانة : ما يؤتمنون عليه . والعهد : ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده ، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا ، والأمانة أعمّ من العهد ، فكل عهد أمانة ، ومعنى ﴿ **راعون** ﴾ : حافظون . ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **صلواتهم** ﴾ بالجمع . وقرأ حمزة والكسائى : «صلاتهم» بالإفراد ، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو فى معنى الجمع . والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها فى أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها .

ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال : ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾ أى الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم . ثم بين الموروث بقوله : ﴿ **الذين يرثون الفردوس** ﴾ وهو أوسط الجنة ، كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ . والمعنى : أن من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهو الوارث الذى يرث من الجنة ذلك المكان ، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم . وقيل: المعنى : أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم ؛ لأنه سبحانه خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار . ولفظ الفردوس لغة رومية معرّبة . وقيل : فارسية. وقيل : حبشية . وقيل : عربية ، وجملة : ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ فى محل نصب على الحال المقدّرة ، أو مستأنفة لا محل لها ، ومعنى الخلود : أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، وتأنيث الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة .

وقد أخرج عبد الرازق وأحمد وعبد بن حميد والترمذى والنسائى وابن المنذر والعقيلى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوىّ النحل ، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة ، فسرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارضنا وارض عنا » ، ثم قال : « لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة » ، ثم قرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر (١) .

(١) عبد الرازق (٦٠٣٨) وأحمد ١ / ٣٤ والترمذى فى التفسير (٣١٧٣) والنسائى فى الكبرى فى الوتر (١٤٣٩)=

وفى إسناده يونس بن سليم الصنعانى [١] . قال النسائى : لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، والنسائى وابن المنذر، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنين ؟ اقرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى بلغ العشر ، فقالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ [٢] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، والبيهقى فى سننه عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ [٣] . وأخرجه عبد الرزاق عنه[٤] ، وزاد : فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده . وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد ، وأبو داود فى المراسيل ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن بلفظ : كان إذا قام فى الصلاة نظر هكذا وهكذا ، يميناً وشمالاً، فنزلت : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ فحنى رأسه [٥] . وروى عنه من طرق مرسلا هكذا . وأخرجه الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عنه عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ فطأطأ رأسه [٦] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن سيرين بلفظ : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء فى الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون**﴾ فمالوا برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً [٧] . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن علىّ ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿**الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وألا تلتفت فى صلاتك. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : خائفون ساكنون . وقد ورد فى مشروعية الخشوع فى

= وقال : « هذا حديث منكر » وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ ، وقال الذهبى : « سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا فقال : أظنه لا شىء » .

(١) فى المخطوطة : « يونس بن سليم الإيلى » والتصحيح من تهذيب التهذيب ١١/٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٧٠) وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ١٨ / ٣ والبيهقى ٢ / ٢٨٣ .

(٤) عبد الرزاق (٣٢٦١) .

(٥) أبو داود فى المراسيل (٤٥) والبيهقى ٢ / ٢٨٣ .

(٦) صححه الحاكم ٢ / ٣٩٣ على شرط الشيخين وقال : « لولا خلاف فيه على محمد . فقد قيل عنه مرسل » وقال الذهبى : « الصحيح مرسل » والبيهقى ٢ / ٢٨٣ .

(٧) ابن جرير ١٨ / ٣ .

الصلاة والنهى عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة فى كتب الحديث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ قال : الباطل . وأخرج عبد الرزاق ، وأبو داود فى ناسخه عن القاسم بن محمد ؛ أنه سئل عن المتعة فقال : إنى لأرى تحريمها فى القرآن ، ثم تلا : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ [المعارج:٢٣] ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قال : ذلك على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على تركها ، قال : تركها كفر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة فى قوله: ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾ قال : يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التى أعدت لهم لو أطاعوا الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾ » (١) . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذى وقال : حسن صحيح غريب عن أنس ، فذكر قصة ، وفيها : أن النبى ﷺ قال : « الفردوس ربوة الجنة ، وأوسطها وأفضلها » (٢) ، ويدلّ على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ [مريم:٦٣] وقوله : ﴿ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف:٤٣] ويشهد لحديث أبى هريرة هذا ما فى صحيح مسلم عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: « يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى » (٣) . وفى لفظ له : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانيا ، فيقول هذا فكاكك من النار » (٤) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ

---

(١) ابن ماجة فى الزهد (٤٣٤١) وابن جرير ١٨ / ٥ .
(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٧٤) .
(٣) مسلم فى التوبة (٢٧٦٧ / ٥١) .
(٤) مسلم فى التوبة (٢٧٦٧ / ٤٩) .

وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾.

لما حثّ سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها ، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك فى نفوس المكلفين فقال : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ إلى آخره ، واللام جواب قسم محذوف ، والجملة مبتدأة ، وقيل : معطوفة على ما قبلها ، والمراد بالإنسان : الجنس ؛ لأنهم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم ، وقيل : المراد به آدم . والسلالة فعالة من السلّ ، وهو استخراج الشىء من الشىء ، يقال : سللت الشعرة من العجين ، والسيف من الغمد فانسلّ ، فالنطفة سلالة ، والولد سليل ، وسلالة أيضاً ، ومنه قول الشاعر :

فجاءت به عضب الأديم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين

وقول الآخر :

وهل هند إلا مهرة عربية سلالة أفراس تجللها بغل

و « من » فى : ﴿ **من سلالة** ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ **خلقنا** ﴾ وفى : ﴿ **من طين** ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف ، وقع صفة لسلالة ، أى كائنة من طين ، والمعنى : أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أوّلا من طين ؛ لأن الأصل آدم ، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومنىّ ، وقيل: السلالة : الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعه فالذى يخرج مضاف إن أريد بالإنسان آدم ﴿**نطفة** ﴾ وقد تقدم تفسير النطفة فى سورة الحج . وكذلك تفسير العلقة والمضغة . والمراد بالقرار المكين : الرّحم . وعبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة ، ومعنى ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة** ﴾ أى أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿ **فخلقنا العلقة مضغة** ﴾ أى قطعة لحم غير مخلقة ﴿ **فخلقنا المضغة عظاما** ﴾ أى جعلها الله سبحانه متصلبة لتكون عمودًا للبدن على أشكال مخصوصة ﴿ **فكسونا العظام لحما** ﴾ أى أنبتَ الله سبحانه على كل عظم لحمًا على مقدار الذى يليق به ويناسبه ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ أى نفخنا فيه الروح بعد أن كان جمادًا. وقيل: أخرجناه إلى الدنيا . وقيل : هو نبات الشعر . وقيل : خروج الأسنان . وقيل : تكميل القوى المخلوقة فيه ، ولا مانع من إرادة الجميع ، والمجىء بـ « ثم » لكمال التفاوت بين الخلقين ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ أى استحق التعظيم والثناء . وقيل : مأخوذ من البركة ، أى كثر خيره وبركته . والخلق فى اللغة : التقدير ، يقال : خلقت الأديم : إذا قسته لتقطع منه شيئًا، فمعنى ﴿ **أحسن الخالقين** ﴾ : أتقن الصانعين المقدّرين ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبـ ـعض القوم يخلق ثم لا يفرى

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الأمور المتقدّمة ، أى ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لا محالة ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب . واللام فى ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ جواب لقسم محذوف ، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم . والطرائق هى : السموات . قال الخليل والفراء والزجاج : سميت طرائق ؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل. قال أبو عبيدة : طارقت الشىء جعلت بعضه فوق بعض ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . وقيل : لأنها طرائق الكواكب ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ المراد بالخلق هنا : المخلوق ، أى وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين . وقال أكثر المفسرين : المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط ، وحفظنا من فى الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض ، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم ، ويجوز أن يراد نفى الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به ، ونفى الغفلة عن حفظهم .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه. والمراد بالماء: ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون ، والآبار المستخرجة من الأرض ، فإن أصلها من ماء السماء . وقيل : أراد سبحانه فى هذه الآية الأنهار الأربعة : سيحان ، وجيحان ، والفرات ، والنيل ، ولا وجه لهذا التخصيص . وقيل: المراد به : الماء العذب ، ولا وجه لذلك أيضًا فليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء ، ومعنى ﴿ بقدر ﴾ : بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرع والثمار ، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر:٢١] ومعنى ﴿ فأسكناه فى الأرض ﴾ : جعلناه مستقراً فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذى يبقى فى المستنقعات والغدران ونحوها ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ أى كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه ، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى ، وفى هذا تهديد شديد لما يدلّ عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ، ومثله قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ [الملك: ٣٠] .

ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أى أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين ﴿ لكم فيها ﴾ أى فى هذه الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ . تتفكهون بها وتتطعمون منها وقيل : المعنى : ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم كقوله : فلان يأكل من حرفة كذا ، وهو بعيد ، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب ؛ لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك . كذا قال ابن جرير . وقيل : لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذة . قيل : المعنى بقوله : ﴿ لكم

فيها فواكه ﴾ أن لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل . وقيل : المعنى : لكم فى هذين النوعين خاصة فواكه ؛ لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة فى الطعم واللون . وقد اختلف أهل الفقه فى لفظ الفاكهة على ماذا يطلق ؟ اختلافاً كثيرا ، وأحسن ما قيل : إنها تطلق على الثمرات التى يأكلها الناس ، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام . واختلف فى البقول هل تدخل فى الفاكهة أم لا ؟

وانتصاب ﴿ **شجرة** ﴾ على العطف على ﴿ **جنات** ﴾ . وأجاز الفراء الرفع على تقدير : وثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء ، وخبرها محذوف مقدّر قبلها ، وهو الظرف المذكور . قال الواحدى : المفسرون كلهم يقولون : إن المراد بهذه الشجرة : شجرة الزيتون ، وخصت بالذكر ؛ لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقى ، وهى التى يخرج الدهن منها ، فذكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها ؛ ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعاً وأكثرها بركة ، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿ **تخرج من طور سيناء** ﴾ هو جبل ببيت المقدس ، والطور : الجبل فى كلام العرب . وقيل : وهو مما عرّب من كلام العجم. واختلف فى معنى سيناء فقيل : هو الحسن . وقيل : هو المبارك ، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول : جبل أحد . وقيل سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقيل : هو كلّ جبل يحمل الثمار . وقرأ الكوفيون : ﴿ **سيناء** ﴾ بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسر السين ، ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة ، وزعم الأخفش أنه أعجمى . وقرأ الجمهور : ﴿ **تنبت بالدهن** ﴾ بفتح المثناة وضمّ الباء الموحدة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ المثناة وكسر الباء الموحدة . والمعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية : الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة والمعنى على القراءة الأولى : أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية : الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة . قال أبو علىّ الفارسى : التقدير : تنبت جناها ومعه الدهن . وقيل : الباء زائدة ، قاله أبو عبيدة ، ومثله قول الشاعر :

هـنّ الحـرائـر لا ربـات أحـمـرة   سـود المحـاجـر لا يـقـرأن بالسـور

وقال آخر :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقال الفراء والزجاج : إن نبت وأنبت بمعنى ، والأصمعى ينكر أنبت ، ويرد عليه قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم   قـطينـا لهم حتـى إذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزهرى والحسن والأعرج : « تنبت » بضم المثناة وفتح الموحدة . قال الزجاج وابن جنى : أى تنبت ومعها الدهن ، وقرأ ابن مسعود : « تخرج بالدهن»، وقرأ زر ابن حبيش: « تنبت الدهن » بحذف حرف الجرّ . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب :

«بالدهان » ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ معطوف على الدهن ، أى تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به . وكونه صبغًا يؤتدم به . قرأ الجمهور : ﴿ صبغ ﴾ ، وقرأ قوم « صباغ » مثل لبس ولباس . وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ . وأصل الصبغ : ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به ؛ لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به .

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ هذه من جملة النعم التى امتنّ الله بها عليهم . وقد تقدّم تفسير الأنعام فى سورة النحل . قال النيسابورى فى تفسيره : ولعلّ القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة ؛ لأنها هى المحمول عليها فى العادة ؛ ولأنه قرنها بالفلك وهى سفائن البرّ ، كما أن الفلك سفائن البحر . وبين سبحانه أنها عبرة ؛ لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الإلهية ، ثم فصل سبحانه ما فى هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال : ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ﴾ يعنى سبحانه : اللبن المتكوّن فى بطونها المنصبّ إلى ضروعها ، فإن فى انعقاد ما تأكله من العلق واستحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ ، والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين ، وأكبر موعظة للمتعظين . وقرئ ﴿ نسقيكم ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه ، وقرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام ، ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالاً فقال : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ يعنى فى ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها ، ثم ذكر منفعة خاصة فقال : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ لما فى الأكل من عظيم الانتفاع لهم .

وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أى وعلى الأنعام ، فإن أريد بالأنعام الإبل والبقر والغنم ، فالمراد وعلى بعض الأنعام ، وهى الإبل خاصة ، وإن أريد بالأنعام الإبل خاصة فالمعنى واضح . ثم لما كانت الأنعام هى غالب ما يكون الركوب عليه فى البرّ ضمّ إليها ما يكون الركوب عليه فى البحر ، فقال : ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ تتميماً للنعمة وتكميلاً للمنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلالة : صفو الماء الرقيق الذى يكون منه الولد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إن النطفة إذا وقعت فى الرحم طارت فى [كل] (١) شعر وظفر فتمكث أربعين يوماً ، ثم تنحدر فى الرحم فتكون علقة . وللتابعين فى تفسير السلالة أقوال قد قدّمنا الإشارة إليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال : الشعر والأسنان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال : نفخ فيه الروح ، وكذا قال : مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدّى والضحّاك وابن زيد ، واختاره ابن جرير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ ثم

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من الدر المنثور ٥ / ٦ ليستقيم المعنى .

أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال : حين استوى به الشباب . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل قال : لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قال عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ قال : والذين نفسى بيده إنها ختمت بالذى تكلمت به يا عمر .

وأخرج الطيالسى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى أربع ، قلت : يا رسول الله ، لو صلينا خلف المقام ؟ فأنزل الله : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة:١٢٥] وقلت :يا رسول الله ، لو اتخذت على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البرّ والفاجر ، فأنزل الله : ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ [الأحزاب:٥٣] وقلت لأزواج النبى ﷺ: لتنتهنّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكنّ ، فنزلت : ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآية [التحريم:٥] ، ونزلت : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ فقلت أنا : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١).
وأخرج ابن راهويه وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال : أملى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ إلى قوله ﴿ خلقا آخر﴾ فقال معاذ بن جبل : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ ، مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : «بها ختمت ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ » (٢) .
وفى إسناده جابر الجعفى وهو ضعيف جداً . قال ابن كثير(٣) : وفى خبره هذا نكارة شديدة ، ذلك أن هذه السورة مكية ، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة ، والله أعلم .

وأخرج ابن مردويه والخطيب ، قال السيوطى(٤): بسند ضعيف ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « أنزل الله من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون وهو نهر الهند ، وجيحون وهو نهر بلخ ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق ، والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل ، فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض ، وجعلها منافع للناس فى أصناف معايشهم ، فذلك قوله: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل ، فرفع من الأرض القرآن والعلم ، والحجر من ركن البيت ، ومقام إبراهيم، وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله:

---

(١) الطيالسى ص ٩ ، ١٠ .
(٢) الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٥ . وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جابر الجعفى وهو ضعيف وقد وثقه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٣) ابن كثير ٥ / ١٣ ، ١٤ .
(٤) الدر المنثور ٥ / ٨ .

﴿ **وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : طور سيناء هو الجبل الذى نودى منه موسى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **تنبت بالدهن**﴾ قال : هو الزيت يؤكل ويدهن به .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح ؛ لأنه أوّل من صنعه ، وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر فى مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾ وفى ذلك تعزية لرسول الله ، وتسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه ، واللام جواب قسم محذوف ﴿ **فقال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ أى اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا كما يستفاد من الآيات الآخرة ، وجملة : ﴿**ما لكم من إله غيره** ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها ، وارتفاع ﴿ **غيره** ﴾ لكونه وصفاً لإله على

المحل ؛ لأنه مبتدأ خبره لكم ، أى مالكم فى الوجود إله غيره سبحانه ، وقرئ بالجرّ اعتباراً بلفظ إله ﴿ أفلا تتقون ﴾ أى أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذى لا يستحقّ العبادة غيره ، وليس لكم إله سواه . وقيل : المعنى : أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خوّلكم من النعم ويسلبها عنكم . وقيل : المعنى : أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم .

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أى قال أشراف قومه الذين كفروا به :﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى من جنسكم فى البشرية ، لا فرق بينكم وبينه ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره ، ثم صرّحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أى لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة ، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال ؛ لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ أى بمثل دعوى هذا المدّعى للنبوّة من البشر ، أو بمثل كلامه ، وهو الأمر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدّعى هذه الدعوى فى آبائنا الأولين ، أى فى الأمم الماضية قبل هذا . وقيل : الباء فى : ﴿ بهذا ﴾ زائدة، أى ما سمعنا هذا كائنا فى الماضين ، قالوا هذا اعتمادًا منهم على التقليد واعتصامًا بحبله . ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكذب البحت ، والبهت الصراح فقالوا : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أى جنون لا يدرى ما يقول : ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أى انتظروا به حتى يستبين أمره ، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى ، أو حتى يموت فتستريحوا منه . قال الفراء : ليس يريد بالحين هنا وقتًا بعينه إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما . فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر وإصرارهم عليه ﴿ قال رب انصرنى ﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد ، والباء فى :﴿ بما كذبون ﴾ للسببية، أى بسبب تكذيبهم إياى .

﴿ فأوحينا إليه ﴾ عند ذلك أى أرسلنا إليه رسولا من السماء ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ وأن هى مفسرة لما فى الوحى من معنى القول ﴿ بأعيننا ﴾ أى متلبسًا بحفظنا وكلاءتنا ، وقد تقدّم بيان هذا فى هـود. ومعنى ﴿ ووحينا ﴾ : أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها. والفاء فى قوله : ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك، والمراد بالأمر : العذاب ﴿وفار التنور ﴾ معطوف على الجملة التى قبله عطف النسق ، وقيل : عطف البيان ، أى إن مجىء الأمر هو فور التنور ، أى تنور آدم الصائر إلى نوح ، أى إذا وقع ذلك ﴿ فاسلك فيهامن كل زوجين اثنين ﴾ أى ادخل فيها . يقال : سلكه فى كذا أدخله وأسلكته أدخلته . قرأ حفص: ﴿ من كل ﴾ بالتنوين ، وقرأ الباقون بالإضافة ، ومعنى القراءة الأولى : من كلّ أمة زوجين ، ومعنى الثانية : من كل زوجين ، وهما أمة الذكر والأنثى اثنين . وانتصاب ﴿ أهلك ﴾ بفعل معطوف على ﴿ فاسلك ﴾ لا بالعطف على زوجين ، أو على ﴿اثنين﴾ على القراءتين لأدائه إلى اختلاف المعنى ، أى واسلك أهلك ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أى القول بإهلاكهم منهم ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم ، وجملة : ﴿ إنهم مغرقون ﴾ تعليل

للنهى عن المخاطبة ، أى إنهم مقضى عليهم بالإغراق لظلمهم ، ومن كان هكذا فهو لايستحق الدعاء له .

﴿ **فإذا استويت** ﴾ أى علوت ﴿ **أنت ومن معك** ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿ **على الفلك** ﴾ راكبين عليه ﴿ **فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾ أى حال بيننا وبينهم ، وخلصنا منهم ، كقوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٥] . وقد تقدّم تفسير هذه القصة فى سورة هود على التمام والكمال ، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزمًا ؛ لأنه قد سبق فى علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة ، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب .

ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتمّ فائدة فقال : ﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا** ﴾ أى أنزلنى فى السفينة . قرأ الجمهور : ﴿ **منزلا** ﴾ بضم الميم وفتح الزاى على أنه مصدر . وقرأ زرّ بن حبيش وأبو بكر عن عاصم والمفضل بفتح الميم وكسر الزاى على أنه اسم مكان . فعلى القراءة الأولى : أنزلنى إنزالاً مباركًا ، وعلى القراءة الثانية : أنزلنى مكانًا مباركًا ، قال الجوهرى : والمنزل بفتح الميم والزاى النزول ، وهو الحلول ، تقول : نزلت نزولا ومنزلا. قال الشاعر :

أإن ذكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل

بنصب منزلها ؛ لأنه مصدر .قيل : أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة . وقيل : عند خروجه منها، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول : ﴿ **وأنت خير المنزلين** ﴾ هذا ثناء منه على الله عزّ وجلّ إثر دعاءه له . قال الواحدى : قال المفسرون : إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك : الحمد لله ، وعند نزوله منها: ربّ أنزلنى منزلا مباركًا ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام : والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه ، والعلامات التى يستدلّ بها على عظيم شأنه ﴿ **وإن كنا لمبتلين** ﴾ أى لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم ؛ ليظهر المطيع والعاصى للناس أو للملائكة . وقيل : المعنى : أنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم ، تارة بالإرسال ، وتارة بالعذاب .

﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾ أى من بعد إهلاكهم . قال أكثر المفسرين : إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد قوم هود ، لمجىء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع ، و لقوله فى الأعراف: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقيل: هم ثمود ؛ لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة . وقد قال سبحانه فى هذه القصة : ﴿**فأخذتهم الصيحة** ﴾ وقيل : هم أصحاب مدين قوم شعيب ؛ لأنهم ممن أهلك بالصيحة ﴿**فأرسلنا فيهم رسولا** ﴾ عدى فعل الإرسال بفى مع أنه يتعدّى بإلى ؛ للدلالة على أن

هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم ، يعرفون مكانه ومولده ، ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم . وقيل : وجه التعدية للفعل المذكور بفى أنه ضمن معنى القول ، أى قلنا لهم على لسان الرسول ﴿ **اعبدوا الله** ﴾ ولهذا جيء بأن المفسرة . والأوّل أولى؛ لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفى، وجملة: ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ عذابه الذى يقتضيه شرككم .

﴿ **وقال الملأ من قومه** ﴾ أى أشرافهم وقادتهم . ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال : ﴿ **الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة** ﴾ أى كذبوا بما فى الآخرة من الحساب والعقاب ، أو كذبوا بالبعث ﴿ **وأترفناهم** ﴾ أى وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ أى قال الملأ لقومهم هذا القول ، وصفوه بمساواتهم فى البشرية ، وفى الأكل : ﴿ **مما تأكلون منه** ﴾ والشرب : ﴿ **مما تشربون** ﴾ منه ، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم . قال الفراء : إن معنى ﴿**ويشرب مما تشربون** ﴾ على حذف منه ، أى مما تشربون منه . وقيل : إن ما مصدرية ، فلا تحتاج إلى عائد .

﴿ **ولئن أطعتم بشرا مثلكم** ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ **إنكم إذا لخاسرون** ﴾ أى مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أيعدكم أنكم إذا متم** ﴾ للإنكار ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له . قرئ بكسر الميم من ﴿ **متم** ﴾ من مات يمات كخاف يخاف ، وقرئ بضمها من مات يموت ، كقال يقول . ﴿**وكنتم ترابا وعظاما** ﴾ أى كان بعض أجزائكم ترابًا ، وبعضها عظامًا نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها . وقيل : وتقديم التراب ؛ لكونه أبعد فى عقولهم . وقيل : المعنى: كان متقدّموكم ترابًا ، ومتأخروكم عظامًا ﴿ **أنكم مخرجون** ﴾ أى من قبوركم أحياء كما كنتم ، قال سيبويه : « أن » الأولى فى موضع نصب وبوقوع أيعدكم عليها، وأن الثانية بدل منها . وقال الفرّاء والجرمى والمبرّد :إن « أن » الثانية مكرّرة للتوكيد ، وحسن تكريرها لطول الكلام ، وبمثله قال الزجاج . وقال الأخفش :« أن » الثانية فى محل رفع بفعل مضمر ، أى يحدث إخراجكم كما تقول : اليوم القتال، فالمعنى : اليوم يحدث القتال .

﴿ **هيهات هيهات لما توعدون** ﴾ أى بعد ما توعدون ، أو بعيد ما توعدون ، والتكرير للتأكيد .قال ابن الأنبارى : وفى هيهات عشر لغات ثم سردها ، وهى مبينة فى علم النحو . وقد قرئ ببعضها ، واللام فى :﴿ **لما توعدون** ﴾ لبيان المستبعد كما فى قولهم : هيت لك ، كأنه قيل : لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل : لما توعدون . والمعنى : بعد إخراجكم للوعد الذى توعدون ، هذا على أن هيهات اسم فعل. وقال الزجاج: هو فى تقدير المصدر ،أى البعد لما توعدون ،أو بعد لما توعدون ،على قراءة من نوّن فتكون على هذا مبتدأ خبره:﴿ **لما توعدون**﴾ .

ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أى ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها ، وجملة : ﴿ **نموت ونحيا** ﴾ مفسرّة لما ادّعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا . ثم صرحوا بنفى البعث ، وأن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا :﴿ **وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا** ﴾ أى ما هو فيما يدّعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿ **وما نحن له بمؤمنين** ﴾ أى بمصدّقين له فيما يقوله. ﴿ **قال رب انصرنى**﴾ أى قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدّقونه البتة : ربّ انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى .

﴿ **قال عما قليل ليصبحن نادمين** ﴾ أى قال الله سبحانه مجيبًا لدعائه واعدًا بالقبول لما دعا به : عما قليل من الزمان ليصبحنّ نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر . و« ما » فى : ﴿ **عما قليل** ﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد لقلة الزمان ،كما فى قوله : ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ثم أخبر سبحانه بأنها ﴿ **أخذتهم الصيحة** ﴾ وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه . قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله بها فماتوا جميعًا . وقيل : الصيحة : هى نفس العذاب الذى نزل بهم ، ومنه قول الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة ... خرّوا لشدّتها على الأذقان

والباء فى : ﴿ **بالحق** ﴾ ماتعلق بالأخذ . ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم : فقال : ﴿ **فجعلناهم غثاء** ﴾ أى كغثاء السيل الذى يحمله : والغثاء ما يحمله ، والغثاء : ما يحمل السيل من بالى الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء . والمعنى : صيرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء ﴿ **فبعدا للقوم الظالمين** ﴾ انتصاب ﴿**بعدا**﴾ على المصدرية وهو من المصادر التى لا يذكر فعلها معها ، أى بعدوا بعدًا ، واللام لبيان من قيل له ذلك.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاسلك فيها** ﴾ يقول : اجعل معك فى السفينة ﴿ **من كل زوجين اثنين** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا** ﴾ قال لنوح حين أنزل من السفينة . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى الآية قال : يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم ، وكيف تقولون إذا نزلتم . أما عند الركوب : ﴿ فسبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف:١٣ ،١٤] ، ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ [هود : ٤١] ، وعند النزول: ﴿ **رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين** ﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **قرنا** ﴾ قال : أمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هيهات هيهات** ﴾ قال : بعيد بعيد . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **فجعلناهم غثاء** ﴾ قال : جعلوا كالشىء الميت البالى من الشجر .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾.

قوله : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أى من بعد إهلاكهم ﴿ قرونا آخرين ﴾ قيل : هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الأعراف وهود . وقيل : هم بنو إسرائيل . والقرون : الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا للقرون والإفراد فيما سبق قريبًا : أنه أراد هاهنا أممًا متعدّدة وهناك أمة واحدة . ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته فى شأن عباده فقال : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ أى ما تتقدّم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك ولا تتأخر عنها ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [النحل : ٦١] .

ثم بين سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين ، وأن شأن أممهم كان واحدًا فى التكذيب لهم فقال: ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾ والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها بمعنى : أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذى أرسل إليه ، لا على معنى أن إرسال الرسل جميعًا متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعًا ، ومعنى ﴿تترا﴾: تتواتر واحدًا بعد واحد ويتبع بعضهم بعضًا ، من الوتر وهو الفرد . قال الأصمعى : واترت كتبى عليه : أتبعت بعضها بعضًا ، إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة. وقال غيره . المتواترة المتتابعة بغير مهلة . قرأ ابن كثير وأبو عمرو: « تترى » بالتنوين على أنه مصدر. قال النحاس : وعلى هذا يجوز : « تترى » بكسر التاء الأولى ؛ لأن معنى ﴿ ثم أرسلنا ﴾ : واترنا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى متواترين ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة لمجيء كل رسول لأمته على أن المراد بالمجيء : التبليغ ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضا ﴾ أى فى الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ الأحاديث جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدّث به الناس

كالأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجب الناس منه . قال الأخفش: إنما يقال : جعلناهم أحاديث فى الشرّ ، ولا يقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثا ، أى عبرة ، وكما قال سبحانه فى آية أخرى: ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ [سبأ : ١٩] . قلت : وهذه الكلية غير مسلمة ، فقد يقال: صار فلان حديثًا حسنًا،ومنه قول ابن دريد فى مقصورته:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنًا لمن روى

﴿ **فبعدا لقوم لا يؤمنون** ﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان ، وفيما سبق قريبًا بالظلم ؛ لكون كل من الوصفين صادرًا عن كل طائفة من الطائفتين ، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا مجرّد عدم التصديق ، وأولئك ضموا إليه تلك الأقوال الشنيعة التى هى من أشد الظلم وأفظعه .

ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهارون إليهم فقال : ﴿ **ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا** ﴾ هى التسع المتقدّم ذكرها غير مرّة ، ولايصح عدّ فلق البحر منها هنا ؛ لأن المراد : الآيات التى كذبوا بها واستكبروا عنها . والمراد بالسلطان المبين : الحجة الواضحة البينة . قيل : هى الآيات التسع نفسها ، والعطف من باب :

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقيل : أراد العصى ؛ لأنها أمّ الآيات ، فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة . وقيل : المراد بالآيات : التى كانت لهما ، وبالسلطان : الدلائل . المبين : التسع الآيات ، والمراد بالملأ فى قوله : ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ : هم الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرّة ﴿**فاستكبروا** ﴾ أى طلبوا الكبر وتكلفوه فلم ينقادوا للحق ﴿ **وكانوا قوما عالين** ﴾ قاهرين للناس بالبغى والظلم ، مستعلين عليهم ، متطاولين كبرًا وعنادًا وتمردًا . وجملة : ﴿ **فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ **استكبروا** ﴾ وما بينهما اعتراض ، والاستفهام للإنكار ، أى كيف نصدق من كان مثلنا فى البشرية ؟ والبشر يطلق على الواحد كقوله : ﴿ بشرا سويا ﴾ [مريم : ١٧] كما يطلق على الجمع كما فى قوله : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا ﴾[مريم:٢٦] فتثنيته هنا هى باعتبار المعنى الأول ، وأفرد المثل لأنه فى حكم المصدر ، ومعنى ﴿**وقومهما لنا عابدون** ﴾ : أنهم مطيعون لهم منقادون لما يأمرونهم به كانقياد العبيد . قال المبرّد : العابد : المطيع الخاضع . قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان الملك :عابدًا له . وقيل : يحتمل أنه كان يدّعى الإلهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه ، واللام فى: ﴿ **لنا** ﴾ متعلقة بـ﴿**عابدون**﴾ قدّمت عليه لرعاية الفواصل ، والجملة حالية ﴿ **فكذبوهما** ﴾ أى فأصروا على تكذيبهما . ﴿ **فكانوا من المهلكين** ﴾ بالغرق فى البحر .

ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوّهم فقال : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ يعنى التوراة ، وخصّ موسى بالذكر ؛ لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور ، وكان هارون خليفته فى قومه . ﴿ **لعلهم يهتدون** ﴾ أى لعلّ قوم موسى يهتدون بها إلى الحق ،

ويعملون بما فيها من الشرائع ، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاء لقومه ؛ لأنها وإن كانت منزلة على موسى فهى لإرشاد قومه . وقيل : إن ثمّ مضافًا محذوفًا أقيم المضاف إليه مقامه ، أى آتينا قوم موسى الكتاب . وقيل : إن الضمير فى :﴿ لعلهم ﴾ يرجع إلى فرعون وملئه ، وهو وهم ؛ لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون وقومه ،كما قال سبحانه : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ [القصص : ٤٣] .

ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالا فقال : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ أى علامة تدل على عظيم قدرتنا ، وبديع صنعنا ، وقد تقدّم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء فى تفسير قوله سبحانه : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء : ٩١] . ومعنى قوله : ﴿وآويناهما إلى ربوة ﴾ إلى مكان مرتفع ، أى جعلناهما يأويان إليها. قيل: هى أرض دمشق ، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل. وقيل: بيت المقدس ، قاله قتادة وكعب. وقيل : أرض فلسطين ، قاله السدّى .﴿ ذات قرار ﴾ أى ذات مستقرّ يستقرّ عليه ساكنوه ﴿ومعين ﴾ أى وماء معين . قال الزجاج : هو الماء الجارى فى العيون ، فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى منبع . وقيل: هو فعيل بمعنى مفعول. قال علىّ بن سليمان الأخفش: معن الماء : إذا جرى فهو معين وممعون ، وكذا قال ابن الأعرابى . وقيل : هو مأخوذ من الماعون ، وهو النفع ، وبمثل ما قاله الزجاج قال الفراء .

﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ قال الزجاج : هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ . ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبىّ ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها ، فيكون المعنى : وقلنا : يأيها الرسل ، خطابًا لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم . وقال ابن جرير : إن الخطاب لعيسى . وقال الفراء : هو كما تقول للرجل الواحد : كفوا عنا . و﴿ الطيبات ﴾ : ما يستطاب ويستلذّ . وقيل : هى الحلال . وقيل : هى ما جمع الوصفين المذكورين . ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال : ﴿ واعملوا صالحا ﴾ أى عملا صالحًا وهو ما كان موافقًا للشرع ، ثم علل هذا الأمر بقوله : ﴿ إنى بما تعملون عليم ﴾ لا يخفى علىّ شىء منه ، وإنى مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيرًا فخير ، وإن شرا فشرّ .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء ، والمعنى : أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه ، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وقيل : المعنى : إن هذا الذى تقدّم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالأمة هنا : الدين ، كما فى قوله : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

قرئ بكسر :« إن » على الاستئناف المقرّر لما تقدّمه ، وقرئ بفتحها وتشديدها . قال الخليل : هى فى موضع نصب لما زال الخافض ، أى أنا عالم بأن هذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : إن متعلقة بفعل مضمر ، وتقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وقال سيبويه : هى متعلقة بـ﴿ اتقون ﴾ والتقدير : فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة ، والفاء فى : ﴿فاتقون ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختصّ بالربوبية ، أى لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه .

ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال : ﴿ **فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا** ﴾ والفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى ، والضمير يرجع إلى ما يدلّ عليه لفظ الأمة ، والمعنى : أنهم جعلوا دينهم مع اتحاده قطعًا متفرّقة مختلفة . قال المبرّد : زبرًا : فرقًا وقطعًا مختلفة ، واحدها زبور ، وهى الفرقة والطائفة ، ومثله : الزبرة وجمعها زبر ، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا فاتبعت فرقة التوراة ، وفرقة الزبور ، وفرقة الإنجيل ثم حرّفوا وبدّلوا ، وفرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال . قرئ : ﴿**زبرا** ﴾ بضم الباء جمع زبور ، وقرئ بفتحها ، أى قطعًا كقطع الحديد ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ أى كل فريق من هؤلاء المختلفين ﴿ **بما لديهم** ﴾ أى بما عندهم من الدين ﴿ **فرحون**﴾ أى معجبون به .

﴿ **فذرهم فى غمرتهم حتى حين** ﴾ أى اتركهم فى جهلهم ، فليسوا بأهل للهداية ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكلّ شىء وقت . شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذى يغمر من دخل فيه . والغمرة فى الأصل : ما يغمرك ويعلوك ، وأصله : الستر . والغمر: الماء الكثير ؛ لأنه يغطى الأرض ، وغمر الرداء هو الذى يشمل الناس بالعطاء ، ويقال للحقد : الغمر ، والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة ، والآية خارجة مخرج التهديد لهم ، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكفّ عنهم ،ومعنى ﴿ **حتى حين** ﴾:حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أوحتى يموتوا على الكفر فيعذّبون فى النار .

﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين** ﴾ أى أيحسبون إنما نعطيهم فى هذه الدنيا من الأموال والبنين . ﴿**نسارع**﴾ به ﴿ **لهم** ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم ، والهمزة للإنكار ، والجواب عن هذا مقدّر يدلّ عليه قوله : ﴿ **بل لا يشعرون** ﴾ لأنه عطف على مقدر ينسحب إليه الكلام ، أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشىء أصلاً كالبهائم التى لا تفهم ولا تعقل ، فإن ما خولّناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثما، كما قال سبحانه : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ [آل عمران : ١٧٨] . قال الزجاج : المعنى : نسارع لهم به فى الخيرات ، فحذفت به ، و« ما » فى : ﴿**إنما** ﴾ موصولة ، والرابط هو هذا المحذوف . وقال الكسائى : إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط. قيل : يجوز الوقف على بنين . وقيل : لا يحسن ؛ لأن يحسبون يحتاج إلى مفعولين ، فتمام

المفعولين فى الخيرات . قال ابن الأنبارى: وهذا خطأ ؛ لأن « ما » كافة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وعبد الرحمن بن أبى بكرة : « يسارع » بالياء التحتية على أن فاعله ما يدّل عليه أمددنا، وهو الإمداد ، ويجوز أن يكون المعنى : يسارع الله لهم . وقرأ الباقون : ﴿**نسارع**﴾ بالنون . قال الثعلبى : وهذه القراءة هى الصواب لقوله: ﴿ **نمدهم** ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترا** ﴾ قال : يتبع بعضهم بعضًا . وفى لفظ قال : بعضهم على إثر بعض . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** ﴾ قال : ولدته من غير أب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ﴿**آية**﴾ قال : عبرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وآويناهما إلى ربوة** ﴾ قال: الربوة : المستوية ، والمعنى : الماء الجارى ، وهو النهر الذى قال الله : ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ [مريم : ٢٤]. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وآويناهما إلى ربوة** ﴾ قال: هى المكان المرتفع من الأرض ،وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿**ذات قرار**﴾: ذات خصب . والمعين : الماء الظاهر . وأخرج وكيع والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وتمام الرازى وابن عساكر ، قال السيوطى: بسند صحيح ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلى ربوة** ﴾ قال : أنبئنا أنها دمشق . وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله . وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عنه. وأخرج ابن عساكر عن أبى أمامة مرفوعًا نحوه ، وإسناده ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وابن عساكر عن مرة البهزى (١)، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الربوة الرملة » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم فى الكنى ، وابن عساكر عن أبى هريرة قال :هى الرملة من فلسطين .وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعًا . وأخرج الطبرانى وابن السكن وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن الأقرع بن شفى العكى مرفوعًا نحوه .

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ وقال :﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[البقرة : ١٧٢] » ثم ذكر :« الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمدّ يديه إلى السماء : ياربّ ياربّ، فأنى يستجاب لذلك » (٣) .وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزارى فى قوله : ﴿**يأيها الرسل**

---

(١) فى المطبوعة : « النهزى » ، والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير والدر المنثور ، وعند الهيثمى : « الزهرى » .
(٢) ابن جرير ١٨ / ٢٠ . وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم».
(٣) أحمد ٢ / ٣٢٨ ومسلم فى الزكاة (١٠١٥ / ٦٥) والدارمى فى الرقاق ٢ / ٣٠٠ .

كلوا من الطيبات ﴾ قال : ذلك عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه . وأخرجه عبدان فى الصحابة عن حفص مرفوعًا ، وهو مرسل ؛ لأن حفصًا تابعى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلا فوصفهم بصفات أربع : الأولى : قوله : **﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** الإشفاق : الخوف ، تقول : أنا مشفق من هذا الأمر ، أى خائف . قيل : الإشفاق هو الخشية ، فظاهر ما فى الآية التكرار. وأجيب بحمل الخشية على العذاب ، أى من عذاب ربهم خائفون ، وبه قال الكلبى ومقاتل . وأجيب أيضًا بحمل الإشفاق على ما هو أثر له: وهو الدوام على الطاعة ، أى الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته . وأجيب أيضًا بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار . وقيل: هو تكرار للتأكيد . والصفة الثانية : قوله : **﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾** قيل : المراد بالآيات : هى التنزيلية . وقيل: هى التكوينية . وقيل : مجموعهما . قيل : وليس المراد بالإيمان بها :هو التصديق بوجودها فقط ، فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح ، بل المراد: التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق . والصفة الثالثة : قوله : **﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾** أى يتركون الشرك تركًا كليًا ظاهرًا وباطنًا . والصفة الرابعة : قوله: **﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾** أى يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وجملة : **﴿ وقلوبهم وجلة ﴾** فى محل نصب على الحال، أى والحال أن قلوبهم خائفة أشدّ الخوف . قال الزجاج : قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون ، وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب ، لامجرّد رجوعهم إليه سبحانه . وقيل : المعنى : أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أن المجازى والمحاسب هو الربّ الذى لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل . وقرأت عائشة وابن عباس والنخعى: « يأتون ما أتوا » مقصورًا من الإتيان. قال الفراء : ولو صحت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن من

العرب من يلزم فى الهمز الألف فى كل الحالات . قال النحاس : معنى هذه القراءة : يعملون ما عملوا .

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات ، ومعنى ﴿ **يسارعون فى الخيرات** ﴾ : يبادرون بها . قال الفراء والزجاج : ينافسون فيها . وقيل : يسابقون ، وقرئ : « يسرعون » . ﴿ **وهم لها سابقون** ﴾ اللام للتقوية ، والمعنى : هم سابقون إياها . وقيل : اللام بمعنى إلى ،كما فى قوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : ٥] . أى أوحى إليها، وأنشد سيبويه قول الشاعر :

تجانف عن أهل اليمامة ناقتى [1] ... وما قصدت من أهلها لسوائكا

أى إلى سوائكا . وقيل : المفعول محذوف ، والتقدير : وهم سابقون الناس لأجلها . ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر أعمال المكلفين ذكر لهما حكمين : الأوّل : قوله : ﴿ **ولا نكلف نفسا إلا وسعها** ﴾ الوسع هو : الطاقة ، وقد تقدم بيان هذا فى آخر سورة البقرة . وفى تفسير الوسع قولان : الأول : أنه الطاقة ، كما فسره بذلك أهل اللغة. والثانى : أنه دون الطاقة ، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبى . والمعتزلة قالوا : لأن الوسع إنما سمى وسعًا ؛ لأنه يتسع على فاعله فعله ولا ضيق عليه ، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء ، ومن لم يستطع الصوم فليفطر . وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدّى إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حدّ الوسع والطاقة ، وأن ذلك عادة الله سبحانه فى تكليف عباده ، وجملة : ﴿ **لدينا كتاب ينطق بالحق** ﴾ من تمام ما قبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع . والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هى عليه ، ومعنى ﴿ **ينطق بالحق** ﴾ : يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة ولا نقص ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية : ٢٩] وفى هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم . وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، فإنه قد كتب فيه كل شيء . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، والأول أولى . وفى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق، وقوله : ﴿**بالحق** ﴾ يتعلق بـ ﴿ **ينطق** ﴾ أو بمحذوف هو حال من فاعله ، أى ينطق ملتبسًا بالحق ، وجملة : ﴿**وهم لا يظلمون** ﴾ مبينة لما قبلها من تفضله وعدله فى جزاء عباده ، أى لا يظلمون بنقص ثواب أوبزيادة عقاب ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال : ﴿ **بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾ والضمير للكفار ،

(١) فى المطبوعة : « تجانف عن أهل اليمامة يافتى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أى بل قلوب الكفار فى غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذى ينطق بالحق ، أو عن الأمر الذى عليه المؤمنون ، يقال : غمره الماء : إذا غطاه ، ونهر غمر : يغطى من دخله ، والمراد بها هنا: الغطاء والعمه أو الحيرة والعمى ، وقد تقدّم الكلام على الغمرة قريبًا ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لابدّ أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى: ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لابدّ أن يعملوها فيدخلون بها النار ، فالإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إما إلى أعمال المؤمنين ، أو إلى أعمال الكفار ، أى لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله ، أومن دون أعمال الكفار التى تقدّم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن . قال الواحدى : إجماع المفسرين وأصحاب المعانى على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لابدّ لهم أن يعملوها ، وجملة : ﴿ **هم لها عاملون** ﴾ مقرّرة لما قبلها ، أى واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة لامحيص لهم عن ذلك .

ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال :﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب** ﴾ حتى هذه هى التى يبتدئ بعدها الكلام ،والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة ،وهذه الجملة مبينة لما قبلها، والضمير فى : ﴿ **مترفيهم** ﴾ راجع إلى من تقدّم ذكره من الكفار . والمراد بالمترفين : المتنعمين منهم ، وهم الذين أمدّهم الله بما تقدّم ذكره من المال والبنين ، أوالمراد بهم الرؤساء منهم . والمراد بالعذاب هو : عذابهم بالسيف يوم بدر ، أو بالجوع بدعاء النبىّ ﷺ عليهم حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » (١) . وقيل : المراد بالعذاب : عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن مايقع منهم من الجؤار إنما يكون عند عذاب الآخرة ؛ لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا فى سنى الجوع . ويجاب عنه بأن الجؤار فى اللغة : الصراخ والصياح . قال الجوهرى : الجؤار مثل الخوار . يقال : جأر الثور يجأر، أى صاح ، وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عندما عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع فى سنى الجوع ، وليس الجؤار ها هنا مقيد بالجؤار الذى هو التضرّع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل ، وجملة : ﴿ **إذا هم يجأرون** ﴾ جواب الشرط ، وإذا هى الفجائية، والمعنى : حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤوا بالصراخ .

ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت: ﴿ **لا تجأروا اليوم** ﴾ فالقول مضمر، والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم ، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعًا واقع على مترفيهم وغير مترفيهم ؛ لبيان أنهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها ، فانتقلوا من النعيم التامّ إلى الشقاء الخالص ، وخصّ اليوم بالذكر للتهويل ، وجملة : ﴿ **إنكم منا لا تنصرون** ﴾ تعليل للنهى عن الجؤار ، والمعنى :

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٨٦) عن أبى هريرة .

إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم . وقيل المعنى : إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب .

ثم عدّد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخًا لهم فقال : ﴿ **قد كانت آياتى تتلى عليكم** ﴾ أى فى الدنيا ؛ وهى آيات القرآن ﴿ **فكنتم على أعقابكم تنكصون** ﴾ أى ترجعون وراءكم ، وأصل النكوص : أن يرجع القهقرى، ومنه قول الشاعر :

زعموا أنهم على سبل الحق   وأنا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق ، وقرأ على بن أبى طالب : « على أدباركم » بدل: ﴿ **على أعقابكم تنكصون** ﴾ بضم الكاف ، وعلى أعقابكم متعلق بـ ﴿ **تنكصون** ﴾ أو متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تنكصون ﴿ **مستكبرين به** ﴾ الضمير فى : ﴿ **به** ﴾ راجع إلى البيت العتيق . وقيل : للحرم ، والذى سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم وخدّامه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين. وقيل : الضمير عائد إلى القرآن ، والمعنى : أن سماعه يحدث لهم كبرًا وطغيانًا فلا يؤمنون به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . وقال النحاس : القول الأوّل أولى وبينه بما ذكرنا . فعلى القول الأوّل يكون ﴿**به**﴾ متعلقًا بـ ﴿ **مستكبرين** ﴾ ، وعلى الثانى يكون متعلقًا بـ ﴿ **سامرا** ﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ، والسامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع . قال الواحدى: السامر : الجماعة يسمرون بالليل ، أى يتحدثون ،ويجوز أن يتعلق ﴿ **به** ﴾ بقوله : ﴿ **تهجرون** ﴾ والهجر بالفتح : الهذيان ، أى تهذون فى شأن القرآن ، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم ، وهو الفحش . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو حيوة : « سمرا » بضم السين وفتح الميم مشدّدة، وقرأ زيد بن علىّ وأبو رجاء: « سمارا » ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وانتصاب ﴿ **سامرا** ﴾ على الحال ، إما من فاعل ﴿**تنكصون** ﴾ أو من الضمير فى: ﴿ **مستكبرين** ﴾ وقيل : هو مصدر جاء على لفظ الفاعل ، يقال:قوم سامر ،ومنه قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال الراغب : ويقال : سامر وسمار، وسمر وسامرون . قرأ الجمهور:﴿ **تهجرون** ﴾ بفتح التاء المثناة من فوق وضم الجيم . وقرأ نافع وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أهجر ، أى أفحش فى منطقه. وقرأ زيد بن على وابن محيصن وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشدّدة مضارع هجر بالتشديد . وقرأ ابن أبى عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية ، وفيه التفات .

وقد أخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة ، وابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،

والبيهقى فى الشعب عن عائشة قالت : قلت : يارسول الله ، قول الله : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : « لا ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه » (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير ، وابن الأنبارى فى المصاحف (٢) وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قالت عائشة : يارسول الله ، فذكر نحوه (٣) . وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ قال : يعطون ما أعطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وقلوبهم وجلة** ﴾ قال : يعملون خائفين . وأخرج الفريابى وابن جرير عن ابن عمر ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ قال : الزكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عائشة : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ قالت : هم الذين يخشون الله ويطيعونه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبى مليكة قال : قالت عائشة : لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبّ إلىّ من حمر النعم ، فقال لها ابن عباس : ما هى؟ قالت : ﴿ **الذين يؤتون ما أتوا** ﴾ وقد قدّمنا ذكر قراءتها ومعناها. وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عنها عن النبىّ ﷺ أنه قرأ : ﴿ **والذين يؤتون ما أتوا** ﴾ مقصورًا من المجىء. وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى شيبة، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والدارقطنى فى الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عبيد بن عمير ؛ أنه سأل عائشة : كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ **والذين يؤتون ما أتوا** ﴾ ؟ قالت : أيتهما أحبّ إليك . قلت : والذى نفسى بيده لأحدهما أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها جميعًا ، قالت : أيهما ؟ قلت : « الذين يأتون ما آتوا » فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كذلك ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرّف. وفى إسناده إسماعيل بن علىّ وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ قال : سبقت لهم السعادة من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾ يعنى بالغمرة الكفر والشك ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾ يقول : أعمال سيئة دون الشرك ﴿ **هم لها عاملون** ﴾ قال : لابدّ لهم أن يعملوها . وأخرج النسائى عنه :﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب** ﴾ قال: هم أهل بدر (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **إذا هم يجأرون** ﴾

---

(١) أحمد ٦/١٥٩ والترمذى فى التفسير (٣١٧٥) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٨) وابن جرير ١٨/٢٦ وصححه الحاكم ٢/٣٩٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٤٧) وإسناده منقطع ورجاله ثقات غير أحمد بن عبد الجبار العطارى فقد ضعفه الحافظ فى التقريب ١/١٩ (٧٥).

(٢) فى المخطوطة زيادة : « وابن جرير » والصحيح حذفها كما فى الدر المنثور ٥/١١ .

(٣) ابن جرير ١٨/٢٦ .

(٤) أى من كفار قريش .

قال: يستغيثون ، وفي قوله : ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ قال : تدبرون ، وفي قوله : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ قال : تسمرون حول البيت وتقولون هجرًا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ﴿ مستكبرين به ﴾ قال : بحرم الله أنه لا يظهر عليهم فيه أحد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضًا : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ قال : كانت قريش يتحلقون حلقًا يتحدّثون حول البيت . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون﴾ قال : كان المشركون يهجرون برسول الله ﷺ في القول في سمرهم[1] . وأخرج النسائي وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية :﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾[2] .

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٨٣) ﴾ .

قوله : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة : الأوّل : عدم التدبر في القرآن ، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر صدقه وآمنوا به وبما فيه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدّر ، أي فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا ، والمراد

(١) الطبراني (١١٠٨٩) وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٧٦: « فيه يحيى بن سلمة بن كهيل وهو ضعيف وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال في رواية ابنه إبراهيم عنه مناكير . قلت : وهذا منها ».

(٢) النسائي في التفسير ٣٧١ وإسناده حسن ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبي .

بالقول : القرآن ، ومثله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [النساء: ٨٢، محمد : ٢٤] . والثاني: قوله: ﴿**أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين**﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل جاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأوّلين ، فكان ذلك سببًا لاستنكارهم للقرآن ، والمقصود : تقرير أنه لم يأت آباءهم الأوّلين رسول ؛ فلذلك أنكروه ، ومثله قوله : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم﴾ [يس : ٦] . وقيل : إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم الله إليهم ، كما هى سنة الله سبحانه فى إرسال الرسل إلى عباده ، فقد عرف هؤلاء ذلك ، فكيف كذبوا هذا القرآن؟ وقيل : المعنى : أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل ومن بعده . والثالث: قوله : ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾ وفى هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدّم إلى التوبيخ بوجه آخر ، أى بل ألم يعرفوه بالأمانة والصدق فأنكروه ، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك . والرابع : قوله: ﴿ **أم يقولون به جنة** ﴾ وهذا أيضًا انتقال من توبيخ إلى توبيخ ، أى بل أتقولون به جنة ، أى جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبًا وحمية . ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال : ﴿ **بل جاءهم بالحق** ﴾ أى ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن والرسول ، بل جاءهم ملتبسًا بالحق . والحق هو : الدين القويم :﴿ **وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب ، والانحراف عن الصواب ، والبعد عن الحق ، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر ، وظاهر النظم أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ، ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفًا من الكارهين له .

وجملة : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لوجاء الحق على ما يهوونه ويريدونه لكان ذلك مستلزمًا للفساد العظيم ، وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية ، وهو معنى قوله : ﴿ **لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾ قال أبو صالح وابن جريج ومقاتل والسدّى : الحق : هو الله ، والمعنى : لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكا لفسدت السموات والأرض . وقال الفراء والزجاج : يجوز أن يكون المراد بالحق : القرآن ، أى لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم . وقيل : المعنى : ولو كان الحق ما يقولون من اتحاد الآلهة مع الله لاختلفت الآلهة ، ومثل ذلك قوله: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . وقد ذهب إلى القول الأوّل الأكثرون ، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو : الحق المذكور قبله فى قوله : ﴿ **بل جاءهم بالحق** ﴾ ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله سبحانه ، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك :بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله ، والمعنى : ولو ورد الحق متابعًا لأهوائهم موافقًا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد ، والمراد بقوله : ﴿ **ومن فيهن** ﴾ من فى السموات والأرض من المخلوقات . وقرأ ابن مسعود : « وما بينهما » وسبب فساد المكلفين من بنى آدم ظاهر ، وهو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق ، وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع ؛ لأنهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول فلما فسدوا فسدوا .

ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال : ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ والمراد بالذكر هنا : القرآن ، أى بالكتاب الذى هو فخرهم وشرفهم ، ومثله قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] والمعنى : بل آتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوه ، ويقبلوا عليه. وقال قتادة: المعنى : بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم . وقيل : المعنى : بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر:« أتيتهم » بتاء التكلم. وقرأ أبو حيوة والجحدرى : « أتيتهم » بتاء الخطاب ، أى أتيتهم يامحمد. وقرأ عيسى بن عمر :« بذكراهم » . وقرأ قتادة : « نذكرهم » بالنون والتشديد من التذكير ، وتكون الجملة على هذه القراءة فى محل نصب على الحال . وقيل : الذكر هو : الوعظ والتحذير ﴿ **فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ أى هم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم معرضون لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال ، وفى هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره.

ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ ليست مشبوهة بأطماع الدنيا فقال : ﴿ **أم تسألهم خرجا** ﴾ و« أم » هى المنقطعة ، والمعنى : أم يزعمون أنك تسألهم خرجا تأخذه على الرسالة ، والخرج: الأجر والجعل ، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك ، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿ **فخراج ربك خير** ﴾ أى فرزق ربك الذى يرزقك فى الدنيا ، وأجره الذى يعطيكه فى الآخرة خير لك مما ذكر . قرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب : « أم تسألهم خراجا » ، وقرأ الباقون : ﴿ **خرجا** ﴾ وكلهم قرؤوا :﴿ **فخراج** ﴾ إلا ابن عامر وأبا حيوة فإنهما قرآ : « فخرج » بغير ألف. والخرج : هو الذى يكون مقابلا للدخل، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك : خرجا ، والخراج غالب فى الضريبة على الأرض. قال المبرد : الخرج : المصدر ، والخراج : الاسم ، قال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك ، والخرج ما تبرعت به . وروى عنه أنه قال : الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض ﴿ **وهو خير الرازقين** ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خير .

ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال : ﴿ **وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم** ﴾ أى إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غيرمعوجة، والصراط فى اللغة : الطريق، فسمى الدين طريقًا لأنها تؤدى إليه . ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال : ﴿ **وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون** ﴾ يقال : نكب عن طريق ينكب نكوبًا : إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، والنكوب والنكب: العدول والميل ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك؛لعدولها عن المهابّ ، و﴿ **عن الصراط** ﴾ متعلق بـ﴿ **ناكبون** ﴾ والمعنى : أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أوجنس الصراط لعادلون عنه .

ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال : ﴿ **ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر** ﴾ أى من قحط وجدب ﴿ **للجوا فى طغيانهم** ﴾ أى لتمادوا فى طغيانهم وضلالهم ﴿ **يعمهون** ﴾ يتردّدون ويتذبذبون ويخبطون. وأصل اللجاج : التمادى فى العناد ، ومنه اللجة بالفتح لتردّد الصوت ، ولجة البحر : تردّد أمواجه ، ولجة الليل : تردّد ظلامه . وقيل : المعنى : رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا فى طغيانهم .

﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب** ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها . والعذاب قيل : هو الجوع الذى أصابهم فى سنى القحط . وقيل : المرض . وقيل : القتل يوم بدر ، واختاره الزجاج . وقيل : الموت . وقيل : المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية ﴿ **فما استكانوا لربهم** ﴾ أى ما خضعوا ولا تذللوا ، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على الله والانهماك فى معاصيه ﴿ **وما يتضرعون** ﴾ أى وما يخشعون للّه فى الشدائد عند إصابتها لهم ، ولا يدعونه لرفع ذلك ﴿ **حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد** ﴾ قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : قتلهم يوم بدر بالسيف . وقيل : القحط الذى أصابهم . وقيل : فتح مكة ﴿ **إذا هم فيه مبلسون** ﴾ أى متحيرون ، لا يدرون ما يصنعون . والإبلاس : التحير والإياس من كل خير . وقرأ السلمى : « مبلسون » بفتح اللام من أبلسه ، أى أدخله فى الإبلاس . وقد تقدّم فى الأنعام .

﴿ **وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار** ﴾ امتنّ عليهم ببعض النعم التى أعطاهم ، وهى نعمة السمع والبصر ﴿ **والأفئدة** ﴾ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشىء من ذلك لإصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق ، ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال : ﴿ **قليلا ما تشكرون** ﴾ أى شكرًا قليلاً حقيرًا غير معتدّ به باعتبار تلك النعم الجليلة . وقيل : المعنى : أنهم لا يشكرونه البتة ، لا أن لهم شكرًا قليلاً . كما يقال لجاحد النعمة : ما أقلّ شكره ، أى لا يشكره ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ﴿ **وهو الذى ذرأكم فى الأرض** ﴾ أى بثكم فيها كما تبث الحبوب لتنبت ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم .

﴿ **وهو الذى يحيى ويميت** ﴾ على جهة الانفراد والاستقلال،وفى هذا تذكير لنعمة الحياة ، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ﴿ **وله اختلاف الليل والنهار** ﴾ قال الفراء : هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض. وقيل : اختلافهما : نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : تكرّرهما يومًا بعد يوم وليلة بعد ليلة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ كنه قدرته وتتفكرون فى ذلك . ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم فى إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبنىّ على مجرد الاستبعاد فقال : ﴿ **بل قالوا مثل ما قال الأولون** ﴾ أى آباؤهم والموافقون لهم فى دينهم . ثم بين ما قاله الأوّلون فقال : ﴿ **قالوا أئذا كنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾

فهذا مجرّد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه . ثم كملوا ذلك القول بقولهم : ﴿ **لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل** ﴾ أى وعدنا هذا البعث ووعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدّقه كما لم يصدقه من قبلنا ، ثم صرّحوا بالتكذيب وفرّوا إلى مجرد الزعم الباطل فقالوا : ﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما هذا إلا أكاذيب الأوّلين التى سطروها فى الكتب جمع أسطورة كأحدوثة ، والأساطير: الأباطيل والترهات والكذب .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله : ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم** ﴾ قال : عرفوه ولكنهم حسدوه . وفى قوله : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم** ﴾ قال : الحق : الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ قال : بينا لهم ، وأخرجوا عنه فى قوله : ﴿ **عن الصراط لناكبون** ﴾ قال : عن الحقّ لحائدون . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان إلى النبى ﷺ فقال يا محمد أنشدك الله والرحم ، فقد أكلنا العلهز ، يعنى الوبر بالدم، فأنزل الله :﴿**ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون**﴾[1] ، وأصل الحديث فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال:« اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » الحديث [2] .

وأخرج ابن جرير ، وأبو نعيم فى المعرفة، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفى لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة ، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : « بلى » . قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فأنزل الله : ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب** ﴾ الآية [3] . وأخرج العسكرى فى المواعظ عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾ قال : أى لم يتواضعوا فى الدعاء ولم يخضعوا ، ولو خضعوا لله لاستجاب لهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد**﴾ قال : قد مضى ، كان يوم بدر .

﴿ **قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥)**
قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٧٢) وابن جرير ١٨/ ٣٤ والطبرانى (١٢٠٣٨) وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٨١ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٩٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨ / ٤٠) .

(٣) ابن جرير ١٨/ ٣٤ والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٨١ .

مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها ، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها** ﴾ أى قل يامحمد لأهل مكة هذه المقالة ، والمراد بمن فى الأرض الخلق جميعًا ، وعبر عنهم بمن تغليبا للعقلاء ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ شيئا من العلم ، وجواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم تعلمون فأخبرونى . وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم . ﴿ **سيقولون لله** ﴾ أى لابدّ لهم أن يقولوا ذلك ؛ لأنه معلوم ببديهة العقل . ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم : ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ ترغيبًا لهم فى التدبر وإمعان النظر والفكر ، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل ؛ لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى .

﴿ **قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله** ﴾ جاء سبحانه باللام نظرًا إلى معنى السؤال، فإن قولك : من ربه ، ولمن هو فى معنى واحد ، كقولك : من ربّ هذه الدار ؟ فيقال : زيد ، ويقال : لزيد . وقرأ أبو عمرو وأهل العراق : « سيقولون الله » بغير لام نظرًا إلى لفظ السؤال ، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام ، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون ألف ، وهكذا قرأ الجمهور فى قوله: ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله** ﴾ باللام نظرا إلى معنى السؤال كما سلف . وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظرًا إلى لفظ السؤال ، ومثل هذا قول الشاعر :

إذ قيل من ربّ المزالف والقرى ورَبُّ الجياد الجرد قيل لخالد

أى لمن المزالف . والملكوت : الملك ، وزيادة التاء للمبالغة ، ونحو جبروت ورهبوت ، ومعنى ﴿ **وهو يجير** ﴾: أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿ **ولا يجار عليه** ﴾ أى لا يمنع أحد أحدًا من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته ، يقال : أجرت فلانًا : إذا استغاث بك فحميته ، وأجرت عليه : إذا حميت عنه ﴿ **قل فأنى تسحرون** ﴾ قال الفراء والزجاج : أى تصرفون عن

الحق وتخدعون ، والمعنى : كيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسدًا ؟ والخادع لهم : هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما .

ثم بين سبحانه أنه قد بالغ فى الاحتجاج عليهم فقال : ﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ أى الأمر الواضح الذى يحقّ اتباعه ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله** ﴾ « من » فى الموضعين زائدة لتأكيد النفى. ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدّعيه الكفار من إثبات الشريك، فقال : ﴿ **إذا لذهب كل إله بما خلق** ﴾ وفى الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبدّ به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ أى غلب القوىّ على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بنى آدم وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهًا ، وإذا تقرّر عدم إمكان المشاركة فى ذلك ،وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دلّ على نفى الشريك فإنه يدلّ على نفى الولد ؛ لأن الله عزّ وجل ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى هو مختصّ بعلم الغيب والشهادة ، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب . قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى : ﴿ **عالم** ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو عالم ، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه صفة لله أو بدل منه . وروى عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ ﴿ **فتعالى** ﴾ الله ﴿ **عما يشركون** ﴾ معطوف على معنى ما تقدّم كأنه قال : علم الغيب فتعالى ، كقولك : زيد شجاع فعظمت منزلته ، أى شجع فعظمت ، أو يكون على إضمار القول ، أى أقول : فتعالى الله ، والمعنى : أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك فى الملك .

﴿ **قل رب إما تريني ما يوعدون** ﴾ أى إن كان ولابدّ أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم . ﴿ **رب فلا تجعلني في القوم الظالمين** ﴾ أى قل : ياربّ فلا تجعلنى . قال الزجاج: أى إن أنزلت بهم النقمة ياربّ فاجعلنى خارجًا عنهم، ومعنى كلامه هذا : أن النداء معترض ، و « ما » فى :﴿ **إما** ﴾ زائدة ، أى قل ربّ إن ترينى ، والجواب : ﴿ **فلا تجعلني**﴾ وذكر الربّ مرتين مرة قبل الشرط ، ومرة بعده مبالغة فى التضرّع . وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله فى القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبدًا ، تعليمًا له ﷺ من ربه كيف يتواضع ؟ وقيل : يهضم نفسه،أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله ، كقوله: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب ويسخرون من النبىّ ﷺ إذا ذكر لهم ذلك ، أكد سبحانه وقوعه بقوله: ﴿ **وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون** ﴾ أى أن الله سبحانه قادر على أن يرى رسوله عذابهم ، ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن ، أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم . وقيل : قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة . ثم أمره

سبحانه بالصبر إلى أن ينقضى الأجل المضروب للعذاب فقال : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة**﴾ أى ادفع بالخصلة التى هى أحسن من غيرها وهى الصفح والإعراض عما يفعله الكافر من الخصلة السيئة وهى الشرك . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف . وقيل : هى محكمة فى حقّ هذه الأمة فيما بينهم ، منسوخة فى حق الكفار ﴿ **نحن أعلم بما يصفون** ﴾ أى ما يصفونك به مما أنت على خلافه ، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب ، وفى هذا وعيد لهم بالعقوبة .

ثم علمه سبحانه ما يقوّيه على ما أرشده إليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال: ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين** ﴾ الهمزات جمع همزة ، وهى فى اللغة : الدفعة باليد أو بغيرها ، وهمزات الشياطين :نزغاتهم ووساوسهم كما قاله المفسرون ، يقال : همزه ولمزه ونخسه ، أى دفعه . وقيل : الهمز :كلام من وراء القفا، واللمز : المواجهة، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوّذ من الشيطان . ومن همزات الشياطين : سورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفسه . ﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ أمره سبحانه أن يتعوّذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ، والمعنى : أعوذ بك أن يكونوا معى فى حال من الأحوال ، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف عن الخير . وفى قراءة أبىّ : « وقل ربّ عائذا بك من همزات الشياطين . وعائذًا بك ربّ أن يحضرون » .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء** ﴾ قال : خزائن كل شىء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه: ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة** ﴾ يقول : أعرض عن أذاهم إياك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾ قال : بالسلام . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن أنس فى قوله: ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة** ﴾ قال : قول الرجل لأخيه ما ليس فيه ، فيقول : إن كنت كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لى .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهنّ عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون »(١) . قال : فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيرًا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها

---

(١) أحمد ٢/ ١٨١ وأبو داود فى الطب (٣٨٩٣) والترمذى فى الدعوات (٣٥٢٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٠١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

فى عنقه . وفى إسناده محمد بن إسحاق ، وفيه مقال معروف . وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : يارسول الله ، إنى أجد وحشة ، قال : « إذا أخذت مضجعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يحضرك »وبالحرىّ لا يضرّك (١) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) ﴾ .

« حتى » هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله: ﴿ **لكاذبون** ﴾ وقيل : بـ ﴿ **يصفون** ﴾ . والمراد بمجيء الموت : مجيء علاماته ﴿ **قال رب ارجعون** ﴾ أى قال ذلك الواحد الذى حضره الموت تحسرًا وتحزنًا على ما فرط منه : ربّ ارجعون ، أى ردونى إلى الدنيا ، وإنما قال: ارجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب. وقيل: هو على معنى تكرير الفعل ، أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى ، ومثله قوله : ﴿ ألقيا فى جهنم ﴾ [ق :٢٤] قال المازنى : معناه : ألق ألق ، وهكذا قيل فى قول امرئ القيس :

(١) أحمد ٦/٦ وقال الهيثمى فى المجمع ١٢٦/١٠ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن يحيى ابن حبان لم يسمع من الوليد بن الوليد ».

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ومنه قول الحجاج :

يا حرسى اضربا عنقه

ومنه قول الشاعر :

ولو شئت حرمت النساء سواكم

وقول الآخر :

ألا فارحمونى يا إله محمد

وقيل : إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم : ربّ ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ﴿ارجعون .لعلى أعمل صالحا﴾ أى أعمل عملاً صالحًا فى الدنيا إذا رجعت إليها من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير ، ولما تمنى أن يرجع ليعمل ردّ الله عليه ذلك بقوله : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ فجاء بكلمة الردع والزجر ، والضمير فى :﴿ إنها ﴾ يرجع إلى قوله : ﴿ رب ارجعون ﴾ أى أن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة ، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا ، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء ، كما فى قوله : ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ قائلها ﴾ يرجع إلى الله ، أى لا خلف فى خبره ، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ أى من أمامهم وبين أيديهم. والبرزخ هو : الحاجز بين الشيئين قاله الجوهرى. واختلف فى معنى الآية ، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد : حاجز بين الموت والبعث .و قال الكلبى : هو الأجل ما بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة . وقال السدّى : هو الأجل ، و﴿إلى يوم يبعثون ﴾ هو يوم القيامة .

﴿ فإذا نفخ فى الصور ﴾ قيل : هذه هى النفخة الأولى . وقيل : الثانية ، وهذا أولى ، وهى النفخة التى تقع بين البعث والنشور . وقيل : المعنى . فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها وعلى أن الصور جمع صورة لا القرن ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس والحسن : « الصور » بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة . وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو ، وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو ، وهو القرن الذى ينفخ فيه ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ أى لا يتفاخرون بالأنساب ويذكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة ﴿ ولا يتساءلون ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضًا، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاغلا، ومنه قوله تعالى: ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] ، وقوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ [المعارج: ١٠] ولا ينافى هذا ما فى الآية الأخرى من قوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور: ٢٥] فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة ، فالإثبات

باعتبار بعضها،والنفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا ،مما أثبت تارة ونفى أخرى .

﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ أى موزوناته من أعماله الصالحة ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بمطالبهم المحبوبة ، الناجون من الأمور التى يخافونها ﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ وهى أعماله الصالحة ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ أى ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿ **فى جهنم خالدون** ﴾ هذا بدل من صلة الموصول ، أو خبر ثان لاسم الإشارة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده . وجملة : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ مستأنفة ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال ، أو تكون خبرًا آخر لأولئك . واللفح : الإحراق ، يقال : لفحته النار : إذا أحرقته ، ولفحته بالسيف : إذا ضربته ، وخصّ الوجوه ؛ لأنها أشرف الأعضاء ﴿**وهم فيها كالحون** ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال . الكالح : الذى قد تشمرت شفتاه وبدت أسنانه ، قاله الزجاج . ودهر كالح ، أى شديد . قال أهل اللغة : الكلوح : تكنيز فى عبوس .

وجملة : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم** ﴾ هى على إضمار القول ، أى يقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا ، أى ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ﴿ **فكنتم بها تكذبون** ﴾ . وجملة : ﴿ **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ،أى غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا ، فسمى ذلك شقوة ؛ لأنه يؤول إلى الشقاء . قرأ أهل المدينة، وأبو عمرو وعاصم: ﴿ **شقوتنا** ﴾ وقرأ الباقون : « شقاوتنا » وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن ﴿ **وكنا قوما ضالين** ﴾ أى بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة. ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا:﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ أى فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك ، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿ **قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون** ﴾ أى اسكنوا فى جهنم . قال المبرد : الخسء : إبعاد بمكروه ، وقال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب . فالمعنى على هذا : أبعدوا فى جهنم . كما يقال للكلب : اخسأ ، أى ابعد ، خسأت الكلب خسأ : طردته ﴿ **ولا تكلمون** ﴾ فى إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم . وقيل : المعنى : لا تكلمون رأسا .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنه كان فريق من عبادى يقولون** ﴾ وهم المؤمنون . وقيل : الصحابة ، يقولون : ﴿ **ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **إنه كان فريق** ﴾ بكسر إن استئنافًا تعليليًا ، وقرأ أبىّ بفتحها ﴿ **فاتخذتموهم سخريا** ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائى بضمّ السين ، وقرأ الباقون بكسرها . وفرّق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزو ، والضم من جهة السخرية . قال النحاس : ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفرّاء ، وحكى الثعلبى عن الكسائى : أن الكسر بمعنى : الاستهزاء والسخرية بالقول ، والضم بمعنى : التسخير والاستبعاد بالفعل ﴿ **حتى أنسوكم ذكرى** ﴾ أى اتخذتموهم سخريا إلى هذه الغاية فإنهم نسوا ذكر الله لشدّة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿**وكنتم منهم**

تضحكون ﴾ فى الدنيا ، والمعنى : حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب . وجملة : ﴿ **إنى جزيتهم اليوم بما صبروا** ﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق ، والباء فى : ﴿ **بما صبروا** ﴾ للسببية ﴿ **أنهم هم الفائزون** ﴾ قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالفتح ، أى لأنهم الفائزون ، ويجوز أن يكون منصوبًا على أنه المفعول الثانى للفعل .

﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين** ﴾ القائل هو الله عزّ وجلّ وتذكيرًا لهم كم لبثوا ؟ لما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن ،كما فى قوله: ﴿ **اخسؤوا فيها**﴾ والمراد بالأرض :هى الأرض التى طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه فى الحياة وفى القبور . وقيل : هو سؤال عن مدة لبثهم فى القبور لقوله: ﴿ **فى الأرض** ﴾ ولم يقل : على الأرض ، وردّ بمثل قوله تعالى: ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ [الأعراف : ٥٦] وانتصاب ﴿ **عدد سنين** ﴾ على التمييز ، لما فى « كم » من الإبهام ﴿ **وسنين** ﴾ بفتح النون على أنها نون الجمع ، ومن العرب من يخفضها وينونها. ﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ استقصروا مدة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد . وقيل: إن العذاب رفع عنهم بين النفختين ، فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم . وقيل : أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية . ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدّة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا : ﴿ **فاسأل العادين** ﴾ أى المتمكنين من معرفة العدد ، وهم الملائكة؛ لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم . وقيل : المعنى : فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى : « قل كم لبثتم فى الأرض » على الأمر ، والمعنى : قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمرًا للملك بسؤالهم ، أو التقدير : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد ، والمراد : الجماعة . وقرأ الباقون: ﴿ **قال كم لبثتم** ﴾ على أن القائل هو الله عزّ وجلّ أوالملك.

﴿ **قال إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « قل إن لبثتم » كما فى الآية الأولى ، وقرأ الباقون : «قال» على الخبر ، وقد تقدّم توجيه القراءتين ، أى ما لبثتم فى الأرض إلا لبثًا قليلا ﴿ **لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ شيئًا من العلم ، والجواب محذوف ، أى لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم فى الأرض أو فى القبور أو فيهما ، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم . ثم زاد سبحانه فى توبيخهم فقال : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ الهمزة للتوبيخ والتقرير ، والفاء للعطف على مقدّر كما تقدّم بيانه فى مواضع ، أى ألم تعلموا شيئًا فحسبتم ، وانتصاب ﴿ **عبثا** ﴾ على الحال، أى عابثين ، أو على العلة ، أى للبعث . قال بالأوّل سيبويه وقطرب ، وبالثانى أبو عبيدة ، وقال أيضًا : يجوز أن يكون منتصبًا على المصدرية ، وجملة : ﴿ **وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ معطوفة على ﴿ **أنما خلقناكم عبثا** ﴾ والعبث فى اللغة : اللعب ، يقال:عبث يعبث عبثًا فهو عابث ، أى لاعب ، وأصله من قولهم : عبثت الأقط ، أى خلطته، والمعنى:

أفحسبتم أن خلقناكم [(١)] للإهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب ، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور فنجازيكم بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائى : « ترجعون » بفتح الفوقية وكسرالجيم مبنيًا للفاعل ، وقرأ الباقون على البناء للمفعول . وقيل : إنه يجوز عطف ﴿**وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ على ﴿ **عبثا** ﴾ على معنى : إنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع .

ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **فتعالى الله** ﴾ أى تنزّه عن الأولاد والشركاء أو عن أن يخلق شيئًا عبثًا ، أوعن جميع ذلك ، وهو ﴿ **الملك** ﴾ الذى يحق له الملك على الإطلاق ﴿**الحق**﴾ فى جميع أفعاله وأقواله ﴿ **لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ فكيف لا يكون إلها وربًا ، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات ؟ ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه ، أو باعتبار من استوى عليه ، كما يقال : بيت كريم : إذا كان ساكنوه كرامًا . قرأ أبو جعفر وابن محيصن وإسماعيل وأبان بن ثعلب : « الكريم » بالرفع على أنه نعت لربّ ، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه نعت للعرش .

ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخًا لهم وتقريعًا فقال : ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر** ﴾ يعبده مع الله أو يعبده وحده ، وجملة :﴿ **لا برهان له به** ﴾ فى محل نصب صفة لقوله : ﴿**إلها**﴾ وهى صفة لازمة جيء بها للتأكيد ، كقوله : ﴿ **يطير بجناحيه** ﴾ [الأنعام : ٣٨] . والبرهان : الحجة الواضحة والدليل الواضح ،وجواب الشرط قوله: ﴿ **فإنما حسابه عند ربه** ﴾ . وجملة :﴿ **لا برهان له به** ﴾ معترضة بين الشرط والجزاء ، كقولك : من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فالله مثيبه . وقيل : إن جواب الشرط قوله : لا برهان له به على حذف فاء الجزاء ، كقول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها

﴿ **إنه لا يفلح الكافرون** ﴾ قرأ الحسن وقتادة بفتح « أن » على التعليل ، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، وقرأ الحسن : « لا يفلح » بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح . ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعوه بالمغفرة والرحمة فقال : ﴿ **وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدى به أمته . وقيل : أمره بالاستغفار لأمته . وقد تقدّم بيان كونه أرحم الرّاحمين ، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : إذا أدخل الكافر فى قبره فيرى مقعده من النار ﴿ **قال رب ارجعون** ﴾ أتوب أعمل صالحًا ، فيقال له : قد عمرت ما كنت معمرًا ، فيضيق عليه قبره ، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوى إليه حيات الأرض وعقاربها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : زعموا أن النبى ﷺ قال

---

(١) فى المخطوطة : « خلقنا لكم » والصواب ما أثبتناه وهو ما يستقيم به المعنى .

لعائشة : « إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا : نرجعك إلى الدنيا ، فيقول : إلى دار الهموم والأحزان ، بل قدمًا إلى الله ؛ وأما الكافر فيقولون له : نرجعك ، فيقول : ﴿ **رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت** ﴾ » (١) هو مرسل . وأخرج الديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شىء يمنعه عن الحقّ فيجعل بين عينيه ، فعند ذلك يقول : ﴿ **رب ارجعون .لعلى أعمل صالحا فيما تركت** ﴾ » . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله:﴿ **أعمل صالحا** ﴾ قال : أقول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور ، يدخل عليهم فى قبورهم حيات سود ، حية عند رأسه وحية عند رجليه، يقرصانه حتى تلتقيا فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ قال : حين نفخ فى الصور ، فلا يبقى حىّ إلا الله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه، أنه سئل عن قوله : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ وقوله : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ فقال : إنها مواقف ، فأما الموقف الذى لا أنساب بينهم ولا يتساءلون عند الصعقة الأولى ، لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا ، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عنه أيضًا ، أنه سئل عن الآيتين فقال : أما قوله : ﴿ **ولا يتساءلون** ﴾ فهذا فى النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شىء ، وأما قوله :﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. وأخرج ابن المبارك فى الزهد ،وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين. وفى لفظ : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأوّلين والآخرين ، ثم ينادى مناد : ألا إن هذا فلان بن فلان ، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه . وفى لفظ : من كان له مظلمة فليجىء فليأخذ حقه ، فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرًا ،ومصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ .

وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن المسْور بن مخرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى » (٢) . وأخرج البزار والطبرانى وأبونعيم والحاكم ، والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى »(٣). وأخرج ابن

(١) ابن جرير ١٨/ ٤٠ .
(٢) أحمد ٤/ ٣٢٣ والطبرانى ٢٠/ ٢٦ (٣٠) وصححه الحاكم ٣/ ١٥٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٦٤ .
(٣) الطبرانى (٢٦٣٤ ، ٢٦٣٥ ، ٢٦٦٣) ، وصححه الحاكم ٣/ ١٤٢ وقال الذهبى : « منقطع » .

عساكر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » . وأخرج أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « ما بال رجال يقولون : إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه ، بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة ، وإنى أيها الناس فرط لكم » (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ قال : تنفخ . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى صفة النار عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ قال : « تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود فى الآية قال : لفحتهم لفحة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته على أعقابهم. وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه، وابن أبى الدنيا فى صفة النار ، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه فى قوله : ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته (٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : كلوح الرأس النضيج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **كالحون** ﴾ قال : عابسون . وقد ورد فى صفة أهل النار وما يقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة .

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ فى أذن مصاب : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ حتى ختم السورة فبرئ ، فقال رسول الله ﷺ : « بماذا قرأت فى أذنه ؟ » فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ :« والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنًا قرأ بها على جبل لزال » (٣) . وأخرج ابن السنى وابن منده ، وأبو نعيم فى المعرفة ، قال السيوطى : بسند حسن ، من طريق محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون** ﴾ فقرأناها فغنمنا وسلمنا .

---

(١) أحمد ٣/ ١٨ .

(٢) ذكر الإمام الحافظ ابن كثير ٥/ ٤١ ، ٤٢ أن هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ وقال : « رواه الترمذى عن سوير بن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال : حسن غريب » .

(٣) أبو يعلى (٥٠٤٥) وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة . وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٧ .

فهرس الموضوعات

تفسير سورة يوسف

٥ فضل السورة .
٦ قوله تعالى : ﴿ الر . تلك آيات الكتاب المبين ... ﴾ الآيات . لماذا كانت السورة أحسن القصص؟ الآثار الواردة .
١٠ قوله تعالى : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
١٣ قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا ... ﴾ الآيات . هل كان يوسف عليه السلام نبياً وقت تآمر إخوته عليه ؟ الآثار الواردة .
١٧ قوله تعالى : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ... ﴾ الآيات . منة الله على يوسف وتعليمه تأويل الأحاديث ـ الآثار الواردة .
٢٢ قوله تعالى : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ... ﴾ الآيات . ابتلاء نبى الله يوسف بامرأة العزيز ـ ظهور براءته بشهادة شاهد من أهلها ـ الآثار الواردة .
٢٨ قوله تعالى : ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز ... ﴾ الآيات . من النسوة ؟ وعيد امرأة العزيز ليوسف بالسجن ـ الآثار الواردة .
٣٤ قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ... ﴾ الآيات . ما هى الآيات التى بدت لهم؟ تبليغ نبى الله يوسف دعوة الله داخل السجن ـ الآثار الواردة .
٣٩ قوله تعالى : ﴿ يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه ...﴾ الآيات. تفسير رؤيا المسجونين ـ الآثار الواردة .
٤٢ قوله تعالى : ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات ...﴾ الآيات. شرح رؤيا الملك ـ الآثار الواردة.
٤٦ قوله تعالى : ﴿ وقال الملك ائتونى به ... ﴾ الآيات . إظهار براءة نبى الله يوسف ـ هل للإنسان أن يطلب الولاية ؟ الآثار الواردة .
٥٠ قوله تعالى : ﴿ وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه ... ﴾ الآيات . ما حدث بين يوسف وإخوته حين حضروا إلى مصر ؟ الآثار الواردة .
٥٥ قوله تعالى : ﴿ وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ... ﴾ الآيات . لم أمر نبى الله يعقوب أولاده ألا يدخلوا من باب واحد ؟ أثر العين ـ ما كان بين يوسف وإخوته ـ الآثار الواردة .
٦١ قوله تعالى : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له . . . ﴾ الآيات . معنى ﴿ قالوا إن يسرق ﴾ ـ الآثار الواردة .
٦٥ قوله تعالى : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم ... ﴾ الآيات . حال نبى الله يعقوب وكيف أثر فيه الحزن ؟ الآثار الواردة .
٧٠ قوله تعالى : ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف ... ﴾ الآيات . تعريف يوسف بنفسه ـ عفوه عن إخوته ـ ما القميص الذى أرسله يوسف إلى أبيه ؟ الآثار الواردة .
٧٦ قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه ... ﴾ الآيات . تحقق رؤيا سيدنا يوسف ـ الآثار الواردة .

٧٩ قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ... ﴾ الآيات. العبرة من قصة سيدنا يوسف ـ الآثار الواردة .
٨٢ قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ... ﴾ الآيات . استكمال العبرة من قصة سيدنا يوسف وبيان عاقبة المكذبين والمصدقين ـ الآثار الواردة .

تفسير سورة الرعد

٨٧ قوله تعالى : ﴿ المر تلك آيات الكتاب ... ﴾ الآيات . آيات قدرة الله تعالى ـ الآثار الواردة.
٩٢ قوله تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ ـ الآثار الواردة .
٩٨ قوله تعالى : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً ... ﴾ الآيات . تنوع آيات الله فى الكون ـ معنى سجود الظلال ـ مثل المهتدى وعاقبته ومثل الضال وعاقبته ـ الآثار الواردة .
١٠٧ قوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك ... ﴾ الآيات . صفات المؤمنين وصفات الكافرين وعاقبة كل ـ الآثار الواردة .
١١٠ قوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق ... ﴾ الآيات . الدنيا ووزنها عند الله ـ معنى ﴿ طوبى ﴾ ـ الآثار الواردة .
١١٤ قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به ... ﴾ الآيات. معنى﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾ ـ الآثار الواردة .
١١٩ قوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ ـ الآثار الواردة .
١٢٤ قوله تعالى : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم ...﴾ الآيات. معنى نقص الأرض من أطرافها ـ معنى ﴿ من عنده علم الكتاب ﴾ ـ الآثار الواردة .

تفسير سورة إبراهيم

١٢٧ قوله تعالى : ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ودفع شبهة أن الرسول أرسل بلسان العرب مع أنه أرسل للعالمين ـ الآثار الواردة .
١٣٠ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا ... ﴾ الآيات . هل الشكر موجب للزيادة ؟ حال أقوام الرسل معهم ـ حال المؤمنين بالرسل ـ الآثار الواردة .
١٣٦ قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم ... ﴾ الآيات. مثل أعمال الكافرين ـ الآثار الواردة.
١٤٠ قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات...﴾ الآيات. خطبة إبليس لأهل النار ـ الآثار الواردة.
١٤٤ قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا ... ﴾ الآيات . مثل كلمة الإيمان وكلمة الكفر ـ الآثار الواردة .
١٤٨ قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا ... ﴾ الآيات . تعديد نعم الله ـ الآثار الواردة .
١٥٣ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ... ﴾ الآيات . دعوة سيدنا إبراهيم ـ معنى ﴿ ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ ـ الآثار الواردة .
١٥٧ قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا ... ﴾ الآيات . حال الظالمين يوم القيامة ـ الآثار الواردة.

١٦١ قوله تعالى : ﴿ فلا تحسبن اللّه مخلف وعده ... ﴾ الآيات . معنى تبدل الأرض والسماء ـ الآثار الواردة .

تفسير سورة الحجر

١٦٥ قوله تعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب...﴾ الآيات . متى يتمنى الكافر لو كان مسلما؟الآثار الواردة .
١٧١ قوله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا ... ﴾ الآيات . معنى البروج ـ معنى لواقح ـ الآثار الواردة .
١٧٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ... ﴾ الآيات . أصل ابن آدم ، وأصل الجن ـ حادثة إبليس فى شأن آدم ـ معنى ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ ـ الآثار الواردة .
١٨٣ قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ... ﴾ الآيات . حال المتقين ـ بشرى نبى اللّه إبراهيم وحواره لهم فى شأن قوم لوط ـ الوعد بهلاك قوم لوط ـ الآثار الواردة .
١٨٩ قوله تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ... ﴾ الآيات . ما كان من قوم لوط مع الملائكة وهلاك هؤلاء القوم الظالمين ـ الآثار الواردة .
١٩٤ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثانى ... ﴾ الآيات . ما هى السبع المثانى ـ ما معنى ﴿المقتسمين ﴾ ـ الآثار الورادة .

تفسير سورة النحل

٢٠٣ قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... ﴾ الآيات . معنى أمر اللّه ـ معنى الروح ـ تعديد نعم اللّه ـ ما ورد فى أكل لحوم الخيل ـ الآثار الواردة .
٢٠٩ قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء ... ﴾ الآيات . منن الله على عباده وعجزهم عن إحصائها فضلاً عن شكرهم لها ـ الآثار الواردة .
٢١٥ قوله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله ... ﴾ الآيات . قيمة ما يدعى من دون اللّه ـ من هم الذين خر عليهم السقف من فوقهم ـ الآثار الواردة .
٢١٩ قوله تعالى : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ...﴾ الآيات . حال الكافرين وحال المؤمنين ـ الآثار الواردة.
٢٢٢ قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ لو يشاء اللّه ما عبدنا من دونه من شىء ﴾ ـ ما المراد من قوله تعالى : ﴿ أن نقول له كن فيكون ﴾ ـ الآثار الواردة .
٢٢٦ قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ الآثار الواردة .
٢٣٢ قوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... ﴾ الآيات . حال الكافر مع الله فى الرخاء والشدة ـ حال العرب قبل الإسلام ـ الآثار الواردة .
٢٣٩ قوله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ نعمة اللّه فى اللبن وعسل النحل ـ الآثار الواردة .
٢٤٥ قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٢٤٩ قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ... ﴾ الآيات . مثل لبيان من له القدرة ومن العاجز ـ الآثار الواردة .

٢٥٤ قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... ﴾ الآيات . نعم يعددها الله على عباده ــ الآثار الواردة .
٢٥٧ قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ... ﴾ الآيات . معنى العدل والإحسان ، ومعنى الفحشاء والمنكر والبغى ــ الآثار الواردة .
٢٦٢ قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ...﴾ الآيات. معنى الوفاء بالعهد ــ الآثار الواردة .
٢٦٦ قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ... ﴾ الآيات . معنى الحياة الطيبة ــ الرد على فرية من قالوا : إن القرآن ليس من عند الله ــ الآثار الواردة .
٢٧١ قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه...﴾ الآيات. حكم من أكره على الكفر ــ الآثار الواردة.
٢٧٥ قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت ... ﴾ الآيات . الكفر وعدم الشكر سبب لزوال النعم ــ الآثار الواردة .
٢٧٩ قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ ــ كيف اختلف أهل السبت فيه ؟ الآثار الواردة .

تفسير سورة الإسراء

٢٨٥ فضل السورة.
٢٨٥ قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ... ﴾ الآيات ، الخلاف حول الإسراء بالجسد والروح ــ فى أى عام كان الإسراء ؟ ــ الآثار الواردة .
٢٨٩ قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ... ﴾ الآيات . ماذا قضى على بنى إسرائيل ؟ الآثار الواردة .
٢٩٣ قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ... ﴾ الآيات . معنى محو آية الليل وإبصار آية النهار ــ معنى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ــ الآثار الواردة .
٣٠٠ قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا ... ﴾ الآيات . الوصية بالوالدين ــ الآثار الواردة.
٣٠٥ قوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ... ﴾ الآيات. معنى التبذير ــ نواه يجب اجتنابها ــ معنى السلطان لولى المقتول ــ معنى الإسراف فى القتل ــ الآثار الواردة.
٣١٣ قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ... ﴾ الآيات. أوامر ونواه تكمل ما سبق ــ الآثار الواردة.
٣١٩ قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ... ﴾ الآيات . الكلام حول تسبيح كل شىء بحمد الله ــ الآثار الواردة .
٣٢٤ قوله تعالى : ﴿ وقالوا أإذا كنا عظاما ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٣٢٨ قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ... ﴾ الآيات . لِمَ لَمْ يجب الله الكفار إلى ما طلبوه ؟ الآثار الواردة .
٣٣٤ قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴾ الآيات . قصة إبليس مع سيدنا آدم ــ الآثار الواردة .
٣٣٧ قوله تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك ... ﴾ الآيات . معنى تفضيل بنى آدم على كثير من خلق الله ــ الآثار الواردة .
٣٤١ قوله تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ... ﴾ الآيات . الإمام الذى تدعى الناس به . المقصود بالعمى ــ الآثار الواردة .

٣٤٦ قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس...﴾ الآيات . معنى ﴿ نافلة لك ﴾ ــ ما هو المقام المحمود ؟معنى المدخل الصدق والمخرج الصدق ــ معنى الشفاء ــ ما الروح؟ ــ الآثار الواردة .
٣٥٦ قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا ... ﴾ الآيات . بيان إعجاز القرآن ــ مطالب الكافرين والرد عليها ــ الآثار الواردة .
٣٦٠ قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ... ﴾ الآيات . الرد على شبهة الكافرين فى بشرية الرسول ــ كيف يحشر الكافر ؟ الآثار الواردة .
٣٦٣ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ... ﴾ الآيات. ما هى الآيات التسع ؟ الآثار الواردة.
٣٦٧ قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

تفسير سورة الكهف

٣٧٢ فضل السورة.
٣٧٣ قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب...﴾ الآيات. معنى عوجا ــ الآثار الواردة.
٣٧٦ قوله تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف ... ﴾ الآيات . قصة أهل الكهف ــ معنى الرقيم ــ الآثار الواردة .
٣٨٠ قوله تعالى : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت...﴾ الآيات. آية الله فى حفظ أهل الكهف ــ الآثار الواردة.
٣٨٣ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ... ﴾ الآيات . الخلاف فى عدد أهل الكهف ــ كم لبثوا فى الكهف ؟ الآثار الواردة .
٣٨٩ قوله تعالى : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ... ﴾ الآيات . أمر الله لرسوله بالصبر مع المؤمنين به ــ جزاء الكافرين والمؤمنين ــ الآثار الواردة .
٣٩٤ قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين ... ﴾ الآيات . قصة صاحب الجنتين وصاحبه ــ الآثار الواردة .
٤٠٠ قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٤٠٢ قوله تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال ... ﴾ الآيات. بيان أن إبليس كان من الجن ــ الآثار الواردة.
٤٠٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٤١٠ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ... ﴾ الآيات . قصة موسى مع فتاه ــ شرط العبد الصالح على موسى حتى يتعلم ــ الآثار الواردة .
٤١٦ قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا...﴾ الآيات. قصة موسى مع العبد الصالح ــ الآثار الواردة .
٤٢٢ قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ... ﴾ الآيات . قصة ذى القرنين ــ الآثار الواردة .
٤٢٨ قوله تعالى : ﴿ثم أتبع سببا ... ﴾ الآيات . ما جاء عن يأجوج ومأجوج ــ الآثار الواردة .
٤٣٣ قوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٤٣٧ قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

تفسير سورة مريم

٤٤٢ فضل السورة.
٤٤٢ قوله تعالى : ﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا زكريا ــ الآثار الواردة.

٤٤٩ قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٤٥١ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ... ﴾ الآيات . قصة حمل مريم بنبى الله عيسى ـ الآثار الواردة .
٤٥٦ قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله ... ﴾ الآيات . شك بنى إسرائيل فى أمر مريم وتكلم نبى الله عيسى فى المهد ـ الآثار الواردة .
٤٥٩ قوله تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٤٦٢ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم... ﴾ الآيات. قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه ـ الآثار الواردة.
٤٦٤ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى ... ﴾ الآيات . مدح القرآن لسيدنا موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام ـ الآثار الواردة .
٤٧٠ قوله تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ... ﴾ الآيات . معنى الورود ـ الآثار الواردة .
٤٧٧ قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٤٨١ قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ... ﴾ الآيات . هل تكون الآلهة ضدا على عابديها ؟ كيف يحشر المتقون والكافرون ؟ الآثار الواردة .
٤٨٥ قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

تفسير سورة طه

٤٨٨ فضل السورة .
٤٨٨ قوله تعالى : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . . . ﴾ الآيات . معنى ﴿ طه ﴾ ـ معنى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ السر وأخفى ﴾ ـ قصة النار التى رآها نبى الله موسى ـ الآثار الواردة .
٤٩٦ قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ... ﴾ الآيات ـ معجزات سيدنا موسى وإرساله إلى فرعون ـ الآثار الواردة .
٥٠٠ قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ... ﴾ الآيات . تذكير الله لنبيه موسى بنعمته عليه ـ الآثار الواردة .
٥٠٤ قوله تعالى : ﴿ قالا ربنا إننا نخاف... ﴾ الآيات. ما دار بين نبى الله موسى وفرعون ـ الآثار الواردة.
٥١٠ قوله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ... ﴾ الآيات . ما فعله السحرة وما فعلته عصا موسى بقدرة الله ـ إيمان السحرة ـ الآثار الواردة .
٥١٥ قوله تعالى : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ... ﴾ الآيات . محاولة فرعون فتنة السحرة عن دينهم ـ الآثار الواردة .
٥١٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر ... ﴾ الآيات . نجاة نبى الله موسى ومن آمن معه ـ فتنة أتباع موسى وعبادتهم عجل السامرى ـ الآثار الواردة .
٥٢٣ قوله تعالى : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ... ﴾ الآيات . العتاب الشديد بين موسى وهارون ـ نفى السامرى وحرق العجل . الآثار الواردة .
٥٢٨ قوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ... ﴾ الآيات . أحوال القيامة ـ الآثار الواردة .
٥٣٢ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ... ﴾ الآيات. ما هو عهد الله لآدم ؟ الآثار الواردة.
٥٣٥ قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

٥٣٧ قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا ... ﴾ الآيات . ما المراد بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ؟ الآثار الواردة .

تفسير سورة الأنبياء

٥٤٣ فضل السورة .
٥٤٣ قوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ... ﴾ الآيات. كلام الإمام الشوكانى فى حدوث القرآن ــ رأيه فى التقليد ــ الآثار الواردة .
٥٤٧ قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا ...﴾ الآيات . معنى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ــ الآثار الواردة .
٥٥٣ قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ... ﴾ الآيات . من القائلون اتخذ الرحمن ولدا ؟ معنى فتق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا ــ الآثار الواردة .
٥٥٧ قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ... ﴾ الآيات. فيمن نزلت ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ ــ الآثار الواردة .
٥٦٠ قوله تعالى : ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم ...﴾ الآيات . قصة نبى الله إبراهيم ــ الآثار الواردة.
٥٦٤ قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ... ﴾ الآيات. قصة تحطيم نبى الله إبراهيم للأصنام ــ معنى ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ ــ الآثار الواردة .
٥٦٨ قوله تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٥٧٠ قوله تعالى : ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان ...﴾ الآيات. حكم نبى الله داود فى الحرث وحكم نبى الله سليمان ــ دعوة أيوب عليه السلام ــ دعوة يونس عليه السلام ــ الآثار الواردة.
٥٧٩ قوله تعالى: ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ... ﴾ الآيات . ذكر زكريا ومريم عليهما السلام ــ معنى ﴿وحرام على قرية أهلكناها ﴾ ــ الآثار الواردة.
٥٨٤ قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ... ﴾ الآيات . معنى : طى السجل ــ معنى : أن الأرض يرثها الصالحون ــ الآثار الواردة .

تفسير سورة الحج

٥٩٢ فضل السورة.
٥٩٢ قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ... ﴾ الآيات . أهوال القيامة ــ الخلق ودلالته على البعث ــ الآثار الواردة .
٥٩٨ قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
٦٠٣ قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ... ﴾ الآيات . الكافرون وما أعد لهم ، والمؤمنون وما أعد لهم ــ الآثار الواردة .
٦٠٨ قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون ... ﴾ الآيات. معنى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ ــ حكم بيوت مكة ــ من المخاطب بقوله تعالى : ﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾ ــ الآثار الواردة .
٦١٤ قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله . . .﴾ الآيات. خطر شهادة الزور ــ الآثار الواردة.

٦١٨ قوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم ... ﴾ الآيتان . من القانع ومن المعتر ـ الآثار الواردة .
٦٢١ قوله تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ... ﴾ الآيات . بداية الأمر بالقتال ـ صفات المنتصرين ـ الآثار الواردة .
٦٢٤ قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم... ﴾ الآيات. العبرة بالغابرين ـ الآثار الواردة .
٦٢٨ قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ... ﴾ الآيات. حديث الغرانيق ـ الآثار الواردة.
٦٣٢ قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ... ﴾ الآيات . فضل الشهادة فى سبيل الله ـ الآثار الواردة .
٦٣٥ قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا ... ﴾ الآيات . حال أهل البدع والضلال مع الدعاة إلى الله ـ الآثار الواردة .
٦٣٨ قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل ... ﴾ الآيات . مثل ما يعبد من دون الله ـ معنى الحرج ـ الآثار الواردة .

تفسير سورة المؤمنون

٦٤٤ فضل السورة.
٦٤٤ قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ... ﴾ الآيات . هل الخشوع فريضة أم فضيلة ؟ ـ تحريم نكاح المتعة ـ الآثار الواردة .
٦٤٨ قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ... ﴾ الآيات . مراحل تكوين الجنين ـ تعديد نعم الله ـ الآثار الواردة .
٦٥٤ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا نوح مع قومه ـ الآثار الواردة.
٦٥٩ قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا موسى مع فرعون ـ الآثار الواردة .
٦٦٤ قوله تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم ... ﴾ الآيات . صفات المؤمنين ـ الآثار الواردة.
٦٦٩ قوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول ... ﴾ الآيات . حجج من لم يؤمنوا بالله ـ الآثار الواردة.
٦٧٣ قوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ... ﴾ الآيات . دلائل وحدانية الله ونفى الشريك والولد ـ الآثار الواردة .
٦٧٧ قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ... ﴾ الآيات . حال الكافرين عند الموت ـ معنى ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ ـ وما ورد فى فضل الآيات الأربع من آخر السورة ـ الآثار الواردة .

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م

I.S.B.N:977-15-0122-4